بقاء
رواية
نورهان أبو بكر
الرواق للنشر والتوزيع

بقاء

نورهان أبو بكر

الرواق للنشر والتوزيع

بقاء

نورهان أبو بكر

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: د.محمد ابوعوف

رقم الإيداع: 28417/ 2019

الترقيم الدولي: 4 - 089 - 824 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

إلى كل من تحلى بالشجاعة لكي يقص حكايته

لتتزين بها سطوري..

دمتم أقوياء

فالحاضر حاضري

والماضي.. يشملنا جميعا..

استهلال

أيهما أهم، الوجهة أم الطريق؟

جملة ظلت تأتي في بالي طوال الطريق، يقال إن الوجهة هي الأهم، نقطة النهاية أهم من كل شيء، وما أن تصل ستنسى ما مررت به، فقط لو يعلمون أن لولا أهمية طريقي الآن لما وصلت إلى وجهتي..

على الرغم من أنني لا أعلم ما هي، أخذت سيارتي وظللت أقود، طرقات واسعة ممهدة ينيرها أعمدة الطريق بأضواء خافتة، على يميني مجمع سكني لمتوسطي الدخل، أو هكذا يبدو عليه، وعلى يساري أرض شاسعة خالية من علامات الحياة.. رفعت صوت الأغاني ليغطي على ضجيج أفكاري، نفثت آخر دخان في سيجارتي وألقيتها بعيدًا من الشباك.. تمنيت لو كانت تلك السيجارة هي همومي الآن.

قطعت فريدة أفكاري لتقول بصوت محبط:

ـ معجبتنيش، بعيدة أوي عن المواصلات، هروح الجامعة إزاي؟

فريدة هي شقيقتي الصغرى.. أكبرها بأربع سنوات.. بيضاء، طويلة القامة، شعر أشعث أسود، وملامح بريئة للغاية كطفلة يغرم بها كل من يراها.. فمنذ أن كانت صغيرة وملامحها الطفولية لم تتغير.. فعاشت حياة تلك الطفلة التي ولدت طويلة القامة.. التحقت بكلية التربية الموسيقية.. فالحس الإبداعي لديها عال.. تعشق العزف تهوى الرسم.. ونقيضي في كل شيء..

أنا أحب الضجيج أما هي تعشق الهدوء.. تتأنى كثيرا في الاختيار بينما أتسرع أنا دومًا، أبكي وأصرخ وأتحدث عما يؤلمني لتصمت هي تمامًا ولا تبوح بأي شيء، أمتاز بالجنون

لتمتاز هي بالعقل.. كان من يعرفنا لا يصدق أننا أخوة..

اخترق سؤالها مسامعي كسهم آخر يغرز في رأسي مشكلة أخرى، وكأن العواقب قد قررت أن تتراكم لتصبح وجهتي بعيدة المنال، أخذت سيارتي في التباطؤ، نظرت لحازم في المرآة لأرى عينيه ثابتة على الشباك وعقله شاردا، فقلت له:

ـ إنت إيه رأيك؟

حازم.. ذلك الصديق الذي كافأتني الحياة بوجوده بجوارنا.. شاب في أواخر العشرينات من عمره.. قصير القامة ولكنه عريض المنكبين.. شعر مموج ولحية بنية يهتم بتشذيبها يوميًا، عينان قد زينا باللون العسلي الفاتح، لديه تلك الحاسة السادسة في معرفة كينونة الأشخاص.. حتى أنني قد ألححت عليه بتدريس مبادئ علم الفراسة.. لم يلتزم بالعمل في شركة ما.. يكره الروتين اليومي المصاحب دومًا لحياة الموظف، فقرر أن يتجه للأعمال الحرة، ليقوم ب توزيع الأغاني لبعض المطربين..

التفت حازم، يبدو على وجهه علامات القلق لكنه يحاول إخفاءها كعادته وراء صوته الحنون، ذلك الشاب الذي كرس حياته من أجل مساعدتنا، لم يعلم قط أنه مهما حاول إخفاء قلقه.. أشعر به.

ـ هي مش وحشة والمنطقة أمان

صمت قليلًا ثم أكمل كلامه:

ـ هو السمسار مكلمكيش تاني؟ مش قالك هشوف وارد عليكي؟

ارتسم على وجهي الإحباط وقلت:

ـ معبرنيش.. وبجد أنا تعبت من معاملتهم معايا، أنا مش رايحة أشحت منهم عشان أفضل ملطوعة كدة! دانا قايلاله أنا مستعجلة واللي هلاقيه مناسب همضي العقد وانقل من بكرة..

ابتسم حازم وقال:

ـ متخافيش، هتتحل.. أنا واثق إن ربنا شايلكم حاجة حلوة أوي.. خليكي دايمًا فاكرة إن مفيش حاجة وحشة بتيجي من حاجة حلوة..

قاطعته بانفعال:

ـ هي فين الحاجة الحلوة دي، إنت شايف اللي احنا فيه ده حاجة حلوة! إنت شايف بهدلتنا دي حلوة؟ حياتي اللي اتقلبت دي حاجة عدلة؟ إنت بتتكلم بأي منطق!

لمحت نظرات حازم لي في المرآة وحاولت تجاهلها متعمدة، ربما لإيماني الكامل أنه لن يشعر بي أحد سواي، ف شخصي وتفكيري ومواقفي لم يتعرض لها أحد سواي.. وربما لأنني كنت على وشك الانهيار التام خلف عجلة القيادة.. أردت دفن رأسي فيها ولو للحظات قليلة لأستعيد تركيزي، نظرت لفريدة الجالسة بجانبي، كانت تتصفح هاتفها باحثة عن أرقام سماسرة آخرين.. كيف لتلك الشابة التي لم تتجاوز الثانية والعشرين أن تمر بكل هذا.. كيف لها الصمود، فعلى الرغم من حقيقة أنني الأخت الكبري ولكني أجزم انني طفلة بجانبها.. أريد فقط عناقًا منها ليجعلني أشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام..

التفت فريدة لي ممسكة بهاتفها وقربته مني قليلا لأراه، قالت بصوت يميل إلى الحماس قليلًا:

ـ بصي دي كدة.. متيجي نروح نشوفها.. أكلمهم؟

قلت لها شاردة:

ـ شوفي كدة..

رفعت هاتفي لأراه بوضوح، حاولت أن أتابع إرشادات (خرائط جوجل) وأستجمع تركيزي في الطريق لنصل سريعًا إلى الشقة التالية، وعلى الرغم من رؤيتي له إلا أنني كنت أسير

في طريق خاطئ تمامًا..

كم من المرات في حياتي أيقنت أن هذا الطريق لن يجلب سوى المشقة، والحقيقة كانت واضحة وضوح الشمس أمامي ولكن تملك العند مني وأكملت فيه..

كم كنت غبية..

أو مغيبة..

قال حازم:

- هو شيبوب فين؟ مش هيجي؟

أشعلت سيجارة أخرى، زفرت نفسًا وقلت بصوت حانق:

- لأ، في الشغل.. وراه حاجات كتير ومطبق في المكتب، كلمته وقعدت أعيط شوية.. هداني وقفل.

أيقن حازم أنه أشعل فتيل قنبلة أوشكت على الانفجار، تدارك الأمر وقال بتردد:

- ربنا معاه، ما هو بيتعب عشان تتجوزوا بسرعة..

نظرت له في المرآة وابتسمت محاولة إخفاء حقيقة ما أشعر به، الخذلان.. ذلك الإحساس الخبيث الذي يتسلل بداخلك مع مرور الوقت ليقتل كل ذرة أمل قد تبقت.. فطوال حياتي ظللت أفكر في أيهم أشد وجعًا، أن تُخذل من شخص من المفترض أن يكون قدوة لك أم من شخص من المفترض أنه من يرفع كل آمالك إلى حد السماء..

لا وجود للوعود الدائمة بالأمان..

وكل شيء مهدد بالانهيار ف أي لحظة..

قاطع رنين هاتفي أفكاري، أوصلته بالكابل وضغط على زر الاتصال ليخرج الصوت من كاسيت السيارة:

ـ مساء الخير يا آنسة، أنا محمود السمسار اللي حضرتك جاية له دلوقتي في الطريق..

حبست أنفاسي وأجبته بصوت مهزوز:

ـ أيوة.. اتفضل.

قال لي بصوت يحاول أن يكون لبقًا رغم أنه لم يكن مقنعًا :

ـ معلش والله بس صاحب الشقة رفض يأجر، يعني عشان عرف إن انتوا بنتين ولوحدكم وكدة، متأخذنيش في الكلمة.

انقطع الاتصال فجأة.. فتنفست الصعداء أن شبكة هاتفي كانت بجانبي وأنقذتني من الإجابة وصوتي المتحشرج بالبكاء.

أوقفت سيارتي لألتقط أنفاسي قليلًا، لمحت حقيبتنا خلفي التي تحتوي على بضعة تي شيرتات وبنطلونين.

نظرت لكل من فريدة وحازم ثم قلت:

ـ طيب دلوقتي هنعمل إيه؟ مينفعش نروح البيت خلاص، ولازم نلاقي مكان النهاردة بأي شكل، اليوم بيخلص، هنبات في الشارع يعني!

قالت فريدة:

ـ نالا.. إهدي شوية عشان نعرف نفكر.. أنا هنزل الكشك أجيب مية وبالمرة أكلم السمسار، حد عايز حاجة؟

نالا.. اسمي الذي أمتعض البعض عند سماعه، أتشارك مع فريدة في الحس الإبداعي ولكني أختلف في تفاصيله، فأنا أعشق الكتابة والتأليف وأهوى مجال الدعاية والإعلان، فلقد امتهنته لسنوات بعد تخرجي.. كنت خريجة كلية سياسة واقتصاد ولم أحب العمل في ذلك المجال فقررت السعي فيما أحب.. الكتابة أحيانا وتقديم الحفلات في الأساس.. يقال عني إنني أعد من الأشخاص ذي الشهرة الواسعة على مواقع التواصل الاجتماعي..

أومأت رأسي بلا وكذلك حازم، أرحت رأسي إلى الوراء.. رفعت صوت الأغاني لربما أهدأ قليلا، لاحظ حازم شرودي وعلامات الإحباط التي تمكنت مني فقال:

ـ طب بقولك إيه، ما تكلمي حد من صحابك وباتوا عندهم النهاردة.

فأجبته بصوت محبط:

ـ بقالي كتير كنت مسحولة في المشاكل والقرف دة، مكنتش بكلم حد غير دنيا، هكلمها واشوف كدة...

أقبلت فريدة علينا مسرعة وقالت:

ـ الرقم دة هيبعتلنا العنوان، ياللا بسرعة عشان قدامه نص ساعة وهيمشي!

أدرت سيارتي وانطلقت بها..

أخيرًا..

أدركت وجهتي التالية..

* * *

(مــا فـقــد)

الفصل الأول

هممت بالتقاط هاتفي الملقي بجواري.. فلقد رن صوت المنبه في أرجاء الغرفة معلنًا أنه قد حان الوقت، استيقظي فهذا يومك، اليوم المنتظر الذي ستتغير فيه حياتك بأكملها.

أغلقته، نظرت لفريدة لأراها تغط في نوما عميق، لكزتها لكي تفيق.. لتفيق معها دنيا وتقول بصوت نائم:

ـ هتنزلوا؟

همست لدنيا بصوت خافت:

ـ آه، ميعادنا كمان ساعة.. يادوبك هنفوق ونلبس وننزل على طول..

إدعيلنا بقي..

دنيا هي صديقتي المقربة الوحيدة منذ ست سنوات، شابة مشوقة القوام، شعر طويل مموج بني اللون، بشرة قمحية مثلي حتى ظن البعض أنها شقيقتي.. لديها حس الفكاهة عالي لذلك تدخل البهجة علي قلب كل من يراها، تكره الجدال والقيل والقال على عكس البقية من أصدقائنا الذي يعشقون النميمة.. لذلك كنا مقربين.. في علاقة صداقة بسيطة وسهلة للغاية لا يتخللها أي مجهود، إنما تمتاز بالراحة.. تعمل في مجال الهندسة في إحدى شركات الاتصال الكبري.. وعلى الرغم من سخطها من ذلك العمل إلا أنها لم تجد له بديل فقررت الاستقرار به والنجاح فيه..

اعتدلت دنيا في نومتها لتصبح نصف جالسة، ثم قالت بابتسامة:

ـ متخافيش، وكدة كدة أنا معاكي ودة بيتك..

نظرت لها وعلى وجهي ابتسامة امتنان، لا أعلم أشكرها على أي شيء، هل على استقبالها لنا لمدة تزيد عن الأسبوع أم إجبار السكينة على الدخول لقلبي وانتزاع الضحكات المفاجأة مني التي تنسيني مشقة ما أمر به..

كل ما كان يجول في خاطري، أن تلك الغرفة التي احتضنتني لأيام كانت أحن علي من أشخاص كثيرة..

فكيف لغرفة دنيا أن تكون هي قصري المؤقت الذي أهرب إليه لأشعر بنفحات أمان حتى وإن كانت زائفة..

كيف لغرفة لم أولد بها ولا يوجد بها تفاصيل لحياتي.. أن تكون هي ملاذي الوحيد..

قاطع صوت دنيا أفكاري لتقول:

ـ هقوم أخلي ماما تعملنا فطار.

قالتها وهي تنفض الملاءة وتهم بالنهوض من الفراش.. لأجيبها بصوت منخفض:

ـ لأ لأ، متتعبيهاش، أنا أصلًا مش بفطر، ومليش نفس فعلًا..

تنحنحت في الفراش، جسدي مثقل، خائفة.. عقلي مشتت رافض أن يتشبث بأمل آخر قد يتلاشى مع جملة «إيجار للعائلات فقط»..

جلست نصف جلسة لأسند ظهري على الوسادة، واستجمع كامل قواي.. وألملم شتات أفكاري..

ـ قومي يلا عشان نلحق.

قالتها فريدة في طريقها إلى المرحاض، لطالما كان لديها القدرة على الأناقة في غضون ثوانٍ، أو ربما هذا ما هو إلا نفحة قوية من الأدرينالين..

نهضت من الفراش وذهبت إلى المرحاض بدوري..

خطواتي بطيئة، دومًا عندما أكون خائفة.. أتثاقل في الحركة.. أخاف أن أنجرف في حماسي وأهرول لأصدم بواقع عكس ما تمنيته..

نظرت إلى مرآة الحوض، أتأمل وجهي.. لقد كنت دومًا قصيرة القامة على عكس فريدة، قمحية البشرة، شعر قصير أحب أن أتركه منطلقًا دومًا.. فكيف تغيرت ملامحي وساد عليها الحزن، فأنا الفتاة التي اعتاد الجميع على رؤيتها مقبلة على الحياة، وجه يتوسطه دومًا ابتسامة معلنة الانتصار على العقبات.. تبدلت كسرات وجهي ككسرات ظهري الذي انحنى من مشقة ما واجهته، لم أكمل بعد عقدي الثلاثين.. ولكني أشعر بأنني امرأة عجوز على مشارف نهاية الحياة..

لطالما تساءلت إن كان هذا هو شعوري وأنا في ريعان شبابي..

فعندما أصل لعمر جدتي، أجلس على كرسي وبالكاد أستطيع الحركة لأنظر ورائي.. بماذا سأشعر حينها..

تبًا.. انجرفت وراء أفكاري مجددًا ونسيت صنبور المياه مفتوحًا..

غمرت وجهي بماء مثلج لكي أفيق.. وخرجت إلى المطبخ، لأجد والدة دنيا مشغولة بالصحون.. ما إن شعرت بقدومي، التفتت لتقول:

ـ صباح الخير يا حبيبتي، ثواني والفطار هيكون جاهز.

قالتها وعلى وجهها ابتسامة أم حنون جعلت القشعريرة تسري في جسدي.. فلا أدري متى كانت آخر مرة قد صحوت على صوت أم تحضر لي طعامًا.. أو صحوت على شخص يهتم

بي في الأساس..

تلك النعم التي اعتدنا عليها.. فقلت لها معتذرة:

ـ شكرًا يا طنط.. أنا هدخل ألبس ونازلة خلاص.. شكرًا بجد متتعبيش نفسك.

لتلح علي قائلة:

ـ مش هينفع تنزلي على لحم بطنك كدة.

تنهدت من ذلك الإصرار قائلة:

ـ يا دوبك بجد، مش هينفع أتأخر.

رجعت مجددًا إلى غرفة دنيا لأرتدي ملابسي سريعًا، التقطت حقيبتي وأشرت لفريدة بيدي بمعنى أنه وقت الرحيل.

أوصلتني دنيا إلى المصعد، طبعت قبلة على خدي.. وقالت:

ـ خاللي بالك على نفسك وطمنيني كل شوية، هابقى في الشغل بس هركز مع الموبايل.

ربتت على كتفي.. «حاضر»..

قلتها مودعة وانصرفت..

وصلت إلى سيارتي، وبما أنني في منطقة غريبة عني، تركتها في أكثر بقعة مشمسة علي كوكب الأرض لأجد حرارتها تفوق حرارة السعودية في يوم صيفي حار.. جلسنا أنا وفريدة ليلسع كل شيء في السيارة جسدنا، ولكننا لم نعبأ وكأن كل مراكز الإحساس كانت موجهة نحو شيء واحد فقط.. المنزل!

ـ إمسكي الموبايل بتاعي، فتحتلك اللوكيشن اللي السمسار بعتهولي.

قالتها فريدة وهي تعطيني هاتفها ليستقر على ساقي أثناء القيادة، كم مرة قد قررت أن أشتري ذلك الشيء اللعين الذي يثبت الهاتف بتكييف السيارة وأنسى كعادتي..

أدرت السيارة وبدأت في رحلتي..

رحلة الوصول إلى وجهتي التي قد تكون الأخيرة لفترة كبيرة..

ورحلة أفكاري..

لأتذكر..

كل شيء..

* * *

«نامي انتي في الأوضة الصغيرة وانا هاخد العيال يناموا معايا».

قالتها جدتي وعلى وجهها حزن كمن مات له أقرب شخص، تلك الجملة اللعينة التي وقعت على مسامعي كالصاعقة لتعلن بداية حياة جديدة لنا لا يوجد بها أي ملامح.. مستقبل لا نعلمه وروتين نجهله..

«لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع».

علي الرغم من عمري وقتها الذي لم يتعد السادسة عشر إلا أنني تمنيت معرفة الغيب، ليطمئن قلبي ويهدأ بالي، تمنيت أن أرى نبذات عن أيامنا القادمة.. لكي أستعد لصدمة أخرى كملاكم في الحلبة يحمي وجهه وراء قفازيه لتفادي الضربة القادمة..

نظرت إلى أمي، وجهها شاحب، هزيلة.. تائهة.. مستهلكة من فرط البكاء.. وجسدها على وشك الدخول في حالة هيستريا.. فمن يراها الآن ويرى كيف بدت في بدايات زواجها سيصدم.. كيف تحولت من تلك الشابة الاجتماعية ذات الوجه الوردي المنطلقة إلى تلك السيدة التي فقدت كل معاني الأمل في الحياة..

مر على زواجها من أبي قرابة العشرين عامًا.. فمنذ أن ضربت الأنوثة جسدها، أصبحت شابة ممشوقة القوام، بشرة بيضاء، وجنتان ورديتان تكسوهم قطرات من النمش، ابتسامة خلابة تكشف عن صفين من الأسنان اللامعة. تدخل في سباق الزواج وتلتقي به في جلسة تعارف تقليدية، أحبته منذ اللقاء الأول.. ليقع هو الآخر في غرامها ويصبح هائمًا في جمالها، ومن لم يفعل وقتها...لقد كانت ابتسامتها هي سبب بداية حبهم الأفلاطوني..

أو هكذا تخيلت..

«أنا هنام إزاي.. هنام إزاي يا ماما»

قالتها أمي ثم أجهشت ببكاء فاطر للقلب.. فاقتربت جدتي منها لتدفن رأسها بين ذراعيها لتهدأ قليلًا..

وقفت أشاهد من خلف الباب الفاصل ما بين غرفة المعيشة والصالون.. أشاهد أمي وهي تبكي دمًا وقلبها يحترق للمرة المليون.. أمي التي أرهقتها خيانة أبي لها..

أفقدتها الثقة بنفسها، جعلتها تشك في تلك السنين الماضية.. تندم على كل مرة غفرت له وهي تعلم في قرارة نفسها أنها لن تكون الأخيرة، فقدت الأمل في أنها قد تكون كافية وزوجها قد يستغني بها عن كل نساء العالم، أصبحت كتلك الطفلة التائهة ما بين متي سيتوقف عن خيإنتي، وبين أسامحه من أجل أطفالنا لكي تمضي الحياة..

كثير منا عند سماعه لقصة خيانة تكون النصيحة الوحيدة «اتطلقي» وكأنها خطوة سهلة.. نحن يا من نصاب بالحيرة عند الاختيار ما بين بنطال أزرق أم كحلي، نتحلى دومًا

بالشجاعة الكافية في النصيحة ما دامت ليست في بيتنا.. كتلك النصيحة العنصرية والمتحيزة ضد النساء، الرجل يخون زوجته مع امرأة أخرى.. فنتهافت لنصب غضبنا وسخطنا عليها تحت شعار «خرابة بيوت» وكأن الرجل بينهم بهيمة تساق لا وجود لعقله من الأساس.. ننتقد المرأة وننسى أن هنالك رجلًا قد اختار بالفعل.. الخيانة.. وهذا ما كانت أمي تفعله، تصب غضبها على النساء وتلعنهم في كل ليلة متجاهلة حقيقة أن أبي..

من اختار أن يكون زير نساء.. وبجدارة!

التفتت جدتي لأمي وقالت لها وهي تمسح على شعرها:

ـ أنا عارفة اللي إنتي فيه مش سهل أبدًا.. بس لازم تهدي..

أخفت أمي وجهها وراء كفيها.. بدت وكأنها ترفض تلك النبرة.. رفعت رأسها وقد تبدلت ملامحها لتصبح أكثر عصبية:

ـ أهدا إزاي؟ أهدا وانا عارفة إنه بيخوني؟ ومع مين؟ مع الشغالة بتاعت أمه؟ ليه!! أنا عملتله إيه.. لأ وبمنتهي البجاحة بكلمها أقولها إبعدي عن جوزي.. الحيوانة ترد وتقولي جوزك هو اللي بيجري ورايا...!

صرخت أمي صرخة تعلن بها انفجار النيران بداخلها، أخذت في صراخ مليء بالآهات لعل وعسى صراخها قد يخفف من وطأة ما تشعر به.. لتقول جدتي بصوت يميل إلى البكاء:

ـ يا بنتي متقهريش نفسك كدة.. بصي لعيالك ومستقبلهم.. هينبسطوا هما بقي لما يشوفوا أمهم كدة؟

صمتت قليلًا ثم قالت بصوت لوام كمن ينصح أحدهم:

ـ إيه يعني بيبص برى؟ ما الرجالة كلها بتبص برة.. بس الست الشاطرة هي اللي تحافظ على بيتها عشان عيالها..

هدأ صراخ أمي ورفعت رأسها لتنظر إلى جدتي مباشرة، عيناها جحظتا وفوران قلبها قد ظهر في حمرة وجهها، لتقول بصوت محتقن:

ـ إنتي عمرك ما هتعرفي أنا حاسة بإية عشان عمرك ما كنتي مكاني...!

توترت جدتي.. كل الحجج المنطقية التي قد جهزتها قد تبخرت بتلك الجملة، ربتت على كتف أمي لتمتص غضبها ولو قليلًا ثم قالت:

ـ إسمعيني.. أنا عايزة مصلحتك وأكتر واحدة حفظاكي.. إنتي بتحبيه ومن ساعة ما وعيتي ع الدنيا مشوفتيش غيره.. على قد حبك على قد المسامحة.. يا بنتي كلنا بنغلط وكلنا بنسامح.. بعدين وهو بيرجع ينام في حضن مين؟ ما هو في حضنك..

تبدلت ملامح أمي، ليرتسم على وجهها البرود، نظرتها ثابتة والدموع تنسال منها.. قطرة وراء الأخرى.. جسدها كجثة هامدة.. تنصت لكلام جدتي معلنة استسلامها للأمر الواقع.. واقع أن حياتنا قد تغيرت.. منزلنا قد تغيير.. علاقة أمي وأبي قد تلطخت بدماء التراكمات بعد قتلها بخنجر الخيانة..

كبرت وأنا أشهد ذلك الشجار مرات كثيرة حتى توقفت عن عدهم، غريب هو أمر النساء، لديهم تلك القدرة العجيبة على الغفران تحت مسمى الأطفال والحياة الزوجية والمظهر الاجتماعي، أشاهد نفسي وأنا أتحول لذلك الشخص الذي أقسم أنه لن يتحمل هذا الكم من الإهانة في حقه.. آمنت بأنه مرض لعين.. مرض الجماع بين امرأتين في آن واحد.. أو ربما ثلاثة.. تلك الشهوة الداخلية الحقيرة التي يتلذذ بها كل من يخون.. آمنت بأنه من ذاق تلك اللذة في الخفاء لن يكف يومًا عنها.. ولن تكف أمي عن المسامحة..

شاهدت أمي وهي كالثور الهائج.. الكل يعتقد أنه يثور عند رؤيته للون الأحمر.. إلا أن الحقيقة أنه يثور من استفزاز الحمقى له المتمسكين بذلك اللون.. الكل يراها امرأة جميلة،

متسامحة ودودة، تتمتع بالصلابة.. فينصحونها بالبقاء.. لكن في الحقيقة، بداخلها طفلة تحاول الاستنجاد بعقل يفهم أنوثتها التي محيت.. وصوابها الذي يتلاشى يومًا بعد يوم..

تسمرت مكاني حين هبطت يد على كتفي، لأستدير وأرى أختي الصغرى تقف ورائي، لقد استيقظت من النوم..

حسنًا.. أنا الأخت الكبرى.. أمي في حالة انهيار تام.. شعرت لأول مرة.. أنني لا بد وأن أخطو خطواتها في تحمل المسؤولية.. فمسحت على شعرها وأنا أقول بصوت هادئ:

ـ إيه اللي صحاكي؟

حاولت التشويش علي صوت أمي في الخلفية.. لتومئ لي برأسها أنها لا تعلم، فذهبت بها إلى فراشها وجلست بجوارها حتى نامت.. ثم تسللت مرة أخرى لأسمع نهاية حديث جدتي..

ـ خليكي قاعدة معايا اليومين دول عشان أعصابك تهدى شوية.. بس فكري في العيال.. خليهم في بالك.. استحملي عشانهم بدل ما يترموا في الشارع من غير أب معاهم..

قالتها جدتي وهي تبتسم ابتسامة صفراء..

محاولة أن تخفي شيئًا ما بداخلها..

كما تدين تدان..

فقد ذاقت مرارة..

ما تشعر به ابنتها..

* * *

«وصلنا»

قالتها فريدة ناظرة إلى هاتفها، رفعت رأسي لأتفقد المبني.. حي راقٍ، فيلا ترتفع لثلاثة طوابق.. بجوارها مجموعة من المباني يتوسطهم حديقة كبيرة، باب الفيلا حديدي ضخم مطلي باللون الجنزاري المزخرف.. مزين بزهور على جانبيه.. حديقة خارجية صغيرة تابعة لهم يبدو عليها العناية اليومية.. آخرها ممر صغير يؤدي إلى السلم الداخلي للمبنى.. شرفتان فقط في المبني بأكمله يبدو عليهما معالم الحياة، أما الباقي فالنوافذ مغلقة يكسوها الغبار.. إذن، المبنى غير مكتظ بالسكان!

ترجلت لأرى شخصًا في انتظارنا خلف بوابة الفيلا بدا عليه مظاهر العمل الشاق وبجواره شابة في الثلاثينيات من عمرها.. يبدو أنها من القاطنين في المبني..

أقبلت عليه فريدة لتعرفه بنفسها فيرد عليها بأنه الشخص الذي جاءنا من أجل لقائه..

السمسار..

ألقيت التحية عليه ثم على الشابة، مبتسمة ابتسامة عادة أستخدمها في المقابلات الرسمية عندما أريد أن أخفي شيئًا ما بداخلي، وإن كان هناك شخص يعلم مقدار صغير عن علم الفراسة لقرأ ما تخفيه عيني وسط نظراتي.. مثلما يفعل حازم دومًا..

التفت لنا السمسار ثم أشار بيده لكني ندخل بينما الشابة اكتفت بإيماءة من رأسها دعمًا لحديثه، فقال:

ـ طيب اتفضلوا شوفوا الشقة الأول..

نظرت لفريدة ثم التفت إليهم.. حبست أنفاسي.. خطوت أول خطوة.. ومع كل خطوة أتذكر المنازل التي ذهبنا لرؤيتها دون جدوى، تارة السمسار يتعامل وكأنني غير جادة وتارة يتعامل بمنتهى الحقارة في الأمور المادية، مع كل خطوة أتذكر موقفًا سخيفًا قد تعرضت

له على مدار الأسبوع الماضي، فلن أنسى مهما حييت ذلك السمسار العنصري الذي صدمني بجملته الفجة قائلا «مش بكتب عقود مع ستات، هاتيلي راجل أتكلم معاه» وكأن الاتفاقات أصبحت حكرًا على الرجال فقط.. أو ربما من فرط استخدامنا لجملة ـ كلمة الرجل عقد ـ أصبحنا نرى أن النساء يحركون شفاههم من أجل الثرثرة فقط.. ونسينا حقيقة أن من ربى مبدأ احترام الرجل لكلمته كانت أمه في الأساس..

نظرت إلى الدرج، صعدت وكأنني أصعد جبلًا وأحفر فيه بمزلاج لأتشبث وأعلو درجة نحو السماء.. شعرت بروحي تحلق.. لا أدري لماذا لم ينقبض قلبي مثلما اعتاد أن يفعل كلما هم بالدخول إلى منزل جديد..

«وصلنا»

قالتها تلك الشابة وهي تفتح باب حديدي صغير لتلفح نسمة هواء وجهي معلنة عن بوادر الانتصار، أرى خلفه ساحة فارغة.. نصفها سيراميك والنصف الآخر بلاط.. فهذا هو المعتاد لأي سطح بناية، نعم.. بحثت عن منزل يتوسط سطح فيلا.. ليصبح الرووف هو مملكتي الخاصة..

نظرت عن يميني لأجد مبنى صغيرًا يتوسط السطح له عدة مخارج ويطل على المنطقة بأكملها، وما إن دخلنا.. ارتاح قلبي!

هذا هو بيتي.. لا أعلم المبلغ المطلوب ولا شروط مالكه ولا أركانه التي من الممكن أن تمتلئ بعيوب.. ولكن شيئًا بداخلي قد تحرك تجاهه، شيئا جعلني أتيقن أن هذا هو بيتي..

فمساحته لا تتعدى المائة متر.. صغير جدًا ولكنه مريح، فارغ تمامًا.. صالة صغيرة يطل عليها مطبخ مفتوح على الطريقة الأمريكية.. حمام صغير للضيوف.. وغرفة نوم كبيرة بحمامها الخاص الرئيس.. هذا هو المنزل فقط!

لطالما تساءلت عن شعور من يقطنون في قصور ذات مساحات شاسعة، كيف لديهم القدرة على ملء ذلك الفراغ..

أخذت جولة، صغيرة جدًا بالطبع ولكن مع دخولي لكل ركن في المنزل أصبحت أتخيل ما سأبتاعه لأزين ذلك الركن.. أراه بيتي بالفعل.. جميلة هي تلك اللحظة التي تصل فيها إلى وجهتك وتتنفس الصعداء..

«إيه رأيك؟»

قلتها وأنا مائلة على أذن فريدة تحرجًا من صراحتها التي تظهر في أوقات غير موفقة..

ثم أكملت حديثي بتردد:

ـ عجباكي؟

لا بد أن توافق عليها أولًا.. فعندما تحب فريدة الشيء يزداد حبي له.. وما إن تبدأ في تغيير وجهة نظرها عنه، أرتبك ثم ابدأ بالتخلي عنه شيئًا فشيئًا.. فالتفتت لي وقالت بصوت منخفض:

ـ حلوة أوي! يا رب بس الإيجار ميكونش عالي أوي..

لأجيبها مبتسمة:

ـ هتتحل والله، أنا متفائلة.. أنا حبيت المكان دا.. حسيت إنه بيتي خلاص وارتحت كدة.

التفت لكل من السمسار وتلك الشابة لأقول بابتسامة أعلنت عن حبي وإعجابي الشديد بمنزلهم.. رغم انني حاولت أن أخفيها لكيلا يقوموا برفع سعر الإيجار الشهري عندما يروني متمسكة بها للغاية.. حيلة قد اكتسبتها على مدار الأسبوع الماضي.. فقلت:

ـ طيب، مبدئيا هي عجبانا وكويسة.. فحابة إننا نتكلم في كل التفاصيل..

أومأت لي الشابة برأسها أنها توافق ثم قالت مرحبة بنا:

ـ أكيد، ممكن تتفضلوا عندنا تحت ونتكلم في كل حاجة..

بدأنا في التحرك إلى منزلهم القابع بالدور الأرضي.. جلسنا في الساحة الخارجية ليقبل علينا صاحب الفيلا.. وتجلس بجانبه الشابة التي اتضح أنها ابنته.. يونس، رجل في العقد السادس من عمره، مهندم في ملابسه، نظرات حادة خلف عدسات نضارته، متوسط الطول، ظهره محني قليلًا.. ملامح تدل على شخص بداخله إنسان طيب ولكنه يظهر عكس ما يبطن.. وما إن تكلم حتى علمت أنه كان طبيبًا في الماضي في إحدى دول الخليج، حسنًا.. فأنا أجلس الآن أمام رجل مثقف وعلى درجة كبيرة من الإدراك.. التفت إلي قائلًا في فضول:

ـ وإنتي بتشتغلي إيه بقى؟

توترت للحظة.. ثم استعدت تركيزي.. لأقول:

ـ أنا بقدم حفلات وندوات، وأحيانًا بشتغل في مجال الدعاية والإعلان عشان عندي شهرة صغيرة كدة على السوشيال ميديا..

تمنيت أن يدرك طبيعة عملي المستجدة على ذلك الجيل، دومًا أقف عند إجابة تلك السؤال لأنني أعلم أنه سوف يطول شرحها.. فقاطعتني ابنته قائلة بحماس:

ـ أيوة.. أنا برضه كنت بشبه عليكي!! أنا عرفاكي..

ظهرت على وجهه ملامح ممزوجة ما بين الفضول والارتياح قليلًا.. بينما ظهر على وجهي الخجل..

ـ معلش أنا شكلي متبهدل بس شويتين.. بقالنا كتير بنلف على شقق كل يوم.. فيعني.. بلبس أي حاجة وبنزل..

التفت لي ثم قال بصوت هادئ:

ـ طيب، وإنتي هتشرفينا إنتي واختك، صح؟

فأجبته بصوت متردد:

ـ آه، أنا وهي بس..

بدا عليه الحيرة ولكنه قرر إطلاق ذلك التساؤل، لقد حفظت تلك النظرة عن ظهر قلب فأصبحت أتوقع السؤال، فقال:

ـ طب وبابا وماما فين؟ معلش يا بنتي اعذريني على أسئلتي الكتير بس لازم برضه أكون عارف..

نظرت إلى فريدة محاولة الحفاظ على رباطة جأشي، فعقلي ثائر بين أفكار كثيرة.. وأكاد اصرخ.. حتى طمأنتني بنظرتها.. فأجبته بصوت مهزوز:

ـ لأ أكيد مفيش حاجة، دا حق حضرتك طبعًا.. في الحقيقة إحنا كنا عايشين في إسكندرية بس اضطرينا ننقل القاهرة عشان جامعة فريدة وأنا مش هسيبها لوحدها فقررت أنقل معاها أنا كمان..

بدا الارتياح على وجهه فقال مبتسما:

ـ طيب هو الإيجار المفروض أربعة آلاف ونص في الشهر، بس عشان انتوا بنات ولوحدكم هيبقى أربعة، لو جاهزة دلوقتي ممكن نمضي العقد، هحتاج منك بس شهر مقدم وشهر تأمين..

لم أنتبه تماما لباقي الجملة.. رن رقم أربعة آلاف في أذني.. صداه أشعل القلق بداخلي الذي أثق أنه سيلازمني كثيرًا.. عملي مختلف عن الآخرين.. لست موظفة في إحدى الشركات أعلم مقدار راتبي الشهري بل أعمل في مجال الأعمال الحرة التي تؤرق صاحبها ليل نهار لعدم وجود ذلك الاستقرار المادي الدائم..

لاحظت فريدة شرودي فأسرعت بالرد قائلة:

ـ ماشي، حضرتك إحنا جاهزين.

ابتسم لها الرجل وذهب إلى الداخل ليجلب العقد، بينما أنا جالسة.. أبدأ حياة جديدة لم تكن في الحسبان..

وحيدة.. بلا أب أو أم.. بلا نور ينير لي طريقي.. وبلا ملامح!

لمحت فريدة فوجدتها تنظر لي، ابتسمت لها على الفور فهبطت دمعة كنت قد منعتها من النزول... ولكنها تمردت علي وهبطت على وجنتي..

حاولت أن أخفي حزني.. إحباطي.. سخطي وغضبي..

ولكني فشلت..

وما إن دخل علينا مجددًا حاملًا أوراق العقود في يديه حتى انتفض جسدي.. فقلت بصوت مرتجف:

ـ ممكن قلم؟

التفتت لي ابنته وأعطتني إياه..

بحثت عن خانة الإمضاء..

وما إن وجدتها حتى ترددت.. أكتب أولى حروف اسمي أم أنتظر لربما نجد منزلًا أفضل؟ أخاف أن أتسرع؟ فدومًا يتم اتهامي بالتسرع في القرارات بينما أراها أنا بمنظور مختلف.. اغتنام الفرص!

استجمعت قواي لتجري عيني بين أسطر الشروط.. قرأتها بتمعن.. تلك البنود التي دوما لا نكترث بها.. نقفز بالموافقة فقط!

حبست أنفاسي ثم كتبت..

اسمي بالكامل..

ومضيت العقد..

* * *

الفصل الثاني

أقف أنا الآن أمام منزل أستاذ يونس في ترقب.. ضغطت على الجرس، وابتعدت عن الباب خطوتين إلي الوراء.. لا أدري من علمني تلك العادة ولكنني أحبها على كل حال، واحترم جدا من يفعلها في منزلي.. فتح لي أستاذ يونس الباب وعلى وجهه ضحكة جميلة قائلًا بترحاب:

ـ يا أهلًا يا أهلًا.. عاملين إيه يا حبايبي؟

بادلته الضحكة، فلقد شعرت بأنه رجل طيب الأخلاق، ثم أجبته:

ـ كويسين يا أونكل الحمد للـه.. أنا مش عايزة أزعج حضرتك.. أنا بس كنت جاية آخد المفتاح زي ما اتفقنا إمبارح..

التقط المفتاح ثم قال:

ـ أهه، جاهز.. مبروك عليكم..

رجعت خطوات إلى الخلف استعدادًا للذهاب ثم قلت وأنا هحرك رأسي في علامة مني على شكري إياه قائلة:

ـ اللـه يبارك في حضرتك.. شكرًا.. عن إذنك..

لوح لي بيديه وأغلق الباب، فذهبت أنا إلى سيارتي التي يقف بجوارها أحمد وحازم ودنيا.. وفريدة.. فقلت لهم وأنا أغلق جميع أبواب سيارتي:

ـ نزلتوا الشنط كلها؟

فأومأوا جميعًا بمعنى نعم، فقلت بحماس:

ـ ياللا طيب أنا جيبت المفتاح خلاص..

حملنا الحقائب جميعها ولم تكن كثيرة على كل حال.. صعدنا إلى منزلي الجديد.. فتحت الباب الخارجي الخاص بالسطح ودخلنا جميعًا إلى الساحة حتى توقفت أمام باب المنزل، أخذت نفسًا عميقًا.. وانزلق المفتاح ليفتح لي ليس بابًا فقط وإنما أرض خاوية سأعمرها بيدي!

وقفنا في الصالة.. تأملت وجه أحمد ودنيا وحازم لأرى ردة فعلهم الأولي لرؤيتهم للمنزل.. بدا عليهم الانبهار، انبهار طفل رأي شارع بيته قد تحول بالكامل إلى انهار من الشيكولاتة.

أجزم أن لو شاهدهم أحد في تلك اللحظة لشعر بالشفقة على من فرط مواساتهم المزيفة لي، ولكنني أعلم أنها حقيقة..

ـ مش قلتلك مفيش حاجة وحشة بتيجي من حاجة حلوة؟

التفت لي حازم ونظر إليّ نظرة عتاب ممزوجة بضحكته المستفزة التي تخرج فقط عندما يقول شيئًا وأقوم أنا بالعناد معه لنكتشف لاحقًا أنه كان معه الحق.. فقلت له مازحة:

ـ ماشي يا سيدي.. عرفنا إنك أبو العريف وعارف كل حاجة.. بس بجد إيه رأيكم؟ حلوة صح؟

تجولت في أنحاء الصالة وأنا أكمل حديثي «صغيرة كدة ومحندقة»، ثم توقفت ونظرت لهم جميعًا لأقول:

ـ ممكن تقولوا عليا هبلة.. بس أنا مش شايفاها صغيرة خالص ولا مضايقة إنها ع الرووف.. بالعكس.. أنا قاعدة بفكر من دلوقتي هفرشها إزاي.. هاشتري إيه ومنين..

ضربتني في تلك اللحظة حقيقة أن كل الأموال التي أملكها قد قاربت على الانتهاء.. فتغيرت ملامح وجهي.. وأكملت قائلة:

ـ إن شاء اللـه ربنا يكرمني.. إدعولي والنبي..

أقبلت دنيا وعانقتني.. ثم ابتعدت لتلتقط كيسًا من على الأرض قائلة:

ـ بصي أنا عديت بعد الشغل على محل جنب بيتي وجيبت كام حاجة ننضف بيها كدة.

قالتها دنيا وهي تخرج من الكيس أدوات نضافة، بينما حازم رتب جميع الشنط في زاوية واحدة.. وفريدة أخذت تدور في الشقة وتدون كل شيء علينا شرائه بشكل مبدئي، وأحمد التزم بالوقوف بجواري ويده تربت على كتفي.. فقلت لدنيا بامتنان:

ـ بتتعبي نفسك ليه! مانا هنزل أجيب كل حاجة.. شكرًا يا دنيا بجد.. مش عارفة أقولك إيه واللـه.

ابتسمت لي، تركتها وذهبت إلى المطبخ الخاوي من أي مظهر من مظاهر الطعام أو الحياة.. لم يكن به سوى ثلاجة قديمة.. تركها لنا أستاذ يونس مسبقًا دون مقابل.. كم هو جميل!

أخذت أشاهد كل ركن في المطبخ.. ذلك المكان المكتظ في أي بيت بأرفف كثيرة تحمل زجاجات وبرطمانات ووحدات خشبية مليئة بالأواني ووحدات أخرى مليئة بالمخزون الشهري من الأكل، حولهم مجموعة من الأجهزة سعرهم جميعًا لا يقل عن ثلاثين ألف جنيهًا، حوض يعلوه دولاب مليء بالكثير من الأطباق والكاسات، بجواره أدوار ترتفع عن الأرض محملة بالبصل والثوم، وتحته دولاب آخر مليء بأدوات النظافة بأكملها وكل احتياجات المطبخ، ومجموعات من الأدراج محملة بما يمسي «رفايع المطبخ»..

أما عن مطبخي.. فهو مجرد غرفة فارغة مفروشة بالسيراميك فقط..

أمامي مشوار طويل..

التفت لي أحمد قائلًا:

ـ مبروك يا حبيبتي.

أحمد الشايب، من اخترته ليكون زوج المستقبل لأكمل معه الباقي من حياتي.. شاب اقترب عمره من الثامنة والعشرين.. طويل القامة، أكتاف رياضية، شعر قصير للغاية، فهو يحلقه على درجة واحد بصفة متكررة، أبيض اللون، يمتاز بضحكة تهز أرجاء المكان من قوة صوتها.. دومًا ما يلفت الانتباه لنا ولكني لا أكترث، اطمئن حينما أسمعها..

رأيته لأول مرة في احتفال صديقة لي بعيد مولدها، لم نتحدث ولكننا اكتفينا بتبادل النظرات حتى شاء القدر لاجتمعا سويًا على طاولة واحدة في أحد الكافيهات، لوجود أصدقاء مشتركين.. واشتعلت مشاعري تجاهه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا، حتى تقدم لخطبتي العام الماضي.. مرت أربع سنوات يا شيبوب.. لقب بشيبوب المشتق من اسم والده «الشايب» لكني نادرًا ما أناديه به..

التفتُ له ثم ابتسمت ليكمل حديثه وهو ينظر لي نظرة عتاب:

ـ مع إني لسة شايف إن ماما كان عندها حق، إنك كنتي تقعدي في شقتنا الفترة دي لحد متتفرش خالص ونتجوز..

تبدلت ملامح وجهي.. فلا أدري أأفرح للمباركة أم أغضب للومه علي في وقت شائك كهذا.. فقد كرهت تلك العادة فيه وسئمت منها.. عادة اللوم.. لأجيبه بصوت صارم:

ـ أحمد.. إحنا اتكلمنا في الموضوع ده ستين ألف مرة وقلتلك لأ مش هينفع.. جهازي هفتحه وأنا مراتك في بيتك.. منظري هيبقي إيه قدام نفسي وانا قاعدة فالبيت اللي المفروض هتجوز فيه.

ابتسمت وربت على كتفه في محاولة مني لتدارك الموقف، لا أريد شجارًا آخر الآن:

ـ البيت ده يا أحمد أنا هدخله وأنا عروسة.. مش وانا مش لاقية مكان أنام فيه أنا وأختي..

تبدلت ملامح وجهه لتصبح أكثر حدة «ماشي؟» قلتها وعلى وجهي علامات التصميم.. ليقول في ضيق:

ـ ماشي اللي يريحك..

قالها وابتعد عني في إشارة منه إنه قد غضب.. ظللت أقف مكاني أتذكر حديثه، فآخر ما أريده هو لومي على قرار لا أراه صحيحًا من البداية.. فكل ما أريده هو عناقًا.. يشعرني بأنني سأكون بخير..

لمحت حازم يخرج كالونًا جديدًا للباب، وأدوات تركيبه.. ويهم بتغيير الكالون القديم.. لتصبح نسخة المفتاح معي فقط..

مفتاح شقتي..

مملكتي..

أما عن دنيا وفريدة.. وجدتهم في غرفة النوم، غرفة أركانها مربعة.. ذات مخرج على الرووف الخارجي تطل على حديقة الكبيرة.. غرفة لا تحتوي غير ضلفات من الزجاج كباب للخارج وشباك آخر.. وأيضًا على بضع لمبات إنارة خافتة في جوانب الغرفة.. تفقدت سقف الغرفة لتصدمني فكرة أنني نسيت بالكامل أنه لا يوجد لمبة إنارة واحدة، فقالت فريدة علي الفور ما إن لمحتني:

ـ جيبت لمض.. متخافيش.. وتعالي ساعدينا ونضفي بدل مإنتي متنحة في السقف كدة.

كانت منهمكة في مسح الأرض من أكوام الغبار التي تحتلها..

ذهبت إلى الصالة لأبدأ في مسح الأتربة.. ليقول لي حازم:

ـ إمسكي، دول نسختين من المفتاح، اتركب خلاص..

مد يديه نحوي بالمفتاح.. فمددت يدي لألتقطه..

مفتاحي!

وضعته في جيبي.. ظللت أتحسس وجوده من خارج البنطال، غير مصدقة أنني الآن أملك شقتي، الآن أنا صاحبة أملاك.. بالطبع لا.. أحب أن أكون ساخرة في أفكاري، أسخر حتى في أحلك الظروف.. فقد وصلت إلى درجة كافية من الإيمان أن كل شيء سيمر..

قاطعني صوت حازم وهو يتحدث في الهاتف قائلًا:

ـ آه آه، بالظبط.. اطلع آخر دور بقي.. ياللا.. مع السلامة..

انتبهت له فقلت بصوت متعجب:

ـ هو مين ده؟

ليجيبني ببرود:

ـ هتعرفي بعدين.

عقدت حاجي ونظرت له غير فاهمة، فقلت بصوت أعلى:

ـ يعني إيه بعدين، مين اللي طالع بيتي ده...!

فأجابني ساخرًا:

ـ بيتي؟ بمنتهى التلقائية كدة خلاص؟ حلو إنك اتعودتي آهو.. أصبري وهتعرفي..

ذهبت لأشغل نفسي في أي شيء.. ففضولي يقتلني.. أنا أثق في حازم وفي أي قرار يأخذه.. أثق ثقة عمياء.. ولكنني شخصية ذات طابع فضولي بشع.

وصل رجل عند باب المنزل حاملًا مرتبة سرير كبيرة يسندها على كتفه ورأسه بذراعه.. وخلفه رجل آخر يحمل طاولة متوسطة الحجم وكرسين مطويين، فأقبل حازم عليهم وأحمد بجواره يبدو على وجهه عدم الفهم قائلًا:

ـ أيوة هنا يا باشا.. خليهم هنا..

وضع الرجلان كل شيء بجوار الباب، لإعطائهم حازم أجرهم بينما وقفت أنا وأحمد وعلى وجوهنا علامات التعجب، فالتفت لي حازم قائلًا بصوت هادئ مبتسمًا:

ـ قلتلك اصبري هتعرفي.. ياللا مبروك عليكي أول حاجة في بيتك..

أقف أمامه ونظراتي ثابتة أكاد أبكي.. فأكمل حديثه:

ـ بصي هي مش حاجة أوه واو يعني.. بس أكيد مش هتناموا
ع الأرض..

قاطعته لأقول بصوت محشرج:

ـ ليه عملت كدة طيب! ليه التكاليف دي كلها؟

ابتسم لي حازم ابتسامة أب حنون ثم قال:

ـ عملت إيه؟ أنا معملتش أي حاجة.. ده اللي المفروض أي صاحب هيعمله..

ليقاطعه أحمد بعد أن بدى على وجهه الاحتقان قائلًا:

ـ أنا بقي هديتي حاجة كبيرة أوي.. بس لسة مخلصتش..

التفت له وأومأت برأسي قائلة «متتعبش نفسك يا حبيبي».. وأنا أعلم جيدًا أنه لم يكن في حسبانه من الأساس، بل قال ذلك حفاظًا على ماء وجهه أمام حازم..

تغيرت ملامحي لتصبح أكثر جدية وقلت موجهة حديثي لحازم:

ـ أنا مش هقدر آخد الحاجات دي.. معلش يا حازم.

ليقول في إصرار:

ـ أنا مش باخد رأيك أصلا.. الحاجات دي بتاعتك خلاص..

ثم أكمل حديثه بابتسامة:

ـ مبروك عليكي..

ظهر على وجهي التأثر ففهم أنني سأوشك على البكاء.. تدارك الموقف وكسره كعادته بجملة أضحكتني:

ـ هو الموضة اليومين دول سراير وطية كدة ارتفاعها عشرة سنتي عن الأرض.. أنا قلت العشرة سنتي دول أ كيد مش فارقين معاكي في حاجة.. فهنبقى ع الأرض أحسن، مرتبة مؤقتًا كدة لحد ما ربنا يكرم بسرير..

كان دومًا مقدار حظي في الدنيا في أصدقائي قليل.. حتى جاء حازم وانقلبت الموازين.. «ربنا يخليك لينا».. قلتها وأنا حقًا ممتنة..

ثم نظرت لهم ووجهت حديثي لكليهما قائلة بصوت خائف:

ـ أنا بس خايفة من اللي جاي أوي يا جماعة.. الشقة فاضية وقدامي مشوار طويل أوي في الفرش، هجيب فلوس لكل ده منين.. غير الإيجار كل أول شهر بالفواتير بالمصاريف.. أنا

خايفة مقدرش..

اقترب مني حازم لبضع خطوات ونظر إلى عيني مباشرة:

ـ نالا اللي أنا اعرفها قوية وعدت بكتير أوي، وهاتعدي بدي كمان..

ابتسمت في توتر.. «إنتي قوية يا نالا» قالها وهو يربت على كتفي.. حاولت ألا أظهر مخاوفي ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل.. فاقتربت من أحمد ليأخذني تحت إبطيه في محاولة منه لتهدئتي.. وأكملت حديثي قائلة:

ـ أنا بس خايفة يجي عليا يوم وملاقيش معايا ولا مليم، أنا شغلي مش ثابت عشان اطمن.. إفرض في يوم عملت حادثة ولا تعبت جامد؟ ولَّا حاجة مهمة في البيت باظت.. الخوازيق اللي بتطلع دي.. هجيبلها فلوس منين؟

مخاوفي قد خرجت بصوت أعلى من صوت عقلي فزادت..

ـ حاسة إني داخلة على عالم كبير أوي.. كل يوم مهم فيه عشان أعرف أوصل لأول الشهر اللي بعده كويسة.. بصوا فاكس خلاص.. هابقى كويسة..

ابتسم حازم لأنه يعلم طريقة هروبي من الكلام.. أتحجج بأني لا يوجد لدي طاقة لتكملة الحديث وتأجيله لوقت لاحق حل مناسب ولكن في حقيقة الأمر.. أنا أهرب من نفسي.. من سماع خوفي بأذني والإقرار به.. بينما شد أحمد ذراعيه ليحاوطني وأدفن وجهي في عناقنا..

استدار حازم ليحمل المرتبة ثم لحق به أحمد ليدخلا بها إلى الغرفة بمساعدة فريدة.. بينما انشغلت أنا بالحقيبة الأقرب لقلبي..

حقيبة صغيرة بنية اللون، قد تبدو من الخارج فارغة ولكنها عامرة من الداخل بمعانٍ كثيرة..

بحثت عن مسامير وشاكوش، حتى وجدتهم بجواري منذ بداية بحثي، أعتقد أن قواي تخر..

ثبت المسامير في حائط الصالة المقابل لباب المنزل لتكون في الوجهة وعلى يساري كلما جلست، أو هكذا تخيلتها.. وفي كل ضربة على رأس المسمار شعرت وكأنني أضرب جميع اوجاعي على رأسهم وأدفنهم في ثنايا الأسمنت..

استدرت لأخرجها من حقيبتي.. مددت يدي داخل الحقيبة، أخرجتها ونظرت إليها، مسحت بيدي لتظل لامعة للأبد..

رفعت يدي عاليا، لكي تكون شقتي الجديدة مزينة بها..

ساعة الحائط القديمة..

* * *

«أنا مش قلتلك... لأ.. ما هو عشان.... تصدق إن....»

صوت همهمة قادم من بعيد يخترق مسامعي.. واخترق معه تسلسل أحلامي ليعيدني إلى الواقع..

استعدت وعيي وبدأت في الإفاقة، لربما شجار كعادة شباب المنطقة أو شجار بسبب شارعنا الضيق الشاهد على معركتين يوميًا بسبب الركنات وأنه اتجاه واحد فقط!

تقلبت في فراشي ليتسلل النور إلى عيني معلنًا موعد الاستيقاظ.. نظرت إلى سقف حجرتي.. زفرت حينما سمعت صوتهم مجددًا.. شعرت بأنني أختنق، أعيش في دائرة لا أعلم كيف الخروج منها، دائرة مكونة من شجار صباحي يومي بشكل روتيني باهت.. أليس لي الحق في النوم بضع ساعات زيادة في أول يوم عطلة؟ ألا يحق لي أن يرتاح بالي بعد أن أجهدته طوال الأشهر السابقة في امتحانات الإعدادية؟ اظن أن الإجابة هي..

لا..

التفت لأرى فريدة قد استيقظت أيضًا.. قائلة بصوت نصف نائم:

ـ هو في إيه ع الصبح..

لأجيبها بصوت منخفض:

ـ هيكون إيه، خناقة كل يوم وشوية وهتخلص.. هتنامي تاني ولا هتصحي خلاص؟

نهضت فريدة من نومها لتصبح نصف جالسة في الفراش، تفرك عينيها وشعرها الأشعث يطير من حوالها.. فقالت:

ـ لأ خلاص.. فُقت وهقوم..

نظرت للسقف مجددًا أحاول أن ألملم بضع قطرات من الطاقة لأنهض من فراشي وأواجه مصيري اليومي.. ولأستمع لصراخهم وأحاول جاهدة ألا أبالي.. رغم أنه يقتلني في كل ليلة.. كأنها المرة الأولي...!

ذهبت إلى غرفة المعيشة التي تطل على غرفة نومهم، ليس لاستراق السمع.. فهم لم يبالوا على كل حال بخفض صوتهم أو النقاش بشكل شخصي وليس بشكل عام يشمل الجيران.. بل لأجلس على الأريكة وأشاهد التلفاز في محاولة لإلهائي عنهم.. ربما صوت المسلسل يجعلهم يهدأون ولو قليلًا..

«هو إنت ليه مصمم تشيِّلني! وفي أتفه الحاجات! كان فيها إيه لو جيبت بطاريات جديدة؟ كام مرة قلتلك».

زفرت نفسًا طويلًا عندما سمعت صراخ أمي في وجه أبي، غريب أمر البشر، يتغاضون عن كبرى المشكلات ويغفرون من أجل الهدف الأسمى وهو الحفاظ على الحب والمودة.. حتى

تأتي أتفه الأسباب لتشعل كل شيء.. فلا تدري أهو غباء التراكمات.. أم غباء التحمل؟ أم يلتزمون الصمت أمام الأزمات لكي يرضوا ضميرهم ويبدأوا بإلقاء اللوم على الطرف الآخر..

لطالما سمعت عن الأزواج الذين يتشاجرون على أتفه الأسباب، سمعت أن الحب يقل مقداره بعد زواج دام لسنوات وأن ما يتبقى هو الاحترام والتقدير والرحمة، ولكنني دومًا شعرت بخلط في هذا المفهوم.. نحن بشر ولسنا بملائكة.. حتمًا سأنفجر، سأثور.. سأنسى الحوار وأهدم الهدوء بيني وبين زوجي.. ولكن من سيجعلني أعود إلى ذراعيه كل ليلة.. حبي له.

ستذهب كل الصفات التي نبحث عنها في زواج الصالونات.. ليبقى الحب هو الرباط الوحيد الذي يجذبنا سويًا بعد شجار دام لساعات.. معلنًا لين القلب وانهزامه أمام من نحب..

على عكس أمي وأبي.. فلقد تلاشت تلك الصفات واستبدلت بالعند واللامبالاة... وأيضًا الحب.. فأصبحنا نعيش في أفعوانية ترتفع إلى الأعلى ولا نعلم ميعاد الهبوط للأسفل.. جاءني صوت أبي وهو يقول:

ـ مش فاهم أنا في إيه.. متعمليها إنتي.

قالها ببرود مصطنع ليشعل النيران بداخلها، كانت هذه هي لعبته المفضلة، لتصرخ بصوت أعلى:

ـ إنت هتفضل رامي عليا كل حاجة كدة لحد إمتي؟ أنا اللي بوصل الدروس والتمارين وبذاكر وبطبخ وبنضف.. لأ وكمان بشتغل.

صمتت للحظة معلنة الانفجار ثم قالت:

ـ أنا عايزة أعرف إنت إيه لازمتك.. يا شيخ دانا حتى أنبوبة البوتاجاز أنا اللي بغيرها!!!

لم أشاهدهم.. أستمع لهم فقط ولكنني أتخيل المشهد في رأسي.. فقد حفظت كل ردود الأفعال عن ظهر قلب.. كانت هي بالسذاجة الكافية التي تجعلها تقع في فخ بروده كل مرة حتى تنجرف وراء لسانها السليط ليقع الخطأ واللوم عليها في النهاية.. وكان هو بالحنكة الكافية لقلب الموازين ليجعلها تشك في نفسها، هل هي على صواب أم مجرد فوران هرمونات.. فقال بصوت حانق:

ـ بقولك إيه.. أنا مش فايق للهبل اللي بتعمليه ع الصبح ده.

يستفزها مجددًا.. يجعلها تثور مجددًا.. فلو كان هو الشخص الذي ستصب عليه غضبها بعد انتهائها من الشجار، لابتلع لسانه وصمت وكف عن محاولاته لاستفزازها.. ولكنه يعلم في قرارة نفسه أنه لم يكن ذلك الشخص..

بل كانت ابنتها..

أنا..

نالا..

«إنت رامي كل حاجة يا عليًا يا على أبوك، حرام عليك أنا تعبت»

قالتها صارخة، ليرد على اتهاماتها بلا مبالاة قائلًا:

ـ تعبتي من إيه؟ إنتي فاكرة إنك بتعملي حاجة زيادة؟ كل الستات كدة يا ماما فوقي لنفسك..

لم يعلم حجم الأسى الذي تشعر به الآن، على كل مرة قد قررت فيها التحمل والتحلي بالجلد من أجله.. ولم تعلم هي أنه ليس الملام بل والده، من اعتاد على محو المسؤولية من على كتفيه حتى أصبح لا يعرف كيف تحملها..

كل منهما يلوم الآخر على شيء ليس موجودًا.. ولن يكون حقيقيًا مهمًا حدث..

ـ أنا مبعملش حاجة؟ ماشي... ماشي.. بكرة لما أموت والبيت ده يخرب من غيري هاتعرفوا قيمتي كويس أوي! ولا لما أموت ليه.. أنا مش هعمل حاجة تاني لأي حد فيكم..

تسمرت عيني على الساعة المعلقة أمامي على الحائط.. التي توقفت عقاربها، نفدت بطاريتها... توقفت المحاولة في إبقاء الحياة على ما يرام، توقفت عن عد مرات الأمل في اليوم، توقفت عن الدوران في فلك نقطة ارتكاز بيتها.. فقد نفدت طاقتها، نفدت المحاولات.. نفد الصبر ونفدت معه كل محاولة لجعلنا ندرك حقيقة..

إن شيئا ما تغير..

ليس بالساعة..

بل بينهما.. فكيف لأشياء صغيرة الحجم كبطارية ساعة قد أدت إلى اشتعال فتيل الاختناق بينهما.. كبرياء وعِند قد تملكا منهما فاستكبرا على أن يقوما بالإصلاح.. حتى انفرط عقد المحاولات..

الزمن توقف عند هذه اللحظة.. عيني ما زالت ثابتة على الساعة أرجوها أن تعمل مجددًا وأنا متأكدة أنه لا يوجد بها أي شحنة من الكهرباء..

أنتظرها لتدور مجددًا وأنا متأكدة أنها ماتت..

كأمي، ظلت منتظرة المقابل من علاقة لا يوجد بها أي شحنة من الحياة..

توقفت.. عن بذل الجهد..

كتوقف عقارب الساعة..

* * *

«حلوة الساعة دي أوي، بس لو كنتي جبتيها سودة كانت هتبقى أحلى»

قالها أحمد وهو يقف على سلم قد وضعه لنا أستاذ عيسى من قبل، ليركب لمبة إنارة في الصالة.. تركت باقي المسامير على سلمة تفصل بين الصالة وغرفة النوم لألتفت إليه قائلة:

ـ يابني هو كل حاجة عندك لازم يكون فيها بس، مفيش حاجة حلوة وخلاص كدة؟ بعدين دي مش جديدة، دي قديمة..

ذهبت لمفتاح الكهرباء لكي أنير الصالة «إبعد بقى كدة لا تتكهرب أما نشوف هاتنور ولا لأ..» وما إن ضغطت على الزر حتى أضاء كل ركن في المنزل معلنًا بداية يومي الأول فيه..

«متيجي نتصور صورة أنا وإنتي»

قالها أحمد وهو يشير لي ويرفع هاتفه عاليا لكي يلتقط سيلفي لنا جميعًا.. خرجت دنيا وفريدة من الغرفة ليقفا أمامنا بينما أخذ حازم هاتف أحمد ليلتقط هو الصورة قائلًا:

ـ دي أول صورة ليكم في البيت.

قالها حازم وهو يبتسم بينما نتفقد جميعًا الصورة، فأجابه أحمد:

ـ أنا هانزلها على الإنستجرام... حلوة، نزليها إنتي كمان يا نالا واكتبيلي كلمتين حلوين من بتوعك.

أجبته بصوت حانق:

ـ مليش نفس أنزل صور ولا اعمل حاجة.

ضحك أحمد ضحكة صغيرة يجيد أداءها عندما يريد طلب شيء مني متخفيًا وراء جملة تظهر بصورة عادية وأنا أرفض، فقال:

ـ ليه؟ بقالك كتير منزلتيش صورة ليا عندك..

أخذ الهاتف من يدي «هاتي هنزلهالك أنا» فأسرعت بخطف هاتفي من يديه لأقول محذرة:

ـ أحمد.. قلتلك كتير الحركة دي بتعصبني، متشدش الموبايل من إيديا كدة.. غير إني مش عايزة أنزل حاجة اليومين دول.. إحترم رغبتي شوية مش لازم أي فكرة تجيلك تتعمل!

تبدلت ملامح وجهه فقال عابسًا:

ـ ماشي، براحتك يا نالا..

أشعلت سيجارة في محاولة مني لأهدأ ثم قلت:

ـ قفشت إنت خلاص كدة صح؟

أجابني بصوت يميل إلى العصبية:

ـ مانا مش فاهم مالك، ما طول عمري بقولك على الحاجة بتعمليها على طول عشان عارفة إني عايز مصلحتك دايمًا.. مش فاهم إيه اللي اتغير وبقى بيتقالي لأ؟

زفرت نفسًا ثم قلت:

ـ ولا حاجة يا أحمد.. أنا بس قررت إن طالما مش مرتاحة في حاجة مش هعملها.. سهلة وبسيطة.

فأجابني متعجبًا:

ـ وده من إمتى؟ وبتاخدي قرارات مع نفسك كدة كمان؟ هو أنا مش هبقى جوزك ولا إيه؟ ولا انا عشان عديتلك لما حجزتي كورس قبل كدة من غير معرف فخلاص بقي هتاخدي قراراتك مع نفسك؟

ألقيت السيجارة تحت قدمي ودهستها في حركة مني تشير إلى كتمان الغيظ، فصرخت في وجهه:

ـ هو في إيه حصل لكل ده.. إحنا فإيه ولا فإيه..

بتكبر موضوع تافه زي ده ليه؟ ما تقدَّر شوية اللي أنا فيه...

أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقًا ثم قلت بصوت أهدأ:

ـ أحمد.. ده «wrong timing» بعدين نبقي نتكلم

تبدلت ملامحه ليصبح وجهه أكثر حمرة وأسرع بالرد منفعلًا:

ـ هو أنا كل ما اكلمك في حاجة مزعلاني منك لازم يكون الوقت مش مناسب.. هايبقى مناسب إمتى بجد!

قاطعنا صوت حازم قائلًا:

ـ خلاص يا جماعة استهدوا بالله حصل خير خلاص..

نظرت لحازم فغمز لي لأصمت ليذهب بدوره إلى أحمد يأخذه ويتحدث معه على انفراد في الخارج، بينما أقبلت على فريدة قائلة:

ـ فكك ومتزعليش.. شوية وهاتتصلحوا.

نظرت إلى السقف وعلى وجهي نظرة ثابتة وظللت صامتة حتى مالت على أذني لتقول هامسة:

ـ طبعًا إنتي عارفة إن كل دا عشان كان عايزك تعمليله منشن عندك في صورة والأكاونت بتاعه يعلي في المتابعين، صح؟

سؤالها هبط على مسامعي ككوب ماء مثلج يسقط مباغتًا وجهي في ليلة حارة.. التفت لها سريعًا:

ـ لأ طبعًا.. إنتي هبلة؟ هو بس متضايق عشان كذا حد افتكر إننا سيبنا بعض عشان بقالنا كتير فعلًا مش بنزله حاجة عندي.

رمقتني فريدة بنظرة حادة «جايز..» ثم ذهبت إلى الغرفة مجددًا «براحتك»..

لتتركني وحيدة..

وسط الصالة..

تائهة بين مخاوفي..

وبينه..

الفصل الثالث

Ride. just ride

فيديو صغير كتبت عليه تلك الجملة.. كنت قد صورته للتو، وأنا أقود سريعًا بسيارتي، لطالما أحببت الانطلاق بها دون وجهة.. أقود فقط.. ويحاوطني صوت أغانيّ المفضلة.. أفتح النافذة لآخرها لكي يلفح الهواء البارد وجهي.. أحببت تلك الحرية.. الجري في طرقات سريعة وكأنني أعدو في سباق ملحمي.. لا أدري أأنا هاربة أم أتعجل بالوصول؟.. أغني وراء مطربتي المفضلة أصالة بصوت عالٍ يكاد ينشق الزجاج الأمامي بسببه.. غير مكترثة بنظرات التعجب التي ألمحها على وجوه الآخرين لي.. فكل ما أريده هو القليل من الطاقة.. وتلك هي مصدر طاقتي.. القيادة سريعًا على طريق سريع..

أتنفس..

أغني..

أبكي..

أكض..

توقفت عند بنزينة على الطريق لجلب علبة سجائر جديدة وما إن وقفت أمام الأرفف حتى عقدت العزيمة على تغيير نوعي المفضل، لا بد أن أقتصد وفي الوقت نفسه لن أقدر على التخلي عن تلك العادة القذرة.. ربما أنا الشخص الوحيد الذي يمارسها ليس إدمانًا بل عن حب..

بكام دي لو سمحت؟

قلتها وأنا اشير بأصبعي على نوع مختلف من السجائر أقل سعرًا يقال إنه لا بأس به.. فالتفت لي البائع ليقول:

ـ دي بـ ٣٥ جنيه.

صمت قليلًا وفي بالي عملية حسابية معقدة.. تلك أقل سعرًا من التي اعتدت عليها، سأضطر أن أغير عادة أحبها وأنا ذلك الشخص الذي ما إن أحب شيئًا أصبح عادته المفضلة اليومية ولن يكف عنها يومًا..

ولكن لِمَ لا.. سأحاول أن أحبها على كل حال.. فلا يوجد مفر.. فأنا بالكاد أستطيع توفير مبلغ الإيجار الشهري.. فأجبته وأنا أومئ برأسي بالموافقة:

ـ طيب هاخدها ومعاها ريدبول لو سمحت.

أعطيت البائع النقود وانطلقت لسيارتي ممسكة بكانز مشروبي المفضل.. تلك هي عادتي الثانية التي حتمًا يجب أن أغيرها ليصبح مرة في الأسبوع.. فأنا لا أكترث بشيء في يومي سوي تلك العادتين.. وهما يتبدلان الآن..

رنَّ هاتفي وأنا أجلس في السيارة لأجد أحمد يتصل بي فأجبته:

ـ أيوة يا أحمد.. آه رايحة آهو أجيب الهدية.. فيه محل حلو كدة في الكوربة زهرة قالتلي عليه هروحه.. يعني إيه حاجة معينة؟ أحمد.. هوصل عندك ونبقى نتكلم.. سلام.

اغلقت الهاتف وكل ما يجول في بالي.. ماذا سأقول له؟ هو أكثرهم علمًا بحالي وما زال يطلب ما يفوق طاقتي.. ما زال يطلب ما لا قدرة لي على تحمله.. فعقلي يعبث بي يوميًا ما بين التزاماتي وبين زواجنا وفي اختياري له من الأساس.. وفريدة وتلك المسؤولية.. وأعباء الحياة.. وباقي الحاجيات الخاصة بنا ما زالت في منزلنا القديم.. وكيف سأذهب لجلبها..

وكيف سأواجه أبي.. وتساؤلي أين أمي الآن وكيف لها النوم وهي لا تعلم شيئًا عننا.. وهل سيكون معي ما يكفيني من مال لإيجار الشهر القادم..

عقلي مشتت..

عقلي يعبث بي..

توقفت عند بوابة منزل أحمد فاتصلت به لكي أخبره بوصولي ونذهب سويًا لاختيار هدية لوالدته.. فاليوم عيد مولدها.. «طيب أنا نازل» قالها وأغلق الهاتف وفي غضون دقائق كان جالسًا بجواري.. فقلت له:

ـ لسة العربية بايظة؟

بدا على صوتي اهتمام.. حتى جاءت الإجابة ببرود:

ـ لسة فاكرة تسألي؟ آه يا نالا لسة بايظة..

أومأت رأسي في صمت وعلى وجهي نظرة ثابتة.. ابتسمت محاولة أن أخفي حقيقة ما أشعر به ونظرت أمامي.. أدرت محرك السيارة وانطلقت.. ليقول لي في ترقب:

ـ هتجيبي إيه بقى؟

قالها بصوت منخفض منتظرًا الإجابة، لقد بدا عليه أنه قد عرف كلامي مسبقًا ومستعد للهجوم.

ـ زي مقولتلك يا أحمد، هروح المحل اللي زهرة قالتلي عليه ده..

زهرة هي خالتي، امرأة قد شهدت مراحل عمري جميعها.. فمنذ ولادتي كانت طالبة جامعية ولعبت هي دور الأخت الكبرى لي.. لأنضج سريعًا وأشعر أن السماء قد عوضتني بحنان الأم

في عناقها.. كانت امرأة في أوائل الأربعين من عمرها.. أم لطفلين.. تعمل موظفة في أحد البنوك. وقد وضعت الاهتمام بنا نصب أعينها منذ أن علمت بخبر رحيلنا عن المنزل.. لنعتبرها نحن درع الأمان الذي نحتمي به في أوقات الهزيمة والانكسار..

زفر أحمد في ضيق ثم قال:

ـ بس أنا قلتلك هي عايزة إيه.. الشنطة بلونها بماركتها.

التفت له وقلت بصوت أعلى قليلًا:

ـ وأنا مش هقدر على سعرها.. أنا يادوبك اللي معايا يكمل لآخر الشهر..

تغيرت نبرة صوتي لتصبح حنونة أكثر فأكملت حديثي قائلة:

ـ حبيبي.. إنت عارف أنا بحب مامتك قد إيه وازاي أنا شايفاها أمي.. ومن ساعة ما بقينا مع بعض وانا عمري ما اتأخرت عليها. وانتوا كلكم عارفين ظروفي فانا واثقة إن طنط هتقدر ومش هتزعل مني المرة دي.. بالعكس هاتفرح.

صمت قليلًا ليستجمع كلامه، ثم قال:

ـ وانا قلتلك على اللي هيفرحها بجد وإنتي مش عايزة تعمليه.. ليه مش فاهمة إنها كدة هتحبك أكتر؟

تغيرت ملامح وجهي وقلت بحدة:

ـ هتحبني أكتر ولا انت اللي هتبقى راضي عني لما اعمل اللي انت مصمم عليه؟ يابني أنا مش ياما قلتلك إطلع ما بيني وبين طنط عشان بحس إن إنت هتعمل مشكلة؟ ملكش دعوة بهدايا الستات يا أحمد..

فأجابني بصوت عالٍ:

ـ يا نالا أنا قلتلك هي عايزة إيه.. وإنتي اللي رايحة تجيبيه دا مش هينفع!

خلاص هي كانت عايزة فازة.. إيه رأيك؟

فلتت مني ضحكة وقلت:

ـ بجد؟ وانت فاكر إن دي أقل في السعر؟

فقال بلا مبالاة:

ـ مش لازم حاجة شيك أوي.. بعدين أنا مش عارف إنتي بتودي فلوسك فين؟ مش كنتي لسة عاملة شغل من قريب؟ شوفتوا في الميل بتاعك وانا في الشغل النهاردة.. راحوا فين؟ يا ستي هاتي فازة عادية مِن....

قاطعته قائلة بانفعال:

ـ إنت فاتح ميل شغلي من عندك ليه؟ إنت بتراقبني يابني؟ بعدين إنت عارف أنا ورايا كام حاجة لسة هدفعها؟

ولأ يا أحمد.. أنا لما أجيب هدية هجيب أحسن حاجة فيها عشان كدة رايحة المحل دا.. هشتري حاجة قيمة للبيت.

زفر في ضيق وصاح بي قائلًا:

ـ عندها كتير.. قلتلك عندها كتير قبل كدة في عيد الأم اللي فات.. هو أنا هفضل أعيد كلامي كدة كتير...

صحت بصوت أعلى:

ـ خلاص يا أحمد.. أنا أخري ٥٠٠ جنيه هدفعهم وانت كمل الباقي.. ماشي؟

نظر لي ولم ينطق بكلمة فصحت مجددًا «ماشي؟».. ليجيبني في ضيق:

ـ ماشي يا نالا..

قالها وهو ينظر من الشباك..

وقد مرت نص ساعة في شجار لم يكن في الحسبان..

ومر معه وقت بداية عيد مولدها..

* * *

جلست في كافيه أحببت الذهاب إليه كلما اشتد بي الحال لكي أنفصل قليلًا عن واقعي وأكتفي بمشاهدة المارة وتخيل قصص حياتهم، طريقة تحدثهم.. ملابسهم.. تعبيرات وجوههم.. حتى وإن كانت خيالة.. وكل ما يجول في بالي إنني أكره اليوم وبشدة.. وأكره الانتظار.. أكرهه إلى حد أنني أفضل أن تحدث كارثة كبيرة في التو واللحظة على أن أظل في انتظارها.. لطالما شعرت أن الانتظار ما هو إلا دقائق ضائعة.. دقائق من عمري لن تحسب.. دقائق تمر في عدم.. دقائق تمر كالسنين، فأنا شخص يفكر وهو يفكر.. حتى أنني أفكر وأنا نائمة لأستيقظ وأجدني أكمل ما كنت أفكر فيه.. وأحيانًا توقظني ضوضاء أفكاري ليلًا.. فكم تمنيت ولو أستطيع أن أوقف تفكيري للحظة.. كم تمنيت أن يكون لدي زر ما إن ضغطت عليه.. تسبح أفكاري في اللا عدم واللا منطقية..

ـ حد كلمك؟

قالتها فريدة وهي تسحب الكرسي لتجلس أمامي بعد أن وضعت كوبًا من القهوة أمامي.. لأقول في ترقب:

- لأ.. وإنتي؟

أومأت فريدة رأسها بلا.. فأجبتها في عدم اكتراث مفتعل:

- يبقي مش هيحصل.. دي تالت مرة يروحوا وميحصلش حاجة وهو ميروحش أصلًا يمشوا..

ارتشفت فريدة القليل من القهوة. ثم قالت:

- يمكن.. شكله مش عايز أصلا يعمل كدة.. المهم نتيجة الترم طلعت عندك ولا لسة؟

أجبتها في تململ:

- آه.. امتياز الترم ده الحمد لله ومعرفش إزاي.. مع إني مكنتش بحضر المحاضرات كلها..

قاطعنا صوت هاتفي.. انتفضت أجسادنا.. نظرنا إلى بعضنا البعض.. أمسكته في يدي «ردي ردي» وضغطت على زر الاتصال ليستقبلني صوت زهرة من الناحية الأخرى.. باكيًا..

- يا نالا.. اتطلقوا خلاص.. أبوكي وامك اتطلقوا..

تسمرت عيني على كوب القهوة ووددت ولو أنني أسكبه على الهاتف ليخرب ثم نهرب أنا وفريدة بعيدًا..

متأكدة؟؟ يعني خلاص؟؟

قلتها بصوت مهزوز ولا أعلم لماذا.. فقد كنت دومًا ذلك الشخص المؤيد لهذا القرار.. لطالما رأيت أن الانفصال هو الحل.. هو الوسيلة الوحيدة للعيش في هدوء.. ولم أكن أعلم أنني لن أهنأ يومًا واحدًا بعيشة هادئة.. فكل ما فعلته هو أنني أغلقت بابًا من الوجع لأفتح بابًا آخر من الوجع أيضًا.. ولكن من نوع آخر..

أجابتني زهرة باكية:

ـ أيوة خلاص.. أمك لسة مكلماني..

صمتت قليلا ثم أجهشت بالبكاء بصوت أعلى:

ـ أنا معرفش أنا بعيط ليه..

أبوكي دا يا نالا عشرة عمر.. دا دخل على العيلة وأنا لسة بمريلة المدرسة.. ومتربية على إيديه..

بعد السنين دي كلها خلاص اتطلقوا..

في تلك اللحظة شيء بي قد تحول.. كنت أرى أن ذلك هو الصواب وما إن حدث.. ندمت..!

فنحن دومًا نسعى وراء شيء لكي يحدث.. نموت كل يوم من أجل تحقيقه.. لا نكترث ما سوف نقوم بخسارته.. نتمرد ونثور لكي نصل إليه.. وما إن يتحقق.. يتملكنا شعور الندم..!

قلت لزهرة بصوت متحشرج:

ـ طيب إهدي بس.. شوية وهكلمك..

أغلقت الهاتف وظلت عيني ثابتة على فريدة.. لن أضعف ولن أخاف حتى وإن وددت أن أقع في الأرض باكية.. فأنا لا املك في الدنيا سواها الآن.. وليس لديها غيري.. ولا أدري لماذا تسلل ذلك الشعور بداخلي.. ولكني تنبأت بالمستقبل..

شعرت بيد تربت على كتفي فالتفت لأرى شابة لا أعرفها تقول لي:

ـ إزيك.. أنا عرفاكي ومتبعاكي.. ممكن أتصور معاكي؟؟

تبدلت ملامح وجهي وابتسمت ابتسامتي المزيفة فقلت:

ـ آه طبعًا..

أخذت فريدة هاتفها والتقطت الصورة.. ثم أعطته مجددًا للشابة التي وقفت تتأمل شكلها فيها.. فقلت لها بلباقة:

ـ لو مش حلوة ممكن نعيدها.

دومًا أحاول أن أهتم بتفاصيل من يهتم بالتقاط صورة معي.. أحاول أن أبادله شعوري بالثناء مغلفًا بسؤالي عن إذا كان راضيًا أم لا.

ـ لأ دي حلوة أوي.. مبسوطة إني اتصورت معاكي انهاردة..

أنا عارفة إن انهاردة عيد ميلادك..

كل سنة وإنتي طيبة يا نالا..

* * *

فتحت باب المنزل ودخلت لأرى فريدة جالسة أمام التلفاز.. وأبي في غرفته كعادته دومًا.. بعيدًا عنّا كمن لا يريد الاعتراف بحقيقة وجودنا في حياته.. لا أدري لماذا شعرت أنه يخفي شيئًا ويهاب مواجهتنا به ولذلك يغلق عليه باب غرفته حتى يتسلل ليلًا ويذهب لأصدقائه على القهوة.. أقبلت علي فريدة..

«عملتي إيه انهاردة في الجامعة»..

قالتها فريدة وأنا أرمي بجسدي على الكرسي بجوارها.. فقلت لها بصوت متعب:

ـ ولا حاجة.. فرهدت في الجامعة أوي انهاردة.. والطريق كان زحمة وانا راجعة.. المهم.. عملتي إنتي ايه في الواجب اللي كان عليكي ومتعملش ده؟ الميس قالتلك إيه؟

زفرت في ضيق ثم أجابتني:

ـ ولا حاجة.. قالتلي كلمتين كدة في آخر الحصة وبعدها كان بريك فمشيت..

جلست أشاهد التلفاز بجوارها ممكسة بهاتفي لأتفقد ما فاتني من أخبار طوال طريقي من الجامعة إلى البيت.. «أبوكي جوة؟».. فقالت لي بملل:

ـ آه.. هيروح فين يعني.. رجع من الشغل دخل الأوضة من غير ولا كلمة وهتلاقيه شوية ونازل كالعادة..

أومأت برأسي ثم أسندت رجلي علي الطاولة لأرتاح قليلًا.. ثم قلت لفريدة بحماس:

ـ جهرتي هتلبسي إيه انهاردة؟ الليلة ليلتك..

التفتت لي فريدة وقالت بتوسل:

ـ لأ.. كنت مستنياكي تيجي ونشوف سوا..

ابستمت وقلت:

ـ ماشي.. هطلب أي حاجة آكلها ونشوف..

رجعت مجددًا لهاتفي.. حتى جائتني رسالة من رقم مجهول.. يرسل لي صورًا.. لم أرها لبطء سرعة الإنترنت في البداية.. فاعتدلت في جلستي حتى رأتني فريدة وحركة جسدي المفاجأة لفتت نظرها، فقلت متعجبة:

ـ في إيه مالك؟

أجبتها في قلق:

ـ مش عارفة.. فيه رقم بعتلي صور على الواتس آب بس النت خرا، لسة موصلوش..

ظللت ممسكة هاتفي.. منتظرة وصول الصور.. وما إن وصلوا حتى جاءت صدمتي خلفهم.. فانتفضت في مكاني.. وأسرعت فريدة لتجلس بجواري قائلة بصوت قلق.. «في إيه؟» ناظرة للهاتف.. لتصمت..

وقفت فجأة ثم قلت بصوت صارم:

ـ هو فين؟ هو جوة؟ عديني..

أبعدت فريدة عني واتجهت مسرعة نحو باب غرفته.. غير مصدقة ما رأته عيني.. أبي في حلة العرس.. جالس على كنبة بيضاء اللون مزينة بورود حمراء.. بجواره شابة بفستانها الأبيض.. من هيئتها يبدو أن عمرها يقترب من عمري.. يتضح على ملامحها انها لا تشبهنا..

في حفل زفافه..

اندفعت داخل غرفته وأنا ألوح بهاتفي عاليًا وأصرخ:

ـ إيه ده؟

صوت صريخي قد أفزعه حتى أنه لم يدرك حقيقة أنني أريه شيئًا على هاتفي، فقال محذرًا:

ـ إنتي إزاي تدخلي كدة وتزعقي بالشكل ده إنتي اتجننتي؟

قالها بصوت عالٍ لأصرخ مجددًا قائلة:

ـ إيه الصور دي؟؟ إنت اتجوزت؟

تبدلت ملامح وجهه.. تسمرت عيناه على الشاشة وأخذ يتفقد الصور ثم قال بصوت ضعيف:

ـ إنتي جبتي الصور دي منين؟

لأصرخ بدوري:

ـ هو ده المهم دلوقتي صح؟ واضح إن المدام جابت رقمي من على موبايلك عشان تبعت دول مخصوص..

وقف أمامي صامتًا.. أخيرًا سره قد كشف.. ذلك السر الذي حاول جاهدًا إخفاءه تحت مسمى «مسافر مأمورية تبع الشغل» اتضح أخيرًا أنها لم تكن رحلة عمل.. بل عطلة شهر العسل.. فصرخت في وجهه قائلة:

ـ مقولتش ليه؟ مقولتش ليه إنك اتجوزت؟ كنت مستني إمتي؟

احمرت وجنتاه ليصيح بي قائلًا:

ـ إنتي ازاي بتكلميني كدة.. إنتي اتجننتي؟

شعرت بيد فريدة تجذبني للوراء ولكن بكائي واشتعال صدري منعني فأكملت صراخي:

ـ مش لما اتطلقتوا قولتلكم إنت من حقكوا تتجوزوا بس المهم حد يشرفني لما أتجوز إني أقول دي مرات أبويا ودا جوز أمي...

رفعت هاتفي أمام عينيه ثم قلت:

ـ إيه المنظر ده؟ فرح في حارة؟ جايبها منين؟ ومن غير ما نعرف!

أجابني ببرود كان دومًا يتقنه مع أمي:

ـ آه عادي اتجوزت.. أنتوا مالكوا.. هي في بيت وانتوا في بيت.. ملكوش دعوة ببعض..

قاطعتني فريدة في تلك اللحظة لتقول بصوت عالٍ:

ـ ومقولتش ليه من الأول.. ليه تسيبنا نعرف بالمنظر ده؟

ذهب مجددًا لكرسيه ليجلس أمام حاسوبه الآلي غير مهتم بنا وقال غير ناظر لنا:

ـ واديكم عرفتوا.. اطلعوا برا بقي عشان عايز أشوف فيلم..

وقفت أنا وفريدة أمامه في حالة صدمة.. ما كل هذا البرود.. فكلامه كمن قرر أن يشتري حذاءً أبيض بدلًا من اسود، وليس كمن قرر قرارًا مصيريًا مثل هذا.. بل وأن تكون تلك هي طريقة معرفتنا بالأمر..

وقفنا أمامه صامتين.. دموعنا بللت وجوهنا.. فجذبتني فريدة لنخرج من غرفته.. لندخل غرفتنا.. أغلقت الباب خلفنا وذهبنا لنجلس على الفراش.. غير مدركين ماذا سيحدث لاحقًا..

رن هاتفي مجددًا..

رسالة جديدة..

منها..

زوجة أبي..

«دي هدية عيد ميلاد فريدة.. كل سنة وهي طيبة»...

* * *

التفت عائلة أحمد حول طاولة السفرة التي يتوسطها تورتة عيد مولد والدته مهللين

«سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا جميل..»

أطفأت والدته الشموع فأقبلت بدوري لأعانقها.. فعلى الرغم من أنها أم زوجي المستقبلي وأننا نتوارث في مجتمعنا أن العلاقة بيني وبينها لا بد وأن تكون متوترة إلا أنني أحبها.. أحب عناقها.. أحب حنيتها علي أحمد واهتمامها به.. أحب صوت ضحكاتها بل ومزاحها معي.. أحبها وأتوسم أن تكون أمًا لي..

- كل سنة وحضرتك طيبة يا طنط.

قلتها وأنا أقبلها وفي يدي هديتها، لتقول في خجل:

- شكرا يا نالا.. ليه تعبتي نفسك بس كدة يا حبيبتي..

ضحكت وأنا أميل عليها وقلت:

- ولا تعب ولا حاجة يا طنط.. المهم تعجبك بس.

قاطعنا صوت أحمد الواقف بجوارها قائلًا بحماس:

- طب افتحيها يا ماما، عايزين نشوف إيه هي.

أحببت تلك التفصيلة فيه، لطالما شعرت بأننا فريق واحد متحد ضد العالم.. لدينا أسرارنا الصغيرة ونتلاعب بكل من حولنا ثم نضحك خلسة ما إن أنظر له..

همت والدته بفتح ورق الهدية لتجد تلك الحقيبة التي رغبت في اقتنائها لترتسم على وجهها علامات الفرحة والامتنان.

- شفتي حلوة إزاي؟

قالتها والدته وهي ترفع الحقيبة للأعلى مشيرة بها إلى خالته التي بدورها أعجبتها.. وابتسموا جميعًا، شعرت بأن مهمتي قد تمت وأنها على قدر كبير من الرضا.. فأنا تلك الفتاة التي اختارها ابنها لترفع رأسهم وسط العائلة جميعًا..

ـ بقولك إيه.. ما تيجي كدة جوة خمسة.. جايبلك حاجة حلوة..

قالها أحمد وهو يشد ذراعي برفق لأنتبه له وسط زحام وصوت عائلته العالي، فالتفت له، وما إن أكمل جملته.. حتى ظهرت على ملامحي علامات الدهشة الممزوجة بالفضول لأجيبه:

ـ إيه ده بجد.. جايبلي إيه؟

لم ينطق أحمد بكلمة، أمسك يدي لنذهب سويًا لغرفة نومه.. وما إن دخلت حتى توقف أمامي قائلًا:

ـ غمضي عينيكي..

أغمضت عينيّ وظللت منتظرة.. سمعت أصوات خطواته ومع كل خطوة فضولي يزيد..

شعرت به يقترب مني مجددًا.. فقال بصوت منخفض:

ـ فتحي خلاص.

ما إن فتحت عينيّ حتى وقع نظري على يديه، حاملة لكيس بلاستيكي كبير يحوي العديد من أنواع الشوكولاتة المفضلة لدي.. فقلت ضاحكة:

ـ إيه دا.. ياالهوي هاتخن كدة..

أخذت الشوكولاتة منه ولم أشعر بشيء إلا وأنا اقفز بين ذراعيه «أنا بحبك أوي يا أحمد» قلتها ورأسي مدفونة في رقبته.. شعرت بحرارة جسده التي طمأنتني.. «وانا كمان بحبك يا نالا» قالها وهو يشد ذراعيه لتلتف حولي

رجعت للوراء لأنظر له قائلة بتعجب:

ـ بس جيبتهم منين؟! دول مستوردين.

رفع خصلة من شعري قد تسللت لتغطي عيني قائلًا بابتسامة:

ـ بابا بعتهم من دبي مع صاحبه ليكي إمبارح.

طبعت على خديه قبلة ورجعت خطوة للوراء لأمد يدي والتقط شوكولاتة لألتهمها وأنا أقول:

ـ بس الخطوبة طلعت حلوة آهي.

ذهب إلى المرآة أمام فراشه ليعدل من تسريحة شعره «آه.. جدًا» رأيت في انعكاسه أن ملامح وجهه قد تغيرت لتصبح جادة، فتنهد ثم قال:

ـ كنت عايز أقولك حاجة كدة.. هو إنتي ليه مش لابسة حاجة كويسة شوية.. يعني إنتي عارفة إنها عزومة كبيرة وكدة وقدام أهلي كلهم.

شعرت بوجهي ترتفع حرارته من الخجل فقلت:

ـ آه.. ما انت عارف إن لبسي مش معانا يا أحمد ومفيش حاجة ألبسها.

أومأ برأسه في إشارة منه بعدم تصديقي ثم قال:

ـ وهتروحي تجيبي حاجتك إمتي؟ مستنية إيه؟

جلست على فراشه ناظرة له بعبوس قائلة:

- معرفش لسة.. مستنية الوقت المناسب.. لسة خايفة بصراحة..

فأجابني بضيق:

- أنا شايف إنك تنجزي بصراحة عشان مش نافع كدة.. حسك بتتلككي.

فلتت مني ضحكة سخرية مفاجأة ثم قلت:

- بتلكك؟ ماشي شكرًا...

التفت لي ثم قال في استحياء مفتعل:

- مش قصدي يعني، طيب حاجة كمان.. ليه حطيتي لون الروج ده وإنتي عارفة إني مش بحبه؟

انقبضت ملامح وجهي ثم قلت بتعجب:

- عشان بحبه يا أحمد..

اقترب مني ثم قال:

- بس إنتي عارفة إني مش بحبه ولو بتحبيني فعلًا مش هتحطيه..

بدأ صبري ينفد، فذلك الشجار قد سئمت منه.. قلت في ملل:

- إني أحط حاجة أنا بحبها ومقتنعة بيها ده ملوش علاقة بحبي ليك.. إنت ليه بتحط نفسك في مقارنة!

جلس بجواري على الفراش والتفت لي قائلًا:

ـ عشان مش بتسمعي الكلام بقالك فترة.. كل حاجة بيتقال عليها لأ مش فاهم ليه.

زفرت نفسًا طويلًا وعقدت ذراعي قائلة بصوت حانق:

ـ عشان إنت بطلت تتقبل تفاصيلي اللي انت حبيتني زمان بسببها ودلوقتي بقيت مزعلاك، كل حاجة بعملها مش موافق عليها، والكلام بينا بقى أوامر وبس وأنا المفروض أوافق من غير ما اتكلم وانت عارف إني مش كدة..

أمسكت يديه في محاولة مني لتهدئته قبل أن يثور ثم أكملت حديثي:

ـ أحمد.. سيبني براحتي شوية، كفاية خنقة وتحكم في كل حاجة كدة حتى لو كانت تفصيلة هبلة..

زفر وقال بصوت أعلى:

ـ وأنا مش سايبك براحتك كل ده.. مش كفاية موافق على وجود حازم في حياتك..
وموافق إنك مش بتعملي اللي أنا عايزه وبتعكنني عليا في نص مانا بعملك حاجة حلوة آهو.

هدأ قليلا وبدأ صوته ينخفض ثم أكمل حديثه:

ـ يا نالا افهمي.. أنا راسم ليكي صورة في خيالي مش عايزك تنزلي عنها.. أنا هاحبك كدة أكتر..

ترددت في الإجابة.. أصارحه أم لا.. حسنًا سأقول وليحدث
ما يحدث..

ـ حازم؟ ما هو عشان صاحبك موافق عليه لكن بص عليا دلوقتي وشوف مين معايا..؟ محدش، عارف ليه؟ عشان كل واحد كان بيضايقك في حاجة قررت إني أبعد عنه عشان

متزعلش.. حتى في شغلي مبقتش بكلم الناس، بقيت إنت اللي بتعملي كل حاجة..

بعدين صورة إيه اللي انت راسمها.. ما كلنا بنتغير يا أحمد.. وانت نفسك اتغيرت

قال بعصبية:

ـ أيوة أنا أتغير.. لكن إنتي لأ..

اقتضب وجهي وقلت بتحد:

ـ يعني أنا لو اتغيرت في حاجة ومش هيبقى تغيير، هيبقى إني رجعت زي زمان، هارجع نالا اللي انت حبيتها زمان.. مش مسموحلي؟

هدأت نبرة صوته لتميل إلى المسكنة:

ـ إنتي لأ يا نالا.. أنا مش عايزك تتغيري عن السنة اللي فاتت.. مش هاقبل بده.. أنا ما صدقت إنك بقيتي زي اللي في خيالي بالظبط..

قلت بصوت عالٍ:

ـ وانا مش موافقة يا أحمد.. أنا لو رجعت أعمل حاجة بحبها ف ده عشان أنا في الأساس ومش هغير ده حتى لو كان اتغير الفترة اللي فاتت..

صمت للحظة ثم انفجرت باكية:

ـ أنا اتخنقت.. إنت مش حاسس بحاجة.. أنا في إيه ولا في إيه عشان تتخانق معايا في حاجات هبلة زي دي..

قاطعنا صوت والدته قائلة بصوت قلق:

ـ إيه يا ولاد في إيه؟ صوتكم عالي.. في إيه يا أحمد مزعلها ليه؟

التفت أحمد لأمه وحاول أن يكتم غيظه، فأجابها ببرود مصطنع:

ـ مفيش حاجة يا ماما.. إحنا جايين وراكي آهو..

أومأت أمه برأسها وانصرفت.. فالتفت لي مجددًا.. ثم قال بصوت صارم:

ـ خليكي فاكرة أنا استحملت إيه عشانك.. إنتي فهماني كويس..

قالها ثم انصرف وراء أمه لأظل أنا جالسة على الفراش..

وحدي..

الفصل الرابع

«ضمي التارة ناحيتك.. أيوة إرجعي كمان يا آنسة.. كمان.. بس كدة.. حضني بقى».

أغلقت فريدة نافذتها ورفعت حقيبتها على كتفها، استعدت للنزول وهي تمد لي خمسة جنيهات «خدي اديهمله».. وتضعهم في يدي..

توقفت لثانية من الدقيقة أفكر، هل أعطيه تلك الجنيهات علي مهنة اللامهنة؟ أم أقول له «لما اخرج هحسبك».. وفي نيتي أن أستقل سيارتي خلسة وكأنني أسرقها لأختفي من أمام أنظاره؟.. تنهدت وقررت أن أعطيه المال، فاليوم مشحون بما فيه الكفاية ولا ينقصني صداع ذلك الرجل على كل حال.. ولربما أحواله قد تتيسر ببضعة الجنيهات تلك..

فأنا لا أختلف عنه الآن..

توقفت أمام زجاج النافذة الخلفية لألمح اسمي قد كتب عليها بخط كبير لم ألاحظه في الصباح، قلت لفريدة وأنا أشير إلى النافذة:

ـ هو إيه ده.. أنا لسة واخدة بالي منه، مين اللي كتبه وعرف مكانا منين؟

لتقبل علي فريدة وتتمعن في الاسم الذي كتب بأصبع عريض وسط غبار النافذة ثم قالت بترقب:

ـ ده حد مراقبنا ولا إيه؟

أجبتها بصوت مهزوز:

ـ مش عارفة، أصل هيعمل كدة ليه.. بعدين فيه اسم تاني مكتوب مش باين..

صمت قليلا ثم حاولت أن أهدئ من روعنا قليلًا فأكملت حديثي قائلة بنبرة منخفضة كاذبة:

ـ يمكن حد من ولاد الحارس سمع اسمي وكان بيلعب الصبح قبل ما ننزل.

رمقتني فريدة بنظرة أنها لا تصدقني، حاولت أن أخفي توتري.. فمكان منزلي لا يعلمه أحد سوانا وحازم وأحمد ودنيا فقط.. وقد اتفقنا أن يظل الوضع هكذا خوفًا من ملاحقة الشجارات لذلك المكان الذي شعرنا به بالأمان للمرة الأولي طوال حياتنا..

توجهت أنا وفريدة لباب المول، مبنى ضخم من ثلاثة طوابق يوجد به كل ما يخطر على بال الأم المصرية الأصيلة من المستلزمات المنزلية للأثاث وصولًا إلى خزين البيت ولكن بأسعار مخفضة عن باقي المحلات.. أو هكذا يقال..

التفت لي فريدة قبل أن تدخل للداخل وقالت:

ـ بقولك إيه، انا بتخنق من المكان ده ومن زحمته وإنتي عارفة.. فهندخل نشوف اللي احنا عايزينه ونمشي على طول.

أومأت برأسي بالموافقة وأنا شاردة.. فهي لا تعلم أنني لا أفكر فيما نحتاجه من ذلك المكان.. بل ما نقدر على شرائه من ذلك المكان..

ـ إنتي ليه كاتبة نشوف أسعار الكنب؟

قاطعني صوت فريدة وأنا أدور بالعربة فارغة بين الطرقات، لأجيبها بضيق:

ـ عشان وإنتي نايمة جوة وأنا سهرانة كالعادة هقعد فين.. هفرش على الأرض مثلًا.

رمقتني فريدة نظرة تعجب وذهبت بعيدًا أدركت منها أنه ليس الآن.. وأنني أجبتها بصوت حاد.. لم أقصد.. كل ما في الأمر أني شعرت بالاختناق ما إن رأيت كم الأشياء التي نحتاجها

ومقدرتي المادية لا تسمح بشراء بنصفهم..

رن هاتفي.. لأرى أحمد هو المتصل فأجبته:

ـ أيوة يا أحمد.. آه لسة واصلة المول آهو ادعيلنا بقى... معلش نزلت بسرعة وكنت فاتحة الـGPS وانا على الدائري ملحقتش أكلمك..

طيب يا أحمد خلاص ملحقتش اتصل.. نزلت ووصلت واتطمنت عليا آهو إني وصلت وكويسة.. طب داهوقت خناق بجد بدل ما تشوف لو محتاجة حاجة؟

زفرت لأقول بصوت عالٍ «خلاص مش وقته.. روح يلا عشان أخلص.. باي باي».

وقفت وحدي ونظراتي ثابتة على الأرفف، تهدلت كتفاي، شاردة في ذلك الشجار الصغير المتكرر.. فمن رأى نبذة عن حياتي لن ينسى مكالمة اطمئنان.. بل سينسى اسمه..

ذهبت وراء فريدة لأعتذر.. لن اقول لها «آسفة» فأنا لا أنطقها إلا إذا كان الموقف عظيمًا بل سأظل أتحدث معها بطريقة ودية وأهتم بحديثها، أسأل أسئلة كثيرة وأشد معها أطراف الحديث.. فقلت لها وأنا أصطنع الحماس:

ـ بقولك إيه، ماتيجي نطلع الدور اللي فوق نشوف التكييفات بكام؟

لتجيبيني بصوت ملول:

ـ معانا فلوس تكفي أصلًا؟

أخرجت ورقة وقلم من حقيبتي وقلت لها:

ـ على الأقل نعرف الأسعار ونعمل حسابنا عشان أحوش فلوس ليه من دلوقتي..

أشارت بالموافقة وفي خلال دقيقتين كنا أمام الرجل نتحدث معه عن الأسعار.. لأصدم بحقيقة أنني احتاج إلى خمسة أشهر على أقل تقدير لكي أوفر سعره حتى وإن كان أقلهم ثمنًا..

طب فيه تقس...

قالتها فريدة بتردد للرجل، فأسرعت بالتدخل لمقطاعتها وأنا ألكز ذراعها.. ابتسمت للرجل وشكرته ثم ذهبنا لنحاسب على المشتريات.. فقالت لي بامتعاض:

ـ ممكن أفهم في إيه؟

نظرت لها نظرة الأخت الكبري لشقيقتها عندما تريد أن تعلمها شيئًا جديدًا، فأجبته بصوت هادئ:

ـ في إنك كنتي هتقولي تقسيط صح؟

أجابت ببرود:

ـ آه، فيها إيه يعني..

ابتسمت في يأس ثم قلت:

فيه فلوس الإيجار والفواتير.. إحنا لسة منعرفش فاتورة الكهربا هتيجي كام.. فيه لسة فلوس للنجار والسباك دا غير الأجهزة اللي لازم نشتريها والدولاب بدل ما لبسنا مرمي في كل حتة.. غير البنزين والأكل.. فيه بلاوي لسة..

لتقول في محاولة منها لإقناعي:

ماشي ما هو عشان كدة قسط.. وخليه عليا سنة كاملة وكل شهر ندفع جزء صغير يعني ونساعد بعض فيه سوا..

شردت للحظة.. لقد نضجت تلك الطفلة التي كبرت على يدي وكأنها طفلتي، وصلت من النضوج إلى حد تنظيم الأمور المالية لبيت كامل يبدأ من الصفر.. لا أدري أهذا نضج.. أم اضطرت لذلك بدافع الحفاظ على من تبقى لها...

أنا..

ـ خلينا نروح نظبط كدة كل شهر نجيب إيه.. وإنتي شوفي برضه لو جايلك أي شغل الفترة الجاية بكام عشان نعرف نظبطها صح..

قالتها فريدة بحماس وهي تلملم الأشياء من عربة التسوق وتضعها أمام الرجل لنحاسب عليهم..

شعرت بنبضات قلبي ترن في أذني من القلق راجية العداد أن يتوقف عند ألفين، فهذا كل ما أملكه ونحن نحتاج كل ما ابتعناه..

حتى توقف عند الرقم بالتمام إلا بضع جنيهات..

حسنًا.. سأبتاع بما تبقى كولا لنروي عطشنا طوال الطريق إلى البيت..

خرجت فريدة بعربة التسوق محملة بالأكياس وتوقفت أنا أمام باب المول لألتقط صورة له.. أحب التقاط الصور.. أشعر وكأنني اوقف بالزمن لبضع دقائق داخل إطار الصورة مزينة بمشاعري في تلك اللحظة.. لحظة شراء مقتنيات بيتي الجديد..

* * *

ـ بعتلك صورة المكان على الواتس آب، والله وصلت ليه مش مصدقاني.. تعالي والنبي أنا محتاجاكي انهاردة.

قلت تلك الجملة وأنا أبكي على الرصيف حاملة هاتفي على أذني.. ثم أكملت حديثي:

ـ طب وعد والله أول ما نخلص هصالحك وأبوس رجلك بس والنبي تعالي.. أنا لسة مخطوبة من شهر ومحتاسة مش عارفة أعمل إيه.

بكيت حتى بللت دموعي أطراف بلوزتي.. وبللت معها قلبي الغارق في بحر التوسلات، أخرجت منديلًا من حقيبتي ليزيل ما يستطيع من الدموع.. ثم قلت بصوت متحشرج من كثرة البكاء:

ـ هي مرة واحدة بس في العمر اللي هنزل أشتري فيها جهازي.. أنا مش هتجوز كل يوم.. عشان خاطري تعالي.

شهقت حتى احترق صدري ألمًا، لا أدري لماذا يحدث كل هذا.. أجلس على الرصيف بمفردي أتحدث في الهاتف والرؤية أمامي منعدمة.. يتم إذلالي في أمر من المفترض ان يحدث تلقائيا دون هذا الكم من الالم.. ولكني أذل..

تنهدت ثم قلت بصوت يائس:

ـ يا ماما والنبي تعالي.. البنات كلهم داخلين المحل قدامي بامهاتهم وانا لوحدي مش عارفة أشتري إيه.. تعالي معايا..

قلت تلك الجملة لأسمع من بعدها صوت رنين هاتفي معلنًا أنها قد أغلقت الخط.. وأغلقت معها كل آمالي بأن أشعر أن لي أمًا تساندني في مشوار خطوبتي حتى يوم زفافي.. دخلت المول ورأسي في الأرض كي لا يرى أحد حمرة وجهي من فرط البكاء فكيف لعروس يزين

خاتم الخطبة إصبعها تشتري أجهزة بيتها وهي تبكي كمن غصبت على الزواج.. وقفت تائهة أمام الكثير من الماركات والأسعار ولا أعلم أيهم الاختيار المناسب..

ـ معلش اتأخرت عليكي.. أمال فين طنط؟

نظرت خلفي لأجد أحمد واقفًا وعلى وجهه علامة التعجب، فابتسمت رغمًا عني، فلست وحدي الآن، لقد وصل من هو معني الأمان لي ليشد بيدي ويطمئن قلبي..

كذبت مبتسمة:

ـ تعبت شوية انهاردة فمش هتعرف تيجي.. دا حتى نامت فهتصل بزهرة تساعدنا بقي..

أخرجت هاتفي واتصلت بها حتى جاء صوتها من السماعة:

ـ إيه يا نوونا.. عقبال ما افتكرتي تسألي عليا؟

ابتعدت عن أحمد كي لا يسمع حقيقة ما أشعر به.. هممت بالكلام فأبى صوتي أن يخرج حتى تحاملت على نفسي ونطقت بصوت محشرج «أنا محتاجاكي».. دموعي سقطت مجددًا فبكيت على حالي وأنا أقول لها:

ـ ماما مش راضية تيجي وانا مش عارفة أعمل إيه، مصممة اعتذرلها على حاجة إنتي عارفة كويس إني مش غلطانة فيها.. وحاطة دي قصاد دي.

صمت للحظة.. ثم قلت:

ـ ممكن بس عشان خاطري تخليكي معايا علي التليفون آخد رأيك؟.. أنا لوحدي».

انتهيت من تلك الجملة وأنا خائفة من رفض آخر، وأدعو بيني وبين نفسي أن توافق، فأنا لا أريد سوي الصحبة والرأي في الاختيار بحكم أنني لا أفقه شيئًا عن تلك الأمور.. حتى

أجابتني بالقبول بل بدا صوتها وكأنه يعانقني في وحدتي ليقول لي أن هناك شخصًا يهتم بي.. يشعر باحتياجي.. يساعد في أزمتي.. بل ويحبني..

تنفست الصعداء وبدأت في الاطمئنان، هدأت من روعي وظلت معي على الهاتف حتى أضحكتني.. فرجعت مجددًا إلى أحمد الواقف أمام صفوف من الثلاجات يتفحصهم بتركيز.. فقلت له:

ـ زهرة معايا على الموبايل هاتبقى معانا بدل ما احنا جواميس كدة، ماشي يا حبيبي؟

تبدلت ملامح وجهه ليبتسم لي في حب، أمسك يدي وقال:

ـ ماشي يا روح قلبي.. سلميلي عليها كتير.. ها.. هنشوف إيه الأول؟ الغسالة ولا التلاجة؟

وما أن هممت بالرد حتى قاطعني صوت هاتفي، اتصال آخر:

ـ طب زهرة استني معايا مكالمة تانية على الويتينج.

ظننت أنها أمي ولربما زوجها قد تحدث معها وأقنعها بالعدول عن رأيها، لأرى رقم أبي واسمع صوته قائلًا:

ـ نالا.. متروحوش دلوقتي البيت.. خدي أختك وباتوا انهاردة عند أي حد من صحابكم.

وأغلق الخط..

* * *

طوت فريدة ورقة قد كتبنا بها مخططًا ما سوف نشتريه على مدار الأشهر القادمة ووضعتها بجانبها لتقول لي:

ـ كدة يبقي فاضل تكتبي إنتي الدنيا عندك إيه في الفلوس عشان نشوف هانبتدي إمتي في الطلبات دي..

أسندت رأسي على الحائط وأنا ممدة على المرتبة في منتصف غرفتنا.. لأستريح قليلا.. ثم قلت بصوت منخفض:

ـ ماشي، بس لما نشوف الإيجار الشهر الجاي هايبقى كفاية ولا لأ.

التفتت فريدة وعلى وجهها علامات التعجب:

ـ إنتي مش لسة عاملة كامباين؟

زفرت نفسًا طويلا ثم أجبتها:

ـ اه.. بس الشركات كلها جددوا العقود والفلوس باخدها بعدها بشهر، يعني لو اللي معايا خلص.. معرفش هنقضي باقي الشهر إزاي..

قاطعنا صوت هاتفي.. لأرى أحمد يتصل بي.. نظرت للهاتف لبضع ثوانٍ ثم أجبته:

ـ أيوة يا أحمد.. آه لسة راجعين آهو.. ولا حاجة.. جيبنا شوية حاجات كدة والفلوس خلصت واللي معايا يادوبك الإيجار ومعرفش بجد هعمل إيه.... آه.. أنا آسفة معلش يا أحمد، هبقى أكلمه.. طيب.. طب.. طب اسمعني.. طيب خلاص هنزلك..

أغلقت الهاتف وألقيته بجانبي في ضيق..

ـ إتخانقتوا؟

قالتها فريدة وهي تهم بالذهاب للحمام، لأجيبها بصوت محتقن:

آه... قفش عليا عشان باباه رجع من السفر وأنا مكلمتوش.

رمقتني فريدة بنظرة أعرف معناها جيدًا لتقول بصوت منخفض:

ـ بس إنتي عارفة إن عنده حق..

نظرت إلى الأعلى وخبأت وجهي بكلتا يدي، تنهدت ثم قلت:

ـ عارفة.. أنا بس دماغي دوشة.. عامة هو داخل علينا فهنزله.. ساندرا جايالك إمتي؟ أنا جيبت بيبسي علي فكرة وشوية لب كدة إمبارح لزوم قعدتكم.

خرجت فريدة من الحمام لتبدل ملابسها قائلة:

ـ زمانها على وصول خلاص، لما جاتلنا إمبارح اتبسطت أوي بالمكان وقالتلي إنها عايزة تيجي تقعد يجي أسبوع هنا وراحت قالت لكل صحابنا علي جروب الواتس آب كدة وقالوا قريب عايزين يتجمعوا عندنا..

نظرت لها ثم ابتسمت ابتسامة هادئة:

ـ طب يا ريت.. اتفقي معاهم وقوليلي..

أومأت برأسها وفي عينيها لمعة وبراءة الاطفال، كم أعشق تلك الفتاة.. فمن يرانا يقول إنني أقوى منها..

لا يعلمون أنها مصدر قوتي..

ما إن غيرت ملابسها حتى بدأت في تجهيز البيت لاستقبال صديقتها مجددًا، فأخرجت ما ابتعناه، شمعة ذات رائحة التوت البري لتضيف جوًا أسريًا دافئًا وسجادة صغيرة في الصالة.. وقامت بتركيب طاولة صغيرة ليضعوا عليها كاسات المياه.

وقفت أمام ساعة الحائط لأغير البطاريات على الرغم من أنها تعمل جيدًا، إلا أنني أخاف أن تتوقف يومًا ما ليتوقف معها كل شيء.. بينما جلست فريدة صامتة تراقبني دون فهم.. ثم انطلقت أنا لأقابل أحمد الذي كان ينتظرني في سيارته عند مدخل المنزل.. جلست في سيارته ثم قلت:

ـ اتأخرت عليك؟ معلش كنت بظبط الدنيا مع فريدة.

رمقني بجانب عينه فانقبض قلبي لما شعرت به، لا أريد الشجار يا أحمد.. فأجابني:

ـ كويس.. عامة أنا جيت اخدك عشان نروح محل عفش قريب من هنا نشوف عفش بيتنا.

تبدلت ملامح وجهي، ما كل هذه الالتزامات، فقد وقعت جملته على مسامعي كالصاعقة.. فقلت بصوت مهزوز:

ـ دلوقتي؟

أومأ برأسه بالموافقة، فقلت بصوت متردد:

ـ ماشي... أنا بس مش هكون مبسوطة..

أوقف سيارته فجأة ثم نظر لي:

ـ يعني إيه مش مبسوطة.. مش مبسوطة إننا هنتجوز أخيرًا وهتيجي تعيشي معايا بدل مإنتي لوحدك؟ مقولتلك نسمع كلام ماما واكتب عليكي ونسافر أحلى شهر عسل في الدنيا ونقعد معاها لما نرجع لحد ما نعرف نفرش.. أو سيبيني أنا أفرش الشقة كلها.. إنتي اللي مصممة تدفعي.

نظرت من الشباك، أشعلت سيجارة ثم قلت بتصميم:

ـ أيوة أنا قلتلك هفرش معاك عشان أنا هكمل الاتفاقات اللي كانت من الأول.. وأنا مش عايزة أحس إني مختلفة عن أي بنت..

قال بصوت حاد:

ـ طيب أمال في إيه بقي؟؟ خلينا نخلص ياللا وقلتلك اللي تقدري عليه هانجيبه مش لازم كله من الأول..

زفرت نفسًا وبدأت الدموع تتسلل ثم قلت بصوت محتقن:

ـ عارف بس المشكلة في إيه؟ إن أنا هبقى عاملة زي الأعمى اللي واقف قدام لوحة ومطلوب منه يعبر قد إيه هي حلوة..

التفت ونظرت مباشرة له.. ثم أكملت حديثي والدموع في عيني قائلة:

ـ أنا هروح اتفرج على عفش شقة أنا مش معايا ربع فلوسه..

شعرت بيديه تقترب من يدي، ثم قال:

ـ طب مانا موجود..

شدت على يديه لأقول بابتسامة مزيفة:

ـ أنا عارفة.. خلاص ياللا نروح المحل يا أحمد.

تبدلت ملامح وجهه كمن تذكر شيئًا:

ـ آه.. نكمل موضوعنا بقى.. بابا زعلان جدًا.. وماما كانت فاكرة إنك هتيجي البيت من إمبارح.

أجبته بصوت ضعيف:

ـ أنا عارفة إني غلطانة.. بس أنا دماغي فيها مليون ألف حاجة..

فقال بتهكم:

ـ ولو اللي هيبقوا أهلك مش في دماغك، دا مش صح... مكالمة واحدة يا نالا مش هتاخد من وقتك كتير.

نظرت أمامي مباشرة وملامح وجهي ثابتة فقلت:

ـ عارفة..

التفت له مجددًا، أخذت نفسًا عميقًا لأقول:

ـ أنا بس مش قادرة، أنا عارفة إن الأصول بتقول كدة ولازم وأهلك ودي الخطوبة لسة.. بس أنا مش قادرة يا أحمد.. مش قادرة أتكلم مع حد ولا اعمل أي حاجة اليومين دول.. أنا لو كان ينفع كنت قفلت على نفسي ومطلعتش برا البيت نهائي.. بس مينفعش.. لازم عشان مش معايا فلوس خلاص!

أدار سيارته ليكمل طريقه ثم قال:

ـ إنتي مكبرة الموضوع ليه.. دي مكالمة واحدة سهلة وبسيطة.. وكانت هتفرق على فكرة أوي..

تنهدت ثم قلت:

ـ مفيش طاقة.. دماغي مش فيا.. بفكر كتير.. بفكر وأنا نايمة.. وأنا بشتغل.. أول ما بضحك.. فبتنكد..دا أنا حتى واحنا بنتكلم دلوقتي.. قعدة بحسب فاضل معايا كام في البنك وكام

في المحفظة وفاضل إيه للبيت..

صمت للحظة ثم أكملت بصوت منخفض يغلب عليه اليأس:

ـ بس حاضر يا أحمد.. اول ما نوصل هتصل علي طول.

أجابني بصوت لامبالٍ:

ـ لا خلاص بقي.. هي في وقتها يا خلاص.. متتعبيش نفسك ملهاش لازمة!

نظرت ليدي لأرها متمسكة بيديه بقوة تكاد أظافري أن تنغرس في جلده بينما أصابعه تتهاوى بين أصابعي..

غريب أمرنا، كيف للغة الجسد في تفاصيل صغيرة كتلك.. أن تكشف خبايا حقيقة مشاعرنا..

ظللت أنظر ليدي.. ففرت دمعة من عيني لتهبط على وجتني.. ثم قلت:

ـ عارف المشكلة فينا يا أحمد بقيت إيه..

رفعت رأسي لأنظر له مباشرة.. ثم قلت بصوت متحشرج:

ـ إننا قاعدين جنب بعض.. بس مش واصلين للي جوا بعض..

* * *

الفصل الخامس

حلمي قد تحقق.. مكان صغير يضمني أنا وفريدة بعيدًا عن كل شيء.. لكن دومًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فلقد مرت سبع ليالٍ في بيتي الجديد كأنهم سنين طويلة.. يأتي الليل وتأتي معه أفكاري المتناثرة.. تخيلات عن مستقبلنا.. رسمت الكثير من الأحلام وما إن تكتمل في خيالي حتي يخسف بها إعصار خوفي لسابع أرض، خوفي من مستقبل لا أعلم له ملامح غير أنني أجلب قوت يومي لي ولفريدة ونعيش أيامنا وكأنها آخر يوم.. نغتم جميع الفرص.. لا يغمض لنا جفن إلا وقد فعلنا شيئًا مميزًا طوال يومنا..

فحياتنا الآن ما هي إلا رحلة نعيشها..

رحلة فتاتين قد تاهوا وذاقوا من مرارة الدنيا ما يكفيهم حتى استقر بهم الوضع منعزلين وراء أربعة جدران وأرض خاوية.. يحاوطون أنفسهم بتساؤلات كثيرة، ماذا سنفعل إن خرب شيء في المنزل؟ ماذا سنفعل إذا دخل علينا لص؟ بل وكيف سنهدأ عندما تنقطع كهرباء الشقة جميعها؟ وماذا سنفعل إن لم تكفِ الأموال لسداد الإيجار القادم؟ أو حتى تكفي لغداء صغير يجعل بطوننا راضية عنا؟...

فعجبًا لبشر قد أخذوا أمورا كثيرة في تفاصيل يومهم في إطار الأشياء المضمونة وجودها.. وإن ذهبت.. ذهب إحساس الأمان معها وجاء الأرق صاحبًا جديدًا لك ومعه القلق ليؤنسوا وحدة لياليك وأنت مسجون في قضبان أفكارك الليلية اليومية.. تعاتب نفسك على قرش ذهب هدرًا، تحلم بفرصة عمل جديدة أو حتى استقرار مادي ولو طفيف، تستيقظ وبداخلك أمل أن كل ما حدث كان مجرد كابوس ليس أكثر..

استيقظت لأجد فريدة ممسكة بهاتفي، نظرت لها دون النطق بكلمة حتي التفتت لي «كنت عايزة hotspot بس» أغمضت عيني مجددًا.. فدومًا أفكاري تستيقظ أولًا لتعلن بداية يوم

جديد ومن بعدها جسدي.. «هي الساعة كام؟» قلتها على أمل أن تكون الثانية عشرة ظهرًا.. لأتفاجأ بالرد «الساعة ٦ الصبح»..

رد فريدة أفزعني فنهضت سريعًا لأجد منامتي قد ابتلت من العرق طوال الليل وقلت بفزع:

ـ أمال إيه اللي صحاكي؟ ثانية... هو أنا صحيت ليه! وبعدين إيه الحر دانا بموت..

نظرت لي فريدة نظرة من يعرف الإجابة مسبقًا وقالت:

ـ مش شايفة الشمس قاعدة معانا إزاي.

نالا، إحنا محتاجين على الأقل ستاير.. تخف شوية من نور الشمس اللي بيصحينا من النجمة ده وتشيل شوية الصهد عننا..

صمتت للحظة.. ثم أكملت حديثها في ضيق:

ـ أنا صحيت استحميت.. من كتر العرق اللي عرقته بليل..

دفنت وجهي في الوسادة ووددت لو أني استيقظت في مكان آخر، مكان على البحر.. تلفح نسمات الهواء الباردة وجهي وفي يدي كوب من العصير الفريش.. وحرارة الشمس الدافئة تجعل مني قطعة ذهبية تتلألأ.. والرمل يتغلل بين أصابعي في حرية منه تدغدغ روحي.. فقلت بصوت يائس:

ـ خلاص ننزل انهاردة نجيب ستاير.. ربنا يسهل.. ممكن نروح التوحيد والنور.. زهرة كانت بتقول عليه فيه حاجات زي اللي برة ورخيصة شوية..

نهضت فريدة لتدخل حمام غرفتنا وتركتني أحدق في سقف الغرفة.. شاردة كالعادة في محفظتي التي يقل وزنها من قلة ما تحتويه.. وفي تلك الحقائب المحملة بملابسنا.. فرفعت

صوتي لأقول لفريدة :

ـ بقولك إيه، محتاجين نفضي الشنطتين دول عشان عندي تصوير بكرة ومعنديش حاجة ألبسها.

مددت فريدة رأسها من خاف باب الحمام وفرشاة الأسنان في فمها لتقول:

ـ نفضي إيه ياختي.. هو احنا معانا حاجة؟ ما كله راح خلاص.. ومش هنعرف نجيبه تاني عشان مش راضية تسمعي الكلام..

أجبتها باستنكار:

ـ ما كله هيروح فعلًا لو مروحتش التصوير ده، احنا محتاجين الفلوس.. أنا ما صدقت إن جالي أي شغل يسند معانا في اي حاجة..

أخرجت الفرشاة من فمها لتقول بصوت جاد:

ـ هي الفلوس اللي معانا خلصت؟ يا نالا متشوفيلك أي شغل تاني طيب.. أي حاجة ثابتة كدة تجيب قرشين كل أول شهر وكملي برضه في اللي إنتي بتعمليه بس كهواية..

نظرت للناحية الأخرى فلن أقو على مواجهة تلك الفكرة وأنا انظر لها مباشرة ثم قلت:

ـ فريدة.. إحنا اتكلمنا قبل كدة في الموضوع ده.. أنا مش بتاعت شغل مكاتب ولا خبرتي تنفع في أي حاجة من الحاجات دي..

نهضت لأسند نصف ظهري على الحائط وقلت لها بصون حانق:

ـ الموضوع بس إن بقالي كتير مختفية عن كل حاجة وإنتي شوفتي إن مكنش نافع أعمل أي حاجة.. الـreach عندي وقع والناس نسيتني باين.. محدش هيحب يشتغل مع حد

الناس نسياه.. الحل إني أرجع تاني، وهحتاج مساعدتك..

رفعت كتفيها للأعلى معلنة ان لا حل لديها غير الاستجابة لرغبتي فقالت:

ـ ماشي.. شوفي عايزة إيه ويالا

شعرت بالحزن يبدل ملامح وجهي ثم قلت:

ـ أنا بس خايفة ميجيش حاجة تانية، خايفة تكون شوية وراحت عليا.. لو مجاش شغل إحنا هانعمل إيه ساعتها ولا هندفع البلاوي اللي ورانا دي منين؟..

صمت للحظة ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ بصي، أنا عارفة إنك لسة في الجامعة وطلعان عينك.. بس إنتي كمان لازم تبتدي تلاقي شغل.. أي حاجة ولو بسيطة كدة جنب الجامعة..

صمتت فريدة وتسمرت في مكانها ثم قالت متعجبة:

ـ شغل؟ ونا هشتغل إزاي جنب الجامعة؟ مفيش وقت.. مش هلحق أصلا.. الجامعة كمان شهر خلاص.

مددت يدي لأمسك كوب المياه ليبتل ريقي، فمن عادتي ألا أتكلم حين أستيقظ إلا بعد وجود أي نوع من السوائل في فمي، ارتشفت منه ثم قلت:

ـ لسة شهر؟ طب ما ده وقت حلو إنك تشوفي أي حاجة.. شوفي أي إيفينت قريب وانزلي مع المنظمين أو حتي sales في أي محل مش عيب، مانا بدور على شغلانة تانية عشان مش هينفع اعتمد على حاجة واحدة وحازم بيشوفلي برضه.. ولما تدخلي الجامعة هتقسمي وقتك.. الصبح في الجامعة وبليل أي شغل.. حتى لو حاجة بسيطة بس تسند شوية.

أجابتني بصوت منخفض:

ـ ماشي بس أنا معنديش خبرة في أي شغلانة ومفيش وقت حتى إنه يبقى عندي.. لانا مشهورة زيك فبيجيلي شغل منه ولا كنت شغالة في شركة فاكمل فيها..

ارتشفت قليلًا من الكوب مجددًا ثم قلت بجدية:

ـ ماشي، بس احنا دلوقتي حالنا اتغير ولو كنا زمان بنشتغل عشان الرفاهية والخبرة فدلوقتي لازم عشان نعرف نعيش.

رمقتني نظرة بجانب عينها ثم أكملت حديثها وهي ترجع خطوة للوراء لتقف أمام الحوض:

ـ وانا مش هاينفع معايا.. أنا أصلًا دورت ومش لاقية حاجة.

قلت بصوت صارم:

ـ فريدة.. أنا بحاول أجيب شغل بإيديا وسناني وإنتي لازم تساعديني شوية.. من الآخر.. أنا عليا المسؤوليات الكبيرة زي الإيجار والأكل والشرب والحاجات الأساسية دي.. بس الحاجات الثانوية أنا مش هقدر عليها كلها..

صمت للحظة لأخذ نفس عميق ثم قلت:

ـ مش معايا لكل ده.. أنا شهر بيجيلي شغل وعشرة لأ..

رجعت مجددًا لتقف أمامي ناظرة لعيني مباشرة ثم قالت بعصبية:

ـ أيوة يعني أنا أشتغل إيه برضه؟ حليهالي..

قاطعتها قائلة:

ـ معرفش.. نقعد ونفكر فيها، بس المهم إن المبدأ يكون موجود عندك أصلًا.. مش أي حاجة تيجي تتلككي وتفكسي..

قلتها وأنا أعلم جيدًا أنني أشعلت فتيل الشجار بيننا لترد بصوت عالٍ قائلة:

ـ مانا بحاول أوفر على قد ما أقدر في المصاريف، حتى في حاجة البيت.. بدل ما بننزل أي سوبر ماركت بقعد أحسب مين فيهم أرخص عشان نشتري منه.. وأي حاجة غالية في الأكل بدلتها بالأرخص منها.. حتى الخروجات مع صحابي بقيت بقول أي حجة وخلاص وبخليهم يجولي البيت أحسن..

صمت للحظة وبدأ صوتها يتحشرج.. أعلم أن الوضع يفوق احتمالها، فهي لا تبكي إلا نادرًا.. ثم قالت:

ـ ده أنتيمتي خطوبتها كانت إمبارح ومعرفتش أروح عشان مفيش حاجة ألبسها ومش هعرف أشتري.

نهضت من الفراش لأقف أمامها، ثم قلت بصوت منخفض:

ـ ما هي دي الحياة.. ولما تتجوزي هتعملي كدة بس الفرق هايبقى في رقبتك عيلين كمان.. هتقولي لجوزك إصرف ياللا في كل حاجة؟ أمال إنتي كنتي فاكرة إننا هنتدلع في البيت ونجيب حد يصرف علينا من برة؟ ما هو لازم نشتغل.

صرخت في وجهي قائلة:

ـ لأ دي مش الحياة.. دي مش حياه طبيعية! أنا واحدة لسة في الجامعة المفروض أكز في دراستي وبس.. الالتزامات دي بحاول أعمل اللي بقدر عليه..

رجعت خطوة للوراء، أخذت نفسًا عميقًا ثم صرخت بدوري:

ـ لأ إنتي مش بتعملي كدة.. وتفكيرك ده لازم يتغير..

صمتت للحظة.. تغيرت ملامح وجهها لتصبح أكثر بؤسًا ثم ردت بصوت منخفض مهزوز:

لأ مش تفكيري اللي هيتغير.. أنا لو اعرف إن الوضع هايبقى كدة.. كان فيه حاجات كتير أوي هتتغير..

سرت قشعريرة في جسدي، شعرت بأن تلك الجملة المراد منها شيء سيكسرني.. سيطيح بي بعرض الحائط.. سيزلزل إحساسي بالأمان معها وأنها وحدها من تبقت لي..

ـ قصدك إيه؟

قلتها بصوت مرتعش لتجيبني:

ـ يعني أنا لو اعرف إننا هنبقى كدة.. مكنتش سيبت البيت أصلًا..

ثم رجعت إلى الداخل مجددًا.. ولا تعلم أن دموعي قد رجعت مجددًا..

ولكن تلك المرة حسرة على حالنا.. مخاوفي قد ازدادت.. شيء ما قد انكسر بيننا.. كل منا يحمل بداخله غضبًا وسخطًا تجاه كل شيء ولا يوجد منفذ لإخراجه سوى الآخر، نلقي اللوم والتهم في نظرات تارة.. وتارة في انفعالات مبالغ فيها فقط لنفرغ شحنة قليلة مما بداخلنا لنهدأ بعد مرور ساعة ونتحدث وكأن شيئًا لم يكن، فكلانا يعلم أننا حاوية مهملات بعضنا.. ولكنها ليست للقمامة بل للمخاوف التي تطاردنا.. ولكن لا أعلم لماذا شعرت بأن شيئًا بداخلنا قد كسر..

رجعت مجددًا لأمدد جسدي على المرتبة.. غيرت وضعية نومي لأنام على بطني متفادية آلام ظهري المستمرة.. غصت لأشم تلك الرائحة..

رائحة ملاءة السرير.. التي أعطتنا إياها زهرة لتقليل عبء المشتريات قليلًا.. ملاءة سرير تفوح منها تلك الرائحة..

مسحوق الغسيل الشهير..

الذي لطالما استخدمته..

أمي..

* * *

«هاااتي الموبايل ده.. إنتي حمارة مش عارفة تعملي حاجة»

قالتها أمي وهي تصرخ، فتوترت ولم أركز في أي كلمة قد قيلت لي في الهاتف.. أغلقت الهاتف لأعيد الكرة من جديد.. وانهالت جدتي عليها بالصراخ لتجعلها تصمت وتنتظر.. قائلة:

ـ إنتي مش شايفة بنتك عاملة إزاي.. أصبري.

نهضت أمي من جلستها وذهبت إلى الداخل.. ربتت جدتي على كتفي وقالت بصوت حنون:

ـ معلش.. إهدي كدة وسمي اللـه.. واتصلي تاني ياللا..

ضغطت على الأرقام مجددًا.. وامسكت القلم لأدون وراءهم نتيجتي، نتيجة الصف الثاني للثانوية العامة.. قررت في تلك اللحظة أن أترك كل شيء يحدث.. أيًا كانت النتيجة فلن أغضب ولن أثور ولن أبالي.. على الرغم من شعور بداخلي أنه مستقبلي أنا ولن أسمح لأحد أن يضيعه.. إلا أنه انتابني حالة من البرود المصطنع..

سمعت أول نتيجة لأول مادة.. الدرجة النهائية.. التالية، الدرجة النهائية.. التالية، الدرجة النهائية.. التالية، نصف درجة فقط..

ومع كل رقم أسمعه اصرخ بعلو صوتي أكثر.. أهلل أكثر.. أبكي أكثر..

أنظر لهم وأنا أسمع درجتي كاملة... ٩٥ بالمئة.. لأغلق الخط..

أنا جيبت ٩٥ في المية..

وأفقد كل ثباتي لأنهار باكية والضحكة على فمي... لقد عوضني ربي عما تحملته.. لقد فعلتها..

لقد فعلت ما ظن الجميع أنه مستحيل..

لقد أثبت لهم جميعًا أنني بالقوة الكافية التي تجعلني أنجح وسط هذا الكم من الوجع..

صرخت جدتي وقفزت لتشدني بين ذراعيها.. هلل جدي فرحًا ودموع الفرحة تلمع بعينيه.. وأنا باكية بين ذراعيها غير مصدقة.. لتقول بصوت مبتهج:

ـ إستني أمك فين... تعالي ندخل نقولها..

نهضنا سريعًا.. شعرت وكأنني أطير إلى الغرفة.. لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، لا بد أن أخبرها لتفرح.. تخيلت وجهها وهي تضحك تلك الضحكة.. وهي تشدني لذراعيها.. تقبلني والدموع تهبط على رأسي فخرًا بي..

فتحنا باب الغرفة لنجدها ممدة على الأرض وجسدها كله ينتفض.. تشنجات وصراخ مكتوم لم نسمعه..

هرولت جدتي إليها تصرخ باسمها لتفيق.. وقفت أنا على الباب وملامحي قد تحولت إلى الذهول.. بينما فريدة قد انهارت عصبيًا وأخذت تجري في الشقة خائفة من منظر أمها.. باكية قائلة «ماما هتموت.. ماما هتموت»..

أسرع جدي بكوب من المياه ليسكبه على وجهها ربما تفيق.. بينما جلست جدتي تكبر في أذنها.. وتمسك يدها لتحاول أن تكف من تشنجاتها..

ركضت خلف فريدة لأعانقها بشدة.. قائلة بصوت مهزوز:

ـ متخافيش.. هاتبقى كويسة والله.. متخافيش.

قلتها وأنا أرتعش ممسكة بوجهها بين يدي، ناظرة لها مباشرة.. هدأت من روعها قليلًا.. ورجعت مجددًا إلى الغرفة لأجد أمي قد هدأت قليًلا.. فبدأ جدي بحملها لتنام على الفراش.. وما إن استلقت على الفراش حتى فتحت عينيها.. وأخذت تتفقد الغرفة كمن يراها لأول مرة..

همست جدتي لجدي.. قائلة بصوت منخفض:

ـ كله من الدوا الزفت اللي الدكتور كتبهولها..

لا أعلم لِمَ الهمس، فأنا أعلم كل شيء.. أعلم تفاصيل شجارها مع أبي.. وأعلم ماذا فعل بها طوال السنوات الماضية الذي آل بها لتناول المهدئات.. تبا لرجلٍ قد أرهق المرأة إلى حد المهدئات..!

تسللت إلى فراش أمي وخلفي جدتي محاولة أن تتحدث معها لترجع إلى وعيها.. قائلة:

ـ فوقتي يا حبيبتي؟ متقلقيش إنتي كويسة آهو..

ابتسمت أمي وهي مغمضة العينين.. وجهها مرهق.. لتكمل جدتي حديثها قائلة:

ـ طب ده حتى نانو عندها حاجة حلوة عايزة تقولها ليكي..

التفت لأمي مرة أخرى.. لأقول والدموع في عيني:

ـ أنا جبت ٩٦ في المية يا ماما..

انشرح وجه أمي وتغيرت ملامحها لتبدو أكثر راحة.. «بجد».. قالتها بصوت منخفض كصوت عصفور لم يعد باستطاعته الطير مجددًا.. لأجيبها بصوت محتقن:

ـ والله بجد.. شفتي بقى...

نظرت لها مباشرة.. ضحكت وبداخلي شعور قاتل بأن لحظة نجاحي وتفوقي.. تلك اللحظة التي انتظرتها طوال الأعوام الدراسية قد تلاشت.. فلا أعلم هل ألوم عليها أم على أبي أم على توقيت اللحظة الخائب.. كل ما أعلمه أنني نجحت.. وأنني ذقت نصف طعم الفرحة بذلك..

ارتميت بين ذراعيها لتهدأ.. غصت في الفراش بجانبها..

لأشم تلك الرائحة التي جعلتني أهدأ وأنام نومًا عميقًا بجوارها..

رائحة ملاءة السرير..

* * *

«محتاجين نغسل الملاية دي عشان اتوسخت..»

قلتها وأنا أنهض من الفراش لأرتدي ملابس البارحة.. «والبلوزة دي كمان..» ألقيتها بعيدًا على أرضية الغرفة..

ـ لمي الغسيل كله في كيس عشان نعدي علي زهرة في طريقنا نطلع نغسله فوق.. هي في البيت؟

قالتها فريدة وهي ترتدي حذاءها فقالت بنصف ضحكة ساخرة:

ـ آه في البيت ياختي.. أي أوامر تانية؟

فأجبتها:

ـ لأ.. شكرًا..

وصلنا عند باب المنزل وما إن فتحته حتى رن هاتفي.. لأرى رقم حازم..

ـ ألو... لأ في البيت.. هننزل آهو.. يعني إيه؟؟ إستنى بس..

يا حازم..... ماشي.

أغلقت الهاتف لأرى فريدة تقف أمامي بانتظار تفسير تلك المكالمة.. أغلقت باب المنزل مجددًا وذهبت لأجلس على الفراش.. فجاءت خلفي لتقول بتعجب:

ـ في إيه؟ حازم عايز إيه؟

رفعت كتفي للأعلى وقلت بصوت حائر:

ـ معرفش.. قاللي أنا طالع وجايبلكم حاجة معايا مفاجأة..

لم أكمل الجملة فقد قاطعني صوت جرس الباب.. ذهبت لأرى من الطارق حتى وجدت عاملًا يحمل جهاز تكييف على كتفه وأمامه حازم.. وقفت مذهولة من الموقف.. ولم أبدِ ردة فعل إلا عندما لكزني حازم في كتفي.. قال للعامل:

ـ أيوة اتفضل.. نزله في الأوضة.. هيتركب جوة..

ذهب العامل إلى غرفتنا ومعه فريدة لتلملم أشياءنا الخاصة من على الأرض.. والتي ليست بالكثير بينما وقفت أنا أمام حازم.. لأقول:

ـ إنت بتعمل إيه؟ إنت مجنون يا حازم!

ابتسم حازم ثم قال:

ـ ينفع أشوفكم محتاسين في حاجة واسكت؟

صوتي ارتفع وأنا اقول بعصبية:

ـ أيوة بس ده تكييف وغالي أكيد.. ليه عملت كدة.. إنت بتحرجني على فكرة وأنا مبحبش كدة.. إتفضل قولي بكام.

اعتلت نظرة جادة وجه حازم وقال:

ـ وطي صوتك عشان الراجل جوة، ده أولًا.. ثانيًا.. إحراج إيه
يا هبلة.. إعتبريه هدية بيتكم الجديد..

عقدت حاجبي وذراعي على صدري وقلت له باستهزاء:

ـ يا سلام.. هدية بيتكم الجديد دي تبقي برواز.. مج.. طبق. مش تكييف!

ابتسم حازم ابتسامة ثقة ثم قال:

ـ لا أنا مقامي بيجيب تكييف مش كوباية.. بعدين الراجل خلاص بيركبه.. فاهدي بقى..

هدأت قليلا.. ونظرت للأسفل ثم قلت له بصوت منخفض:

ـ مش عارفة أقولك إيه بجد. أهه باللي انت بتعمله ده بتثبت إن فعلًا الغريب أحسن من القريب..

ضحك حازم ضحكة سخرية ثم قال:

ـ يعني بعد كل ده وغريب يا واطية..

شعرت باحمرار وجهي خجلًا.. فدومًا عندما يحدث لي موقف يعجز الجميع عن الكلام فيه.. أقول كلمات في موضعها الخاطئ.

ـ لأ مش قصدي.. إنت فاهم أكيد..

ابتسمت ثم قلت بصون حنون:

ـ شكرًا على كل حاجة يا حازم..

التفت لألمح باب المنزل ينغلق.. فأسرعت بفتحه مجددًا.. لاحظت أن حازم يشاهدني.. فتنحنحت قائلة:

ـ معلش إحنا بنات وكدة وانتوا رجالة في البيت.. حتى لو حد بيركب حاجة بس برضه.. إنت فاهم يعني..

اندهش حازم فقال:

ـ فاهم أكيد وعشان كدة طلعت معاه وفضلت واقف معاكي على الباب لحد ما يخلص.. شيبوب فين صحيح انهاردة؟

أجبته بصوت يائس:

ـ في الشغل مش فاضي..

صمت للحظة ثم أكملت حديثي:

هو أنا مش عارفة المفروض أزعل ولا أفرح.. أنا عارفة إنه مشغول بس أنا مش حساه معايا خالص.. غايب كدة، موجود آه جنبي.. بس مش جوايا.. حاجات كتير هو مش واصلها ومش

هقدر برضه ألوم عليه عشان مشفش اللي أنا شفته.. إنت فاهمني؟ الدنيا متغيرة ما بينا كدة ومش زي الأول، معرفش بقى.. بس أنا مش مرتاحة وحاسة إن دايمًا فيه حاجة ناقصة مش عارفة إيه هي.. بقول يمكن توتر الخطوبة والظروف اللي أنا فيها.. بص، مش عارفة..

قاطعتنا فريدة لتقول لحازم «شكرًا يا حازم...» ثم التفتت لي وقالت «الراجل بيسأل مفتاح التكيف فين؟».

ذهبت معها لنبحث عنه في أرجاء المنزل.. فكيف لي معرفة ذلك الشيء.. كل ما عرفته طوال حياتي أنني أضغط على أي زر باللون الأحمر في ريموت التكييف فيعمل.. فكيف لي الآن معرفة مفتاحه ودائرته الكهربائية الصحيحة وإن كان له مخرج منفصل أم لا.. يقال إنها امور للرجال فقط.. ولكني تعلمت أنا وفريدة أنه لا يوجد مهام للرجال ومهام للنساء.. فهي فقط أدوار وخبرات حياتية يتعلمها الشخص طوال حياته.. ليصبح مستقلًا بنفسه غير معتمد على شخص آخر..

«لقيته يا مدام»..

قاطعنا صوت الرجل من السطح في الخارج، ليجعلني أدرك حقيقة أن جميع العمال الذين ساعدونا بأمور السباكة والنجارة يرونني كمدام وكأنه محرم على آنسة مثلي أن يكون لها بيتها الخاص.. ومن الناحية الأخرى استمتعت بذلك اللقب، فهو يكسبني أمامهم تلك الصورة المزيفة عن وجود رجل في حياتي كدرع حماية منهم ومن محاولات تودد محتملة الحدوث.. ويكسبني تلك اللذة بأنه من المفترض أن يكون لقبي.. بالفعل..

مدام..

قاطع حازم حبل أفكاري بجملته:

- محتاجة إيه تاني؟

نظرت له ووددت أن انهال عليه بقائمة طلبات كثيرة ولكنني اكتفيت بقولي:

ـ محتاجة إنك تدعيلي.. إدعيلي بس الدنيا تظبط..

ابتسم حازم محاولًا أن يطمأنني:

ـ متقلقيش، مفيش حاجة وحشة بتيجي من حاجة حلوة.. المهم عرفتوا هاتعملوا إيه في حاجتكم؟

تنهدت في ملل:

ـ لأ.. لسة.. فريدة عايزة انهاردة قبل بكرة.. بس انا اللي مستنية الوقت المناسب، وقت تكون مراته مش موجودة فيه.. عشان هنتخانق ومش بعيد نضرب بعض ولا تموتني..

تغيرت ملامح حازم وقال:

ـ ده اللي هو إمتى؟ بصي يا نالا، إنتي عارفة إني مش موافق على القرار ده.. طالما قررتوا تستغنوا يبقى تستغنوا عن كل حاجة.. بس في الآخر ده قرارك.. شوفي إمتى عشان نجهز بس لو محتاجة نكون معاكي يومها.

زفرت نفسًا وحاولت ألا أظهر قلقي، أعلم جيدًا أنه يجب الاستغناء ولكني لا أملك ما يكفيني من المال لأشتري أيضًا ملابس.. يكفي ما نحتاجه.. فقلت:

ـ لسة جايلي مكالمة من واحد جاري إنه في البيت اليومين دول، بس أنا مش عايزة أروح ألاقيها في وشي.. وفي نفس الوقت محتاجة حاجتي اللي هناك.. فلسة بظبطها.. قريب يعني..

دا غير إن ساشا وحشتني أوي يا حازم.. أنا وفريدة هنموت عليها.. هنموت ونعرف هي فين بس.. اتقالي إنها مختفية وخايفين يكون سربها..

ساشا هي الكلبة التي لازمتنا طوال سبع سنوات منذ أن كانت ولدة صغيرة.. شهدت معنا لحظات كثيرة وتشاركت معنا وحدتنا لنكون خير ونيس لها، كانت بمثابة درع حماية لنا من أي شر.. وكنا نعتبرها الأخت الثالثة.. أو ابنتنا.. اعتدنا على العيش معًا طوال سبع سنوات.. إلى أن رحلنا عن المنزل مؤخرًا ولم نستطع جلبها معنا إلى منزل دنيا.. فتركناها مع أبي وزوجته راجين من السماء أن تحفظها لنا..

فأجابني حازم بصوت هادئ:

ـ هنبقي معاكي متخافيش..

أدرت وجهي لأرى التكييف ثم التفت لحازم مجددًا كمن تذكر شيئًا وقلت بصوت مهزوز:

ـ عملت إيه في الشغل اللي قلتلي عليه؟ في أي أخبار عنه؟ أنا مستعدة أشتغل اي حاجة فيه طالما هاخد مرتب.

لينظر لي حازم في يأس ويومئ برأسه بالنفي قائلًا:

ـ للأسف دورت ومفيش حاجة لحد دلوقتي.. وأحمد برضه قاللي إنه بيدور.. لو لاقينا حاجة هنكلمك في ساعتها.

قاطعنا صوت وكأنه ينقذني من أن أقف أواجه نفسي وأواجه حقيقة أن أفعالي خاطئة وأنه لا جدوى منها.

ـ أنا خلصت.. ممكن تيجي يا مدام تجربيه..

* * *

الفصل السادس

«ماشي يا باشا اتفقنا.. أنا أول ما اكلمك تيجي على طول.. هكلمك قبلها بربع ساعة كدة تكون عندي تحت.. بس أهم حاجة مش هينفع تتأخر».

أغلقت الهاتف وأنا أرتدي ملابسي وفريدة في الصالة ترتدي حقيبتها على كتفها وتتأهب للنزول، فاليوم هو اليوم الموعود.. لم أنم البارحة كعادتي سوى بضع ساعات متقطعة.. فكل ما يشغل بالي هو ردة فعله عندما يرانا أبي، هل سيصفعني أم يوصد باب المنزل علينا وهل سننجح أم لا.. وردة فعل زوجته، فلطالما تشاجرنا سويًا.. تكرهني بشدة لألعن أنا وجودها في حياتنا كل ليلة..

كنت قد استقبلت مكالمة البارحة بأنه متواجد في المنزل.. وأن ساشا قد عادت إلي المنزل أيضًا وصوت نباحها جاء إلى الشارع بعد غياب دام لأكثر من أسبوعين، جن جنوني فيهم أنا وفريدة..

فعقدت العزم على الذهاب لبيتنا القديم لألملم جميع أشيائي وأنتشل الكلبة منه ونذهب أحرارًا طلقاء..

أخرجت هاتفي واتصلت بأحمد الذي بدوره أدخل حازم ودنيا ومعي في نفس المكالمة:

ـ بصوا... أنا أسفة من دلوقتي لو اتعصبت على حد أو اتوترت زيادة.. أنا بس دماغي هتنفجر..

دنيا.. إنتي هاتدخلي معايا الأوضة بتاعتنا وهاتملي أكياس الزبالة هدوم على قد متقدري.. وأحمد إنت اللي هاتقف على باب العمارة عشان لو حصل حاجة تلحقني.. حازم هيكون مع

العربية اللي هتيجي تشيل الأكياس.. هتاخد الكياس اللي هاتديهالك فريدة عشان تفضل جنبها لحد ما عربية النقل تيجي.. تمام كدة كله؟».

شعرت وكأني صاحبة كتيبة جيش ألقي الأوامر على العساكر قبل بداية المعركة.. معركة؟ أليس متاح لأي شخص أن يدخل بيته بأمان؟ فالأمان بالنسبة للبشر هو بيته.. أما بالنسبة لي... فهو أي شيء آخر.. غير بيتي!

أغلقت المكالمة وأسرعت لسيارتي أنا وفريدة.. ظللنا طوال الطريق في شرود.. وصمت.. وخوف..

حاولت أن أشغل أغنية ما قد تكسر هذا الصمت الذي يلتهم قلوبنا من القلق ولكن شعرت بأنها خطوة غبية مني.. فالوضع أكثر حدة من أن تكسره أغنية ما..

وصلنا لشارع بيتنا القديم.. ذلك الشارع الذي شهد على أقسى لحظات حياتي وجعًا وألـمًا.. كلما اقتربنا أكثر إلى المنزل اقترب قلبي على الانفجار.. رأيت أحمد يقف على ناصية الشارع بجوار سيارته.. وحازم قد ترجل للتو ودنيا قادمة من بعيد عليهم.. اقتربت وفريدة منهم..

- أحمد، لما نخلص على خير إبقى سوق إنت عربيتي.. أنا مش قادرة أسوق..

بدا وجه أحمد وكأنه يعلم تمامًا ماذا سيحدث وأنه سيكون أمرًا سهلًا.. ليطمئنني قائلًا:

- ماشي ماشي.. سهلة متقلقيش..

التفتت لدنيا ثم قلت:

- جبتي كياس زبالة كتيرة؟

أجابتني وهي ترفع حقيبة للأعلى قائلة:

ـ آه أهم.. جيبت عشرة رولات.. هايكفوا؟

تسلل العبوس إلى وجه حازم ثم قال:

ـ افتكري إني قلتلك إستغني.. وإنتي صممتي برضه إنك تروحي تجيبي حاجتك.. بس عايزك تعرفي إن ده قرارك واحنا جنبك في لأي حاجة تحصل..

أشعلت سيجارة لآخذ منها نفسًا ربما يحاول تهدئة أي شيء بداخلي..

زفرت نفسًا طويلًا..

ألقيتها ثم ذهبنا باتجاه المنزل..

قفزت على الدرج ونبضات قلبي تتسارع مع كل خطوة.. أجري قبل أن أبدل رأيي وأذهب بعيدًا.. شعرت بأنني عصفور يعود إلى ذلك السجن للمرة الأخيرة لأخذ الفتات المتبقي ليقتات منه في رحلته الطويلة الشاقة..

وقفت أمام باب المنزل.. فريدة بجواري.. ودنيا تقف على أول سلمة من الدرج..

وضعت كف يدي على فتحة العين السحرية وانهلت بالكف الأخرى على الباب.. ربما عنصر المفاجأة يهبط قليلًا من حماسته..

فتح الباب لأرى أبي قائلًا:

ـ نعم.. عايزين إيه؟؟

قالها ببرود مصطنع، أحفظ ذلك البرود عن ظهر قلب.. رأيته سنوات عمري كله يمثله أمام أمي حتى دفعها لحد الجنون، دومًا يتقمص تلك الشخصية عندما يحدث موقف لم يكن في حسبانه ولم يخطط له من قبل.. لأجيبه بصوت جاد:

ـ عايزين نتكلم معاك شوية.. فيه مشكلة؟

أجبته وأنا أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي.. قلت إجابة نعلم تمامًا أنها كذب ولكنها كانت الحل الوحيد للدخول، وما إن أدخل سأفعل ما أريد.. أشار بيده:

ـ إتفضلوا خشوا..

عبرت قدمي اليمنى عتبة الباب لأصبح داخل المنزل... سرت قشعريرة في جسدي بأكمله.. ما زلت أهابه وأخاف منه.. فهو أبي، حتى وإن كنت أحتقره وبشدة..

تبًا لذلك السر اللعين القذر...!

دخلت مع فريدة لنقف في الصالة.. ودنيا خلفنا تباعًا.. تضع الحقيبة على الأرض.. أخذت عيني تدور سريعًا في أرجاء الشقة.. الكثير قد تغير، التحف الفنية التي احتفظت أمي بها من أجل زواجي مرصوصة على كل الطاولات بشكل فوضوي يدل على أنها فعلت زوجته ذات الذوق الدنيء، حتما إنها تعيش هنا.. بواقي أكل قد تركت على طاولة السفرة في إهمال والأتربة تراكمت فوق كل شيء..

ظللت أحدق في تفاصيل تلك الشقة التي نشأت بها.. فكل ركن بها يحكي قصة مختلفة عني.. وعن نشأتي.. شعرت أنني أختنق.. حتى وقع نظري على حامل كبير يحمل جزءًا من ملابسي أنا وفريدة.. وبجواره الكثير من الإكسسوار المفضل لدينا مرصوص بعناية كمتجر نسائي فخم..

هي حاجتنا هنا بتعمل إيه؟

قالتها فريدة وهي تتفقد الملابس كلها، ليجيب علينا بمنتهى البرود:

ـ هشحتهم.. هرميهم.. عايزين إيه؟

أخذت نفسًا عميقًا كي لا أبدأ معه شجارًا آخر أنا في غني عنه.. فأنا قادمة من أجل هدف واحد وليس من أجل الجدال مع شخص آخر ما يفعله في حياته هو الحوار.. وقلت بصوت جاد:

ـ طيب.. إحنا جايين ناخد حاجتنا ونمشي.. مش جايين نتخانق.

أشعل سيجارته.. لقد ورثت تلك العادة الكريهة منه والتي طالما هددتني أمي بإفصاح أمري أمامه.. فكيف لأب يتشاجر مع بنته للإقلاع عن تلك العادة وبعد الشجار يشعل سيجارة ليهدأ؟

ـ غوروا جوا خدوا اللي انتوا عايزينه ومتطلعوش من الأوضة عشان فيه ناس جايين ليا دلوقتي.

ما إن سمعت تلك الجملة حتى ارتاح قلبي قليلًا.. فذهبنا سريعًا إلى غرفتنا..

فتحت الباب لأرى الغرفة انقلبت رأسًا على عقب وكأنها قد انفجرت بها قنبلة نووية.. كل شيء ملقى على الأرض.. بضعة أشياء قد تلفت وبعضها قد تكسر.. والباقي قد التهمه التراب..

وقفت أنظر لغرفتي وفي مخيلتي كيف كانت هذه قلعتي التي زينت جدرانها ببوسترات الفرق الموسيقية المفضلة لدي.. وأرفف تحمل جوائز فريدة في بطولات السباحة..
وشهادات تقدير خلال عملي كله.. ومكتب كبير يحمل الكثير من الألعاب التي احتفظت بهم طوال سنين حياتي.. بجوارهم مكتبة كبيرة قد أضعت سنوات من عمري وأنا أضع فيها كل كتاب قرأته وكل مقال كتبته وأنا صغيرة.. وقفت أتفقد تفاصيل حياتي كلها مجمعة بغرفة واحدة.. قد تلاشت.. وتناثرت مع تناثر حاجياتنا على أرضيتها..

ـ بسرعة.. إقفلي الباب ياللا.. نالا.. خدي الكيس ياللا وفضي أول رف من الدولاب.. يلا يا دنيا إنتي كمان.

قاطع صوت فريدة أفكاري ليذكرني بأن هذا ليس الوقت المناسب للبكاء على الأطلال.. هذا هو وقت اللم والفر..

فتحت الدولاب لأجد نصف ملابسنا قد اختفت.. وقفت صامتة للحظة وشعرت بأن شيئًا ما قد حدث.. حتى اصطدمت بي حقيقة أن جميع ملابسنا قد اختفت ولم يبقَ منها سوى القديم المهلل الذي كنا ننوي التخلص منه.. فقلت صارخة:

ـ فريدة... هو اللبس فين!

لتتبدل ملامح وجه فريدة وتقول:

ـ إيه ده... معرفش..!

تمالكت أعصابي.. جلبت السلم من خلف باب غرفتنا لأتفقد جهاز عرسي الذي وضعته مسبقًا أعلى الدولاب.. وما إن صعدت حتى رأيت الرف فارغًا تمامًا.. فقلت بصوت عالٍ:

ـ جهازي راح فين...! دانا كنت سايبة هنا الحاجات الكبيرة ومخدتش غير شوية بلاستيكات وأطباق..

أخذت أهبد على الرف بكلتا يدي لعل عيني تخدعني.. ويدي تلمس أي شيء ليس مرئيًا... ثم أكملت حديثي بصوت محتقن:

ـ الأطقم فين؟؟ أنا صرفت فلوسي كلها في الجهاز ده.. وداه فين!

وقفت دنيا غير مصدقة وفريدة اقتربت علينا.. شعرت بأنها ستذهب إليه وتنهره لما بدر منه من أفعال لن يقدر أي بشر على تحملها.. ولكني سرعان ما تداركت الموقف.. فقلت بصوت منخفض وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي:

ـ فريدة.. متتخانقيش معاه.. سيبيه.. ربنا يعوضني خلاص..

هبطت إلى أرضية الغرفة ونظرت إلى الدولاب الفارغ وقلت بصوت يائس:

ـ زي ما اشتريت قبل كدة.. هشتريهم تاني.. إيه يعني..

اقتربت مني دنيا لتربت على كتفي، ابتسمت لها.. حتى قاطعنا باب الغرفة وهو يفتح ليطل من ورائه قائلًا بصوت عالٍ:

ـ لموا حاجتكم كلها.. اللي هيتساب هنا أنا هارميه.. فاهمين؟

بدا وكأننا لم نسمع شيئًا.. أكمل كل منا ما كان يفعله من تفريغ ما بقي من الملابس وحمل الحقائب.. فازداد عصبية حتى أغلق الباب بعنف وذهب..

أسرعت إلى هاتفي لأتصل بأحمد «ألو انت فين؟ طيب بص بسرعة بس.. إحنا بنلم أهو.. كلم الراجل خليه يجي ياللا بالعربية».

أغلقت الخط وفتحت الباب وخرجت لأراه واقفًا في المطبخ ممسكًا بهاتفه.. فقلت بهدوء:

ـ هو أنا جهازي فين؟ الحاجات كانت فوق الدولاب..

رفع عينيه من على هاتفه لينظر لي مباشرة نظرة لن أنساها طوال حياتي.. ثم قال بصوت منخفض استفزازي:

ـ بيعته.. رميته..

تلقيت الإجابة وفي خيالي أصرخ وأصيح بأعلى صوت.. ولكن ملامح وجهي لم تتغير... إطلاقا.. فأجبته:

ـ طيب حلو.. أنا داخلة أكمل..

رجعت مجددًا إلى غرفتي وقلبي يعتصر ألـمًا، كيف لأبٍ أن يفعل ذلك في ابنتيه.. ومن أجل من؟ زوجة في عمر ابنته البكرية قد اختارها دون عن باقي النساء.. صاحبة المستوى المتدني والأخلاقيات المعدومة لتصبح في عصمته.. من أجل بضعة جنيهات.. فهو بالنسبة لها ما إلا جهاز لضخ المال في جيبها وما إن تنتهي منه ستلقيه في أقرب صندوق قمامة وتتمتع بماله مع شاب في سنها.. قصة تقليدية اعتدنا على سماعها..

ما لم نعتد عليه هو أب قد اجتاح الجحود ثنايا قلبه.. ليتخلص من جميع ملابسهم وحاجياتهم بدم بارد.. بعد أن قام بطردهم من أجل زوجته..

أسرعت في جلب أي شيء قد يذكرني بطفولتي.. تلك الأيام التي كانت عيني ما زالت لم ترَ قبح العيش في ذلك العالم.. عالمهم..

وقفت أمام مجموعة من الأرفف تحمل لعب صغيرة تعود إلى عشرين سنة ماضية.. حتى توقفت لأرى مكانها فارغًا..

كانت دومًا تجلس على الرف.. وكنت دومًا أستيقظ لأراها أمامي فأشعر بنفحات من طفولتي كان الأمان ما زال موجودًا بها..

كانت هي آخر أمل لي في الشعور بالماضي..

كانت هي..

دميتي المفضلة..

* * *

«باباااا... عروسة نالا فين؟؟»

سمعت فريدة وهي تقف أمام أبي في المطبخ.. كان يصب القهوة في كوبه المعتاد.. فتلك العادة تدل على أن يهم بالنزول ليلحق بميعاد زوجته.. ويذهب إلى منزلهم سريعًا ويتركنا بمفردنا في بيتنا.. قبل أن تتصل به لتسمعه ما لا يسره..

ـ عروسة إيه.. معرفش

أجابها باستنكار يدل على عكس ما يدعيه.. زفرت فريدة نفسًا يدل على عدم تحملها كل هذا الهراء.. فقالت بنفاد صبر:

ـ العروسة بتاعت نالا، مفيش غيرها.. كانت على الرف جوة.. راحت فين؟

وحدها تعلم قيمة تلك الدمية لدي.. وقعت في غرام تلك الدمية ما إن وقع نظري عليها وأنا أبلغ من العمر ستة أعوام.. كانت مجسمًا لـPocahontas كارتوني المفضل لكثرة التشابه بيني وبينها.. كلانا يحمل لون الجلد الذهبي نفسه المائل للون القمحي، لدينا شعر أسود طويل يغطي الظهر كله.. وكلانا يحب الطبيعة والحرية ويقدس الصداقة...! ظللت طوال فترة طفولتي أُلقب باسمها.. ومن يراني يقول إني أشبهها.. فنشأت تلك العلاقة الوطيدة الخفية بيني وبين تلك الدمية وظللت أحافظ عليها طوال سني عمري.. حتى وإن ضرب عمري العشرينيات.. كنت أخرج الفرشاة الخاصة بشعرها.. أصففه ليصبح أجمل وأجمل.. أعطيها قبلة وأضعها على الرف مكانها..

ـ معرفش.. ما انتوا مهملين.. شوفوا بتودوا حاجتكم فين.. أنا مالي.

بدأ بإلقاء التهم علينا وكانت هذه بداية التأكد من كذب ما يدعي وبداية فوران أعصاب فريدة.. فقد قررت أن تتولى هي ذلك الشجار لأني فقدت أعصابي وفقدت الطاقة على مدار السنين.. فقررت أن تأخذ دوري في الدفاع عننا قائلة:

ـ مهملين إيه.. من ساعة ما ماما سابت البيت ده واحنا بقالنا أربع سنين محدش بيدخلوا غيرنا وغيرك..

ثم قالت بصوت أعلى:

ـ نالا جوة منهارة عياط.. العروسة راحت فين؟

ألقى الكوب في الحوض بعصبية ثم صاح:

ـ كسرتها.. خدتها كسرتها.

هبطت تلك الجملة على مسامعي كزلزال رج أنحاء جسدي.. لم أشعر بشيء سوى أنني ركضت إلى المطبخ لأقف بجوار فريدة أمامه وظللت أصرخ بعلو صوتي وأنا أبكي حالي:

ـ ليه؟ عملت كدة ليه؟ حرام عليك؟ كسرتها ليه؟!

زفر نفسًا تيقنت منه أنه قد طفح به الكيل فهاتفه استمر في الرن.. زوجته بالطبع ويجب أن يلبي النداء سريعًا.. فقال على عجالة:

ـ أخوكي اللي كسرها.. خدها لعب بيها وكسرها.

شعرت بغليان يسري في عروق يدي تمنيت لو أستطيع كسر المطبخ بأكمله وأوله كوب القهوة الذي يحمله فقلت:

ـ متقولش أخويا.. إنت تروح تتجوز عيلة بشخة معفنة وتعملها قيمة.. وتخلف منها عيل قد عيالي.. وتقولي أخويا...!

أخذت نفسًا ثم انهرت في البكاء وصوتي ينبح ويدوي في أرجاء المنزل:

ـ بتديهاله ليه؟ إنت عارف العروسة دي عندي إيه... خدتها ليه...!

تغيرت ملامح وجهه ليصبح أكثر برودًا.. فقد انتصر.. لقد بكيت وصرخت.. لقد انتصر وحقق مراده.. لقد كان دومًا ذلك الأسلوب المتبع مع أمي.. يجعلها تصرخ وتقول كلمات لا

تدري عواقبها.. لتصبح هي الجاني.. هو المجني عليه.. فأجابني غير مكترث:

ـ عادي.. شبط فيها.. إديتهاله..

هدأت من صراخي قليلًا، اقتربت منه.. توسلت ودموعي تنهمر قائلة:

ـ طب هي فين.. طب هاتها مش مشكلة وانا هلزقها.. بس هي فين؟

قلت تلك الجملة وكلي أمل أن ألمح تلك الدمية مجددًا.. فهي مصدري الوحيد لإحساس الطفولة الضائعة ما بين ألم ووجع.. هي من تعيدني إلى ماض كنت أنعم فيه بجوار جدي وجدتي.. ماضٍ يحمل روحي القديمة التي بهتت مع مرور الزمن.. ولكنه لم ينظر لي.. ابتعد وذهب باتجاه الباب معلنًا الخروج.. ثم قال وهو ينصرف:

ـ رميتها في الزبالة.

* * *

«هنقلب عليها الدنيا ونجيب واحدة تانية زيها.. معلش»

قالتها فريدة وهي تنظر لي وأنا أقف بجوارها أحدق في ذلك الرف الفارغ بعد أن هبطت دمعة على وجنتي.. فأجبتها بصوت محتقن:

ـ ربنا يسهل.. المهم ياللا.. لمينا كل حاجة؟

أجابتني دنيا وهي تحكم إغلاق آخر كيس:

ـ آه خلاص كدة.. الكراتين اللي في الشنطة معايا دول كانوا عشان جهازك.. أنا متعصبة أوي يا نالا.. إزاي يعمل كدة وإنتي إزاي ساكتة؟

رن ذلك السؤال في ذهني وأنا أعلم إجابته بالنص، لن أنفعل ولن أصرخ مهما حدث ومهما كلفني الأمر.. لن يكسب تلك الجولة مجددًا.. لن أترك له فرصة استفزازي لأثور غاضبة.. سأتمالك أعصابي وآخذ ما تبقى وأذهب بعيدًا عنه.. فقلت:

ـ ربنا هيعوضني إن شاء الله.. فريدة حولي الأكياس لحازم تحت ياللا.. أو إستني كدة..

خرجت مجددًا ولكن هذه المرة إلى الصالة حيث وجدته جالسًا ممسكًا بهاتفه.. ولم أرَ الحامل بملابسنا.. لقد اختفى.

ـ إيه ده.. هو اللبس اللي كان هنا فين؟ وكان جنبه كرتونتين من جهازي.. راحوا فين؟

لم يرفع نظره عن هاتفه وأجابني ببرود:

ـ طاروا.. خلاص بح..

لا أعلم من أين أتتني تلك القوة على تحمل هذا كم من الاستفزاز.. والقوة على عدم الرد أو الانفعال.. على الرغم من أنني أكبت طاقة بكاء تفوق من فقد أبيه في حادث مفاجئ..

ولم لا..

فلقد محيته مسبقًا..

إلى الأبد..

ـ طيب... مش مشكلة.. الحمد لله..

أجبته بهدوء وذهبت مجددًا لغرفتي.. لأجد دنيا وفريدة يحملان الأكياس ويخرجانها إلى باب الشقة.. اقتربت من فريدة وقلت لها:

ـ خاللي واحدة فيكم تفضل واقفة على الباب.. ممكن يقفله ويحبسنا.. ومش هيهمه إن دنيا معانا..

أومأت برأسها بالموافقة وذهبت لتقف على باب الشقة بينما دنيا تذهب وتجيء حاملة الأكياس لها.. وحازم بدوره يلتقطهم من فريدة ليضعهم في السيارة مع العامل.. بينما ظل أحمد متأهبًا لقدوم زوجته بالأسفل، فهو الوحيد الذي يستطيع التعرف عليها..

دخلت غرفتي سريعًا وأخرجت هاتفي الذي خبأته داخل البلوزة تحسبًا لو حدث أي شجار.. فآخر شيء أريده أن ينكسر.. اتصلت بحازم لأطمئن أن كل شيء على ما يرام «العربية جت؟ طيب حلو.. فريدة بتنزلك بالأكياس آهو»

قاطعني دخول أبي المفاجئ للغرفة ليقف أمامي.. نظرت بجواري فلم يكن موجودًا سوي دنيا.. التي نظرت له تترقب ما سيقوله..

ـ آه آهي.. قدامي.. آهي.. أنا مش فاهم واللـه.. بتقولي إنك جاية؟

قال تلك الجمل وهو يتحدث مع شخص آخر على الهاتف كنت قد تأكدت أنه أمي من أسلوبه في الكلام.. أسلوب من لم يفعل شيئًا...!

ـ إستني هحطك على السبيكر.. آهو.. بنتك الكبيرة عاملة فيها كبيرة وبتلم حاجتها وماشية وساحبة معاها العيلة الصغيرة..

ليأتي صوت أمي من الهاتف وهي تقول بصوت عالٍ:

ـ ليه؟ عايزة أفهم؟ ليه؟ هو انت هتسيبهم يمشوا؟ إقفل عليهم متنزلهمش...!

أدرك أنه استنجد بالشخص الخطأ.. وأنه يسمع آخر شيء يريد سماعه.. أن نبقى معه مجددًا.. فحاول تغيير فحوى الكلام كي لا ينقلب السحر على الساحر.. فأجابها:

ـ أعملهم إيه يعني.. هي فاكرة أصلها إنها هتعرف تعيش عادي من غيرنا كدة.. سيبيها تغور ولا تولع.. ياكش ربنا ياخدهم.

لم أبد أي اهتمام بالمكالمة ولا بكلامه من الأساس.. فكلنا نعلم النوايا، هو كان يريد أن يثبت لنفسه وللناس جميعًا أننا من أردنا الرحيل متناسيًا حقيقة أنه قام بطردنا ثلاث مرات في نفس الأسبوع.. وهي أرادت أن تثبت للعالم أيضًا، أنني وفريدة أخيرًا قد انحللنا أخلاقيًا من بعد رحيلها عن المنزل..

وكلاهما ينكر تلك الحقيقة حتى الآن.. وبشدة!

المراد قد حدث وهي إثبات نظرية أن البنتين لن ينصلح حالهما.. حتى أصبحا بالجحود الكافي الذي سمح لهما بتركهما والديهما والذهاب بعيدًا..

غير مدركين حقيقة أنها تراكمات..

تراكمات لسنين من التظاهر أن كل شيء على ما يرام..

أخذ الهاتف وذهب ليكمل المكالمة بعيدًا ولكن بصوت أعلى في محاولة لاستفزازنا مجددًا للمرة الثالثة على التوالي ولكن هيهات.. صلابة جأشي كانت أقوى.. سمعت صوته يقترب مجددًا قائلًا:

ـ إخلصوا ياللا عشان فوفة جاية في الطريق ولو لقيتكم مش هيحصل كويس وأنا مش هحوشها عنكم..

لم يكتفِ باستفزازي عندما قرر مناداة زوجته، تلك المرأة باسم مدلل في موقفٍ كهذا.. ولم يكتفٍ أيضا باستفزازي باستخدامها كوسيلة تهديد لنا.. ولكنه أظهر موقفه.. سيأخذ الدور السلبي في تلك المسرحية.. مجرد متفرج يصفق لبراعة أداء الممثلة ـ زوجته ـ في السب والقذف..

ولمن؟ لفلذة كبده..

حملت آخر حقيبة في غرفتي.. وقفت على الباب.. أنظر لها مودعة ذكريات طفولتي.. أحلام مراهقتي.. خطوات شبابي..

وقفت أودع كل شيء بعيني.. فأنا أعلم أنها آخر مرة لي أقف في تلك الغرفة..

أغلقت الباب، ليدوي صوته في صدري كطلقة اخترقته.. ومضيت إلى باب المنزل وأنا اشعر بنزيف الفراق..

أسرعت فريدة إلى بلكونة البيت لتجد ساشا تهلل في انتظارنا.. قفزت بين ذراعيها.. فأمسكتها فريدة وأخذتها بهدوء للأسفل.. فالتفت لي أبي ثم قال بصوت صارم:

- إستني هنا.. سيبي المفتاح على السفرة عشان انتوا مش داخلين الشقة دي تاني..

التفت له.. نظرت للمفاتيح في يدي، وضعت الحقيبة على الأرض وأخرجت مفتاح المنزل من الميدالية.. اقتربت من السفرة وألقيته.. ليرن في أرجاء الشقة.. رنة تعلن التحرر منه..

«مع السلامة»..

قلتها وأنا أودعه.. أنظر له مباشرة دون خوف أو لوم.. أنظر وكأنه شخص عادي في حياتي..

فأبي.. قد مات.. في نظري..

منذ ذلك اليوم المشؤوم..

هبطت الدرج في عجالة.. لا أصدق أننا نجحنا وبأقل الخسائر.. لم أعتبر خسارة ملابسي وجهازي خسارة كاملة.. فقدت أخذت ما تبقى حتى وإن كان قديمًا.. وحصلت على بضعة

أشياء من لعبي القديمة.. وألبومات الصور كلها.. فقط لأحفظ هويتي.. أو ما تبقى منها.. ليظل معي في رحلتي الجديدة..

وصلت إلي مدخل المبنى لأجد حازم منتظرًا بجوار سيارة النقل وفريدة استقبلتني بعناق الانتصار.. وعلى وجهها ضحكة لم أرها منذ فترة..

بجوارهم أحمد خلف عجلة قيادة سيارتي وبجانبه دنيا.. يلوحون لنا فرحين..

ـ تعالي نوصل العربية لحد البيت الأول.. وبعدها نخرج خروجة حلوة.

قالها أحمد وهو يبتسم لي.. لأجيبه قائلة:

ـ طيب ياللا نمشي من هنا الأول بس قبل ما مراته تيجي ولا يحصل حاجة..

جلست في السيارة خلف دنيا.. وقاد أحمد بعيدًا.. بينما ظلت عيني معلقة على النافذة..

أرى من خلفها..

بيتنا..

يختفي شيئًا فشيئًا..

* * *

«انزلي فورا أنا تحت..»

قالها أحمد عندما رن هاتفي ليوقظني من نوم عميق بعد ليلة طويلة ويوم عصيب «في إيه يا أحمد؟» تثاءبت «أنا نايمة.. لما أصحى هكلمك طيب» قلتها وهممت بأن اغلق الهاتف حتى جاء رده ليجعلني أنتفض من الفراش وأقف في منتصف الغرفة.

«لو منزلتيش دلوقتي.. هتلاقي الدبلة تحت على الرصيف».

صمت.. أحاول أن أترجم كلماته ولكن عقلي بدا وكأنه قد توقف عن الاستيعاب فقال بصوت صارم:

إنتي سامعاني؟ إنزلي فورًا..

لم أنطق بكلمة... أغلق الهاتف بوجهي.. ظلت نظراتي ثابتة ودقات قلبي عالية في أذني تعلن أن الوقت يمر وأنه في انتظاري.. لا أعلم أين أنا ولا أي يوم هذا.. كل ما يجول بخاطري.. أنه سيتركني.. سأعيش دونه.. ترى ماذا حدث؟.. زفافنا من المفترض خلال ستة أشهر من الآن.. لا بد أن أرتدي أي شيء.. لأراه.

ألتقط إسدال الصلاة فلن أقو على ارتداء أي شيء الآن.. فتحت باب المنزل وأسرعت على الدرج.. لأصل إلى بوابة المنزل وأجده في سيارته.. ناظرًا للناحية الأخرى من الشباك ويدخن سيجارته في عصبية منه تكاد تنكسر بين إصبعيه..

ـ في إيه يا أحمد؟

نظر لي.. وجهه أحمر.. بؤبؤ عينيه يهرول بين عيني.. كتم أنفاسه وألقى بسيجارته نصف الكاملة من الشباك.. التقط هاتفه، فتحه ورفعه أمام عيني.. قائلًا:

ـ نمرة مين دي؟

ما إن وقع نظري على الرقم حتى أصابتني الصدمة ومن هول الموقف هربت مني الكلمات.. عجز لساني عن النطق وارتفع صوت أنفاسي.. حتى صرخ بوجهي جعلت جسدي يرتعش كاملًا مع كل كلمة نطق بها:

ـ ردي عليا.. نمرة مين دي؟

قلبي سيتوقف، لم أعد قادرة على التقاط أنفاسي.. أجبته بصوت مبحوح:

إنت جبت دا إزاي؟

ضحك ضحكة ساخرة ثم قال:

ـ ده اللي فارق معاكي صح؟ جيبت ده إزاي؟ إنتي اللي مش مركزة.. هقولك أنا إزاي.. إنتي مش إمبارح طلبتي من فودافون يبعتولك سجل مكالماتك على الميل؟ صح؟

ثم قال بصوت أعلى «صح؟» أومأت برأسي وأنا خائفة بنعم.. فهدأ قليلا.. ثم قال:

ـ ها نمرة مين؟ إسلام صح؟

أشعل سيجارة ثم التفت لينظر أمامه مباشرة:

ـ بتكلمي الإكس واحنا مع بعض والله أعلم حصل إيه تاني.. مرجعتوش بالمرة؟

نزل بكف يديه على تابلوه سيارته «وأنا اللي مستني فرحنا ومستحمل كل حاجة عشان نتجوز» أخذ نفسًا عميقًا ثم نظر إليّ.. فرجعت للوراء وانهمرت في البكاء:

ـ إنت فاهم غلط.. والله فاهم غلط.. أنا بحبك إنت..

قاطعني قائلًا «ششششش» ثم أغلق فمي بكف يديه قائلًا:

ـ مش عايز أسمع حاجة.. اسكتي..

خلع دبلة الخطبة من يديه.. فقفزت على طرف كرسيه وأمسكت يديه بقوة لأحتفظ بالدبلة في مكانها قائلة وأنا أتوسل إليه:

ـ أبوس إيدك لأ.. متقلعهاش.. أبوس إيدك لأ.

أخذت أصرخ في السيارة حتى أصبحت مشهدًا في فيلم يتابعه جميع المارة:

ـ إسمعني عشان خاطري.. إنت فاهم غلط.

لكز يدي وأبعدني عنه حتى ارتطم ظهري بالباب.. أخرج الدبلة من إصبعه، رفعها أمام عيني ثم نظر لي مباشرة قائلًا بصوت محتقن:

ـ شايفة دي؟ أنا مش عايزها.. أنا قرفان منها.

وألقى الدبلة لتهوي بين رجلي لتصل إلى الدواسة، فنزلت للأسفل والتقطها.. التفت إليه وأنا أصرخ باكية:

ـ إلبسها.. إلبسها عشان خاطري.. أنا بحبك.. متسبنيش يا أحمد..

أبعد يدي عنه كمن رأى كيسًا في سلة القمامة:

ـ أنا مش عايزك.. إنتي خونتيني.. إنتي واحدة خاينة.

رنت جملته في أذني، فبكيت بأعلى صوت لدي.. أعلم أنني أكتم هذا البكاء وأن حياتي تنهار أمامي وقلت:

ـ إنت فاهم غلط.. أنا كلمته عشان كنت خايفة.. إسلام كان معايا من أكتر من ١٠ سنين.. شاف كل حاجة أهلي عملوها فيا وعاشها.. كلمته عشان كنت هتجنن، الذنب موتني.. عايزة حد يقولي أنا كدة ظلمتهم ولا لأ.. أنا كدة قاسية ومفترية ولا ده حقي.

لم يبدِ أي اهتمام بكلامي ونظر الناحية الأخرى.. أشعل سيجارة أخرى ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ إنت عارف أنا اتقالي كام مرة إني واحدة عاقة وهدخل النار؟ عارف كام مرة إتقالي إن مهما عملوا فيا لازم أكون تحت رجليهم؟ كنت محتاجة أكلم حد يعرفني من زمان.. يهدي دماغي.. يفكرني بكل اللي حصل عشان أفهم أنا كدة صح ولا لأ.. والله هي دي الحقيقة.. أنا بحبك انت.

أمسكت يديه فأبعد يدي بقوة قائلًا باشمئزاز:

ـ متلمسنيش.. فكراني أهبل وهصدقك صح؟ إنسي..

صرخت في وجهه ودموعي قد بللت وجهي قائلة:

ـ أنا غلطانة عشان خبيت.. أنا آسفة بس متسبنيش.. أنا حياتي كلها انهارت.. أبوس إيدك متسبنيش.. إحنا خلاص بنتجوز.

مسحت وجهي بكفي وحاولت أن أهدأ ثم أكملت حديثي بصوت منخفض:

ـ طب بص، اللي انت عايزه أنا هعمله.. بس خليك معايا.. أنا مليش غيرك يا أحمد.. لا أهل ولا سند ولا أمان..

صمت للحظة حتى انفجرت في البكاء مجددًا:

ـ إنت بجد بتسيبني؟ رُد عليا؟ بتسيبني وسط كل اللي انا فيه ده؟ أنا مليش غيرك... أرجوك.

التفتت لي وقال بصوت حاد:

ـ إنتي السبب.. أنا مش عايز أكمل..

نظر مجددًا لشباكه ثم قال:

ـ وخدي الدبلة معاكي.. عشان هرميها في الشارع لو سيبتيها.. واتفضلي ياللا عايز أمشي..

شعرت وكأن روحي تسحب من جسدي.. انهار كل شيء بيني وبينه..

وانهارت معه حياتي..

انهارت قبل أن تبدأ..

* * *

(مـا وجــد)

الفصل السابع

يئست من كثرة قولي إن حياتي مملة، على الرغم من كثرة الأحداث بها إلا أنني دومًا أشعر بأن أيامي تشبه بعضها، أستيقظ كل يوم لأعيشه وأنجرف في تفاصيله لأجمع ما حصدته خلال أسبوع كامل ولا أجد شيئًا.. سوى بعض من الذكريات والقلق المستمر..

أيامي قد تشبه بعضها ولكن ما إن نظرت نظرة للخلف حتى رأيت أن كل شيء قد تغير.. فأنا لم أعد تلك الفتاة التي كنت عليها منذ سنة..

أيامي تمر وأنا أنتظر دومًا شيئًا يحدث.. وأنسى حقيقة أنها أرقام من سني..

سني الذي يكاد أن يقترب من السابعة والعشرين.. وبداخلي هواجس عن لقب العانس..

لم أبال قط بذلك اللقب لإيماني بأنني فلت منه بخطبتي من أحمد..

فقد مر على انفصالنا قرابة الأسبوع.. أسبوع مر ولم يحاول الاتصال بي وبطبيعة الحال لم أحاول أنا أيضًا..

قاطع صوت جمال حبل أفكاري ليقول:

ـ أنا كلمته بقى عشان أقوله عليكي.

جمال هو صديق قديم.. تعرفت عليه لأنه في نفس مجال عملي، شاب في أوائل العشرينيات من عمره، يتسم بشخصيته المرحة والكاريزما الطاغية، طويل القامة ذو بشرة بيضاء.. أشقر.. شعره طويل ناعم ينسدل على كتفيه، وهذا هو عنصر جذبه للنساء فهو عاشق لهم.

انتبهت له ثم قلت معتذرة:

ـ معلش أنا آسفة يا جمال.. سرحت.. قول كدة تاني.

أخذ جمال نفسًا عميقًا معلنًا بداية الحديث من جديد:

ـ بقولك واحد صاحبي شغال في advertising agency كنت عملت معاهم campaign قبل كدة.. قاللي إنهم عايزين حد يشتغل معاهم copywriter بس مش بصفة دايمة..

أنصت له باهتمام وبدأت التركيز في كل كلمة.. شعرت بأنها فرصة جيدة وقد تكون طوق النجاة ينتشلني من أعباء الماديات الشهرية ثم قلت:

ـ بعدين؟

أشعل جمال سيجارة وارتشف من كوب القهوة ثم أكمل حديثه قائلًا:

ـ فقلت طب ليه مش إنتي.. أنا فاكر كنت حكتيلي زمان إنك كنتي بتحبي تكتبي كلام الإعلانات من صغرك ودايمًا بيجيلك أفكار ليها بس عمرك ما نفذتيها.. فقلتله عليكي قاللي عايز أشوف حاجة من شغلها.. بعتلي ميل فيه تفاصيل كدة هبتعهولك تشتغلي عليه ولو تمام هاتبقي معاهم.

فأجبته بصوت متردد:

ـ طب ودي مرتبها كام؟ ولا الشغل هايبقى إزاي؟

ابتسم ثم قال:

ودي تفوتني برضه. أنا عارف إنك صعب تشتغلي في شركة.. الشغل كله من البيت وهيحتاجك حوالي مرتين في الشهر.. بكام بقى دي علي حسب الشغلانة..

عاتبت نفسي في تلك اللحظة على قلة خبرتي في أي مجال يسمح بدخل مادي ثابت.. فكل خبرتي في الحياة العملية تتطلب مني أن أكون في مجال الأعمال الحرة.. وددت ولو لمرة في حياتي أن أستقر على مرتب شهري أثق أنني سأحصل عليه.. ولكن هيهات..

ـ طيب مش مشكلة... طيب قالك عايز الشغل ده إمتي؟

زفر جمال نَفَس السيجارة ثم قال:

ـ آه.. كمان أسبوعين، معاكي وقت آهو.. وإنتي وشطارتك بقى، لو شغلك حلو هيشتغلوا معاكي دايمًا.. وإنتي دماغك نضيفة يعني..

التفت لفريدة الجالسة على يميني لأسالها:

ـ إنتي إيه رأيك؟

اعتدت دومًا على ذلك السؤال، فقلبي لا يهدأ إليّ عندما تبدي موافقتها.. أشعر أحيانًا أن اختياراتي في الحياة قليلًا ما تكون صائبة.. ربما لأن فريدة دومًا تقول وجهة نظر لم أعيرها اهتمامًا من قبل.. أو لأنني أحب المشاركة في الأساس، فخوفي الدائم من الوحدة حتى وإن كانت وحدة اتخاذ القرار.. لتجيبني:

ـ أنا شايفة إنها فرصة حلوة.. جربي ومش هتخسري حاجة..

التفت لجمال مجددًا ثم قالت:

ـ بس دي محتاجة بال رايق وتفكير كتير وصبر بشع.. هاجيب ده كله منين!

أجابتني فريدة بامتعاض:

ـ عادي يا نالا.. افصلي وركزي في الشغل إن شاالله ساعتين في اليوم.. هتخلصي..

الخيال.. إنني سأفصل ما بين أفكاري المشتعلة بحقيقة أنني انفصلت عن حب العمر قبل الزواج مباشرة وسأعمل وكأن حياتي مستقرة وكل ما يشغل بالي هو ذلك الإعلان فقط.. أما الحقيقة.. أنني سأظل أجري وألهث ما بين فكرة عن الإعلان ووجعي من الفراق..

تحسست إصبعي الفارغ.. نظرت إلى اختلاف درجة لون جلدي..

فقد كان يومًا ما مزين بها.. تلك القطعة اللامعة التي تعلن عن بداية مستقبل مختلف، تلك القطعة التي وضعتني في خانة من وجدوا رفيق حياتهم.. من وجدوا ضالتهم..

لامس إصبعي مكانها الفارغ.. لقد افتقدتها.. أو بمعني آخر، أفتقده..

أفتقد ذلك الأمان..

أفتقد..

دبلتي..

فلم يمر على فراقنا سوى أسبوع واحد.. فكيف لسبعة أيام أن تتغير حياتي بهم رأسًا على عقب وتتحول من بيت الزوجية.. لبيت العزوبية.. لتضرب بجميع آمالي عرض الحائط..

أن أكون فتاة..

بالفستان الأبيض..

ـ شوفي هتعملي إيه وقوليلي لو تمام هبعتلك التفاصيل كلها.. أنا لازم أمشي عشان أمي عايزاني ضروري في البيت.. هشوفك بليل في التصوير، جاية صح؟

قالها جمال وهو يدفع الحساب.. لأقول له باستنكار:

ـ جاية بس مش هقدر أسوق فحد من صحابي هيوصلني، لما توصل إبقى قولي..

بعدين إنت بتدفع حسابي ليه، أنا الدنيا عندي معكوكة آه بس مش شحاتة يعني.

ضحك جمال ليقول ساخرًا:

- إتنيلي.. على آخر الأسبوع فلوسي هتكون خلصت أنا كمان وهتعزميني.. مجاليش شغل خالص الفترة دي غير تصوير انهاردة ده..

صافحته وشكرته بشدة لأنطلق أنا وفريدة في الطريق إلى المنزل، وطوال الطريق استمر الحديث عن ذلك العمل.. أعلم أنها تريدني وبشدة أن أوافق وأنجح، للحصول على نقود تكفينا لآخر الشهر.. ولكنها لن تقدر على الإلحاح أو الضغط.. فمنذ أن انقطعت عن المهدئات وصبري قليل ولا أحتمل أي نوع من أنواع النقاش..

قلت لفريدة وأنا أطفئ محرك سيارتي:

- إطلعي افتحي الباب، وانا هجيب الحاجة وآجي..

وصلنا إلى المنزل بعد يوم شاق.. فقد استيقظنا باكرًا لنجلب السباك، صنبور الحمام قد انفجر.. وكأننا مدللون أصحاب وقت فارغ..

لتنبهني قائلة:

- طيب متنسيش الستاير.

قالتها فريدة وهي تترجل من السيارة وتهرول باتجاه الباب.. فحملت الأكياس وصعدت متحاملة على وجعي، جسدي كله يصرخ ألـمًا من نومة ليست مريحة على الأرض وعقل يفكر وهو نائم في كل النواقص وعين لم تغمض بسبب أشعة الشمس.

قد ابتعنا سخانًا كهربائيًا للمياه، ليسد العطش والجوع أيضًا، إندومي كوبايات.. كان طعامنا الرئيسي والأساسي بجانب ساندويتشات الجبنة والتونة وبعض المعلبات، فمن المجنون

الذي سيتبضع طعام دون بوتاجاز؟

التفتت لي فريدة ثم قالت:

ـ نالا، أنا جعانة.. هناكل إيه؟ أكيد مش هستنى لحد ما نشتري حلل ولا طاسات ولا حتى أنبوبة بوتاجاز، وهما طبقين اللي بناكل فيهم غير طبق ساشا.. وزهقت من الإندومي خلاص، بفكر أسخن مية واسلق مكرونة في طبق زي الإندومي كدة واحط عليها كاتشب..

استوقفتني جملة فريدة للحظة ثم لمعت فكرة في بالي أعلم أنها موجعة ولكنها الحل الوحيد نظرًا للظروف المادية.. فكل ما أملكه قد ذهب في إيجار الشقة وبضعة أشياء من سوبر ماركت يومية..

ـ بصي، إحنا كدة كدة محتاجين نروق الدنيا جوة في الأوضة.. لما نخلصها هقولك.. حطي بس شوية عيش ببواقي الأكل دي لساشا وحصليني على الأوضة.

انتبهت فريدة وضرب النشاط في جسدها كعادتها.. فلا تقدر مقاومة الرغبة في إتمام المهام التي تتراكم علينا ولا تسمح لشيء في التراكم من الأساس.. لتقول وهي تنهض:

ـ طب قومي ياللا..

ذهبت لأغير بطاريات ساعة الحائط مجددًا بينما وقفت هي تحضر طعام ساشا، ثم دخلنا الغرفة سويًا.. نرتب حاجياتنا.. من مستلزمات شخصية لملابس داخلية لأحذية.. وصولًا لبضعة أشياء متناقضة لبعضها، لعب منذ الصغر وألبومات صور، ننظمهم فوق الطاولة.. فعندما تعيش في غرفة لا يوجد بها دولاب أو وحدة أرفف لترتب أشياءك تكون النتيجة مكانًا انفجر به قنبلة نووية وأشياء متناثرة على الأرض..

وبعد مرور ساعتين.. استقر وضع الغرفة قليلًا.. المرتبة في منتصف الغرفة، على يميني الطاولة وعلى يساري... وجعي وندبتي التي لن تشفي...

جهاز زواجي من أحمد..

نظرت لهم ولا أعلم هل أشفق عليّ أم عليهم؟ كيف انتهى بهم الحال هنا؟ كيف أصبحوا عبئًا علي في حملهم في وقت كان المفترض أن يكونوا فيه أغلى ما أملك؟ تردد ذلك السؤال في بالي كثيرًا.. فلقد تبدلت الأحوال من كاسات وأطباق كان من المفترض أن أحملهم بعناية وألمعهم، أزين بهم مطبخي وسفرتي وغرفة نومي في عش الزوجية معه.. والآن أنظر لهم وقد تربع التراب عليهم بالطبقات.. استقروا في بيت آخر، ملامحه مختلفة عن ذلك القصر الذي رسمته في خيالي، معه.. استقروا في حقائب مغلقة وكأنني أغلقت قصتي معه بإحكام إغلاق هذه الحقائب.. وركنها في زاوية الغرفة، مثلما ستبقي قصتي معه في جهة من جهات قلبي. للأبد!

لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع.. لو علمت الغيب لكنت اخترت الواقع بالفعل..

«بقولك إيه.. هاتي الشنطة اللي هناك دي وتعالي عشان مش قادرة أقوم»

قلت لفريدة تلك الجملة وأنا أتصنع القوة والجلد وكأن أمرهم بات عاديًا..

التفتت فريدة لي وثبتت مكانها، قالت وعلامات الدهشة تعلو وجهها:

ـ شنطة إيه.. جهازك!!

اومأت برأسي أن نعم.. لتقول:

ـ ليه يا نالا؟ ملهاش لازمة، خليهم.. مسيرك ترجعوا لبعض، لسة الموضوع مخلصش أوي يعني.

ابتسمت في أسى وقلبي يعتصر ألـمًا.. ثم قلت:

ـ إسمعي اللي بقولك عليه، موضوعنا خلاص خلص ولما أحب أفكر في الجواز تاني يكون ربنا فرجها إن شاء اللـه واشتري تغيرهم.. هاتيها ياللا..

لوت فريدة شفتيها بامتعاض ولكنها ذهبت لجلبها على كل حال، تكره نبرة الاستسلام عندما أنطقها.. ولا ألوم عليها، فهي ما زالت صغيرة.. أو لم تمر بتلك التجربة فلن تستوعب كم الألم الذي أشعر به.. لقد كنت بارعة في إخفاء أوجاعي واستبدالها بضحكة تبعث عن التفاؤل لكي تشعر بالأمان وأنها تستطيع أن تتكئ علي..

على الأقل أحدنا يشعر به..

تربعت على أرضية الغرفة، حبست أنفاسي وأنا ألمس الحقيبة، شعرت وكأنني سأنبش في أعماق وجعي.. وفتحتها.

أخرجت أول علبة يدي وقعت عليها.. حسنا، ذلك الطقم قد ابتعته عندما أرسلت صورته له كي يختار اللون معي وتشاجرنا ثم قام بتدليلي بعدها، ثاني علبة كانت لطقم قد ابتعناه سويًا بالصدفة من أحد المولات.. ثالث علبة كانت مجموعة أطباق قد رأيتها على الإنترنت فاشتراها لي في عيد مولدي الماضي، العلبة الأخيرة كانت كاسات، أتذكر يومها أن كل من كان في المتجر كان يضحك عندما صرخت بأعلى صوت «واللـه ما هتشرب حاجة في حاجة النيش..» ثم صرخ هو الآخر «واللـه لاعمل فيها قهوة كل يوم..» ثم انفجرنا في الضحك سويًا. وكذلك كل من كان يشاهدنا..

فريدة رأت أنهم مجرد علب، مجرد عشر علب استطعت أن آخذهم معي وأنا أترك بيتنا القديم.. أما أنا.. فكانوا أكثر من ذلك.. كانوا قطع مغلفة من ذكرياتي معه، دلالات على قصة حبنا الأسطورية، كانوا محملين بمشاعر لأول مرة أشعر بها.. المرة الأولى التي أشعر فيها بأنني عروسة.. تشتري كل ما سيلازمها طوال حياتها.. تشتري تفاصيل يومها مع نصفها الآخر، كانوا قطع من قلبي.. قد تكسرت وتناثرت بذهابه.. وها أنا الآن جالسة على الأرض..

وحيدة كطفلة تائهة.. خائفة من شبح العنوسة الذي بدأ في المطاردة، لا أرى معالم لحياتي، لا للعام القادم.. بل لا أرى معالم ليوم الغد...!

هربت مني دمعة رغمًا عني وهبطت فلفتت نظر فريدة، فقالت:

ـ نالا، فاكس خلاص.

قالتها وهي تأخذ العلبة من يدي وأنا متشبثة بها.. ودمعتي واضحة على غلافها البني قائلة:

ـ مش هفتح كل حاجة.. هناخد بس الحاجات الضرورية اللي هنستخدمها وخلاص..

التكييف.. لطالما كره أحمد تلك الصفة بي ونبذها في كل شجار بيننا.. بينما أراها هبة من اللـه أعطاها لي لأنه يعلم جيدًا كم الأوجاع التي تقتل ويجب أن اتغلب عليها.. لقد تكيفت على الأمر في نفس اللحظة.. كان يجب أن يحدث ذلك الأمر حتى لا أراهم كل ليلة وألعن ذلك اليوم..

اليوم الذي قرر كل منا الافتراق فيه قبل حفل زفافنا مباشرة...!

قاطعني صوت هاتفي.. إنه حازم.. لقد نسيت ميعادنا، التقطت الهاتف ثم قلت لفريدة:

ـ بصي، افتحي العلبتين دول بس واغسليهم كدة لحد ما انزل أخلص الشغل اللي ورايا وآجي..

لتجيبني بصوت منخفض:

ـ هتتأخري؟

هممت بارتداء حذائي وأمسكت بميدالية المفاتيح.. وقلت وأنا أستعد للرحيل:

إن شاء اللـه لأ..

وقفت أمام باب المنزل وصحت «لو عزتي حاجة كلميني..»

أغلقت الباب خلفي وهبطت لأجد حازم في انتظاري.. جلست في السيارة وقلت له:

ـ معلش، اتأخرت عليك.

قال بغضب مفتعل:

ـ مفيش مرة بتيجي في ميعادك أبدًا..

تغيرت ملامح وجهي فانتبه حازم، اعتدل في جلسته ثم قال:

ـ كان إيفيه على فكرة.. في إيه مالك.

زفرت نفسًا، نظرت له وقلت:

ـ أنا فعلا عندي مشكلة في ميعاد كل حاجة.. يا بستعجل زيادة والحاجة بتبوظ، يا بتبارد لحد ما تروح من إيدي..

نظر لي حازم بتمعن وضاقت عيناه، ثم قال:

ـ الكلام العميق ده يطلع لما بيكون حصل خازوق.. خير؟

ظللت طوال الطريق للشركة أحكي له عن الجهاز وعن شعوري وقتها.. إلى أن أخذني حديثي رغمًا عني إلى ذلك اليوم..

اليوم المشؤوم..

* * *

فتحت باب الغرفة لأراها جالسة على الأرض تبكي بحرقة وما إن رأتني مسحت دموعها وتخفت وراء قناع اللامبالاة..

ـ بتعملي إيه يا ماما؟

لتجيبني ببرود:

ـ ماشية..

أشارت بإصبعها على حقيبة ملقاة بجوار الدولاب قائلة:

ـ هاتيلي الشنطة دي كدة.. وحطي كل هدومي اللي في الدرج ده فيها.. وطلعي كيس كبير وفضي فيه الدرج ده.

نفذت كل أوامرها كإنسان آلي يطيع بلا عقل. جن جنوني بداخلي ولكني فضلت عدم إظهاره.. أين ستذهب؟ لماذا؟ ستتركنا؟

توقفت عن وضع الملابس في الحقيبة، التفت لها وقلت بصوت محتقن:

ـ هتسيبينا؟ مش هنيجي معاكي زي كل مرة؟

لم تنظر لي وقالت بحدة وهي تكمل لملمة أشيائها:

ـ لأ.. هتقعدوا مع أبوكوا.. أنا ضيعت عمري عليكوا كلكم ومحدش قدر ده..

نظرت لي مباشرة ثم اكملت حديثها قائلة بصوت جاد:

ـ أنا عايزة أعيش حياتي خلاص..

انهمرت في البكاء.. تمسكت بقميصها وتوسلت:

ـ يعني إيه؟ هتمشي وتيسيبينا؟ إحنا ولادك يعني إيه؟ طيب والله هنسمع الكلام..

أفلتت يدي.. فوقفت وكأنني أمسكت خيط أمل باهت، فقلت بصوت ضعيف مهزوز:

ـ هقولك.. أنا هصلح ما بينك وبين بابا.. بس اقعدي.

ولد بداخلي شعوران مختلفان.. أولهما، شعور المسؤولية تجاههم.. يجب أن أصلح ما حدث.. يجب أن أفعل شيئًا.. لن أشاهد عائلتي تتفكك واقف مكتوفة الأيدي.. والشعور الآخر.. إحساس الذنب.. لأنني فشلت في الصلح.

غضبت من أمي كثيرًا في تلك اللحظة.. فقد بكيت بحرقة أمامها ولم تكترث.. أعلم أن طاقة تحملها قد نفدت ولن أنسى حقيقة أنها بشر.. لها كامل الحق في أن تستنشق هواءً نظيفًا بعيدًا عن خيانة أبي.. ولكن ما ذنبنا نحن لكي تتركنا في مهب ذلك الهواء الملوث؟

قالت لي ببرود وهي تشير إلى حقيبة أخرى ملقاة:

ـ قومي هاتي الكرتونة دي.. هفضي النيش فيها.. كدة كدة دي حاجتك إنتي وفريدة.. بس خاللي شوية منهم معايا أحسن، أنا هحافظ عليهم..

أخذت أمي الكرتونة وقامت بتفريغ دولاب النيش بها.. وعيناها تلمع بالدمع.. حتى حركتها أصبحت أبطأ.. أردت أن أضمها في حضني وأقول إنني أشعر بها.. لا ألومك.. فقد تحملتي ما لا يتحمله شخص آخر.. لكن شيئًا ما منعني.. ربما لأنها كانت بمثابة أول درس لي في وجع فراق من تحب..

ـ نالا.. تعالي هنا.

صرخ أبي فانتفضت ومسحت دموعي، قائلة:

ـ أيوة يا بابا.

نظر لي فرأيت عينيه قد جحظتا من مقلتيهم ثم قال بصوت صارم:

ـ قولي لأمك تخلص ياللا عشان ورايا مشوار وعايز أنزل، ومش نازل طول ما هي هنا.

لطالما كنت المرسال بينهما.. اللاسلكي.. يستخدمونني لتوصيل الرسائل على الرغم من أنهما يجلسان أمام بعضهما.. ولكن الكبرياء طغى وكأن من سيبادر بالكلام أولًا قد خسر المعركة..

سمعته أمي بالطبع فانهالت علي بالصراخ:

ـ قولي لأبوكي أنا مش هسرقه وعيب اللي هو بيعمله دا.. عيب عليك دانت بنتك في الجامعة واللي قدها على وش جواز.

بالطبع سمعها أبي، فنظر لي نظرة ثاقبة اخترقت كل سبل التظاهر بأنني قوية ليرتعش جسدي أمامه ثم قال:

ـ سمعتي أنا قلتلك إيه؟

من أكبر الأخطاء التي ارتكباها أنني كنت دائمًا في المنتصف بينهما، مشتتة لا أعلم من على صواب ومن الحق معه.. لا أعلم على من ألوم، الرجل الذي استوعب فعلته مؤخرًا وقرر الانتهاء من ماضيه مؤقتًا راجيًا زوجته بالبقاء متسلحًا بالهدايا والتنازلات عن مبادئه بطريقة تجعلك تتيقن أنه كاذب، أم الأنثى التي قررت التمرد، فقد تأخر وقت الاعتذار كثيرًا وجاء بعدما أصبح بلا معنى.. رأيت أبي يومها يحاول جاهدًا تمثيل دور الرجل القوي الذي استغنى عن زوجته ولكنني كنت أرى خلاله، ذلك الطفل الذي يرجوها بالبقاء، فهي كأمه.. عاشت معه كل مراحل حياته وحبها له غير مشروط، حب نقي لن يجد له مثيلًا، ونهر من الغفران لأفعاله.. كان يحبها.. يحبها كثيرًا ولكنه يأبى الاعتراف بذلك وكأن ذلك سيهدد رجولته فاختار الصمت والتظاهر باللامبالاة..

وتظاهرت هي الأخرى بالقوة والتمرد..

وأنا أعلم أن..

العشق ما زال باقيًا بداخلهما..

كذلك الجرح الذي سيبقى معي..

* * *

«أنا مش عايزك يا نالا.. مش قادر أكمل معاكي..»

* * *

«اتطلقوا... أبوكي وأمك اتطلقوا...»

* * *

«شوفي هاجي إمتي عشان آخد الشبكة»

* * *

«خدي كل حاجة عشان لو خرجتي من البيت ده.. مش هترجعيله تاني وإنسي عيالك..».

* * *

وصلت أنا وحازم لباب الشركة، أوقف سيارته وقال مازحًا:

ـ وصلنا يا فندم وخدي بالك الأجرة انهاردة عالية..

قلت له بنبرة عتاب وأنا أفتح باب السيارة:

ـ بعد كل اللي حكيته ده وبتهزر؟

أوقف محرك سيارته وأشعل سيجارة ثم قال:

كلامنا مخلصش كدة كدة، أنا بس عايزك تفصلي قبل التصوير.

مددت رجلي خارج السيارة «متخفش.. طالما على قد الضحكة في وش الكاميرا والناس من غير تفكير في حاجة، هفصل». ترجلت من السيارة وأغلقت الباب وابتعدت.. توقفت للحظة ثم استدرت مجددًا وانحيت لأحدثه من النافذة قائلة:

ـ ما تيجي معايا؟

نظر لي بتعجب ثم قال:

ـ هو ينفع؟

رفعت كتفي إلى الأعلى ثم نظرت له قائلة:

ـ آه.. ليه لأ..

دخلنا سويًا باب المبنى التابع له شركة الدعاية والاعلان، فاليوم لدي تصوير إعلان عن أحد المنتجات سأقوم بنشره على صفحتي الإليكترونية كدعاية لهم، أخرجت هاتفي لأخبر المسؤولة عن الحملة أنني وصلت، فاستقبلتنا على بوابة الشركة مرحبة بي.. قمت بتعريف حازم بأنه صديقي المقرب وفي نفس الوقت يساعدني في عملي أحيانًا..

الشركة عبارة عن ساحة واسعة كبيرة، عبرنا خلالها طرقات مليئة بالمكاتب المزينة ببوسترات ولوجوهات وصور خاصة بالموظفين تعطيك إحساس الانتماء لهذا المكان ونبذة عن اهتمامات هذا الجيل.. تفصلهم عن بعضهم فواصل زجاجية جعتلني أشعر ببراح المكان.. في زاوية رأينا طقم كنب يحاوط تلفازًا كبيرًا بجواره أرفف صنعت خصيصًا

لتحمل الجوائز التي حصلت عليها الشركة في حملات إعلانية سابقة والزاوية الأخرى مكاتب إدارية مغلقة.. حتى وصلنا لمكتب منهم ودخلناه.. فلمحت جمال يقف متحدثًا مع زميل لنا، أقبلت عليه ثم قلت بنبرة لوم:

ـ يابني مش قلتلك تكلمني أول ما توصل؟

التفت لي جمال ليقول:

ـ يا بنتي بعد ما سيبتك وروحت. راحت عليا نومة.. قومت جري لبست ونزلت ولسة واصل.

جمال من نوع الرجال الذين يكذبون، كذب واضح وضوح الشمس.. ولكنني أستمتع به، طالما في إطار التفاصيل الصغيرة وليست المحورية.. استمتع بضحكاتنا سويًا وأنا أعلم أنه «بياع كلام»، ومع ذلك أصدقه ولا أعلم لماذا أصبر عليه.. كل ما أعلمه أنه طيب الروح.. وأبيض القلب ويعتبرني أخته الكبرى التي توبخه دومًا حينما يخطئ، فهو الأخ الأصغر المدلل لثلاثة أشقاء آخرين..

ـ تعالي أعرفك على حازم طيب..

صافح حازم يد جمال.. وشعرت في تلك المصافحة أنها بداية صداقة جيدة بينهما.. فكلاهما أحفظ طريقته، حازم رأى شيئًا جميلًا في جمال.. وجمال شعر بأنه شخص محترم.. وقفنا في ركن الغرفة وراء معدات التصوير.. ثم قلت لجمال:

ـ قوللي بقي الدنيا فيها إيه كدة عشان نسيت أسألك الصبح؟ هنصور امتي؟ واتفقوا معاك على كام؟

قلتها لجمال وهو يعزم علينا بسيجارة ويشعلها لنا.. فقال:

ـ بصي، هي كامباين نحتاية كدة.. هنقول كام جملة وشكرًا.. مش صعبة.. اتفقت معاهم على خمسة بصراحة ومردتش أعلي في السعر عشان عليا أقساط العربية إنتي عارفة ومحتاج فلوس..

زفرت نفس السيجارة ثم قلت:

ـ وانا كمان برضه.. مانت متعرفش حاجة عني بقالك أسبوعين كدة.. والصبح الكلام خدنا في الشغل ونسينا نرغي..

تبدلت ملامح جمال ثم قال:

ـ اللي عرفته إنك فسختي خطوبتك.

نظرت له في حزن.. وشردت.. اشتقت إليه.. كثيرًا.. ليقاطعني صوت مدير التصوير قائلًا:

ـ نالا إزيك؟ ياللا نبتدي؟

صافحته مبتسمة.. ثم ذهبت معه أمام الكاميرا وبقي جمال يتحدث مع حازم..

طوال التصوير كنت ألمحهما يتحدثان.. شعرت بأنه حديث طويل يقربان فيه تفكيرهما لبعضهما أكثر لخلق صداقة جديدة.

استمر التصوير قرابة الساعتين حتى انتهى، وانتهت معه طاقتي على الفصل ما بين واقعي وعملي.. ذلك العمل الذي يحتم علي رسم الضحكة على وجهي بصورة مستمرة أمام الجميع والتحدث مع أنواع كثيرة من البشر وتحمل انتقادهم السخيف لي وأحيانًا إهانتهم بل وبصدر رحب، وتحمل تعديلات أصحاب الحملات في آخر دقيقة وتنفيذها لأنني ملزمة بالعقود.. أن تكون جزءًا في العالم الافتراضي يستهلك طاقة كبيرة منك ويؤثر على عالمك الحقيقي، صعب للغاية.. عالمك أنت.. أتذكر أنني استسلمت كثيرًا وعاهدت نفسي على إغلاق جميع حساباتي لأنني لا أتحمل ذلك الطوق من المسؤوليات في رقبتي.. أحب

الحرية وأعشقها.. دون قيود ما ينبغي إن يقال وما سيراه الناس ومظهري أمامهم.. ولكنني كنت سرعان ما أمحي تلك الفترة.. فأنا خلقت لذلك العمل.. أعشقه وأضع به كل طاقتي حتى وإن وددت كثيرًا أن أصارح الجميع بحقيقة أن حياتي ليست مثل صوري وانني أخفي كثيرًا عنكم.. وأقول فقط ما أريده وأختاره..

قاطع أفكاري صوت حازم قائلًا:

ـ بس كنتي هايلة.. اللي يشوفك جوة وإنتي فرحانة وبتتنططي زي العيال قدام الكاميرا ميقولش إن دي اللي كانت معايا في العربية.

قالها بحماس في طريق عودتنا، فقلت له بصوت بائس:

ـ هعمل إيه بقى، اتعودت أعمل كدة من سنين..

صمت حازم للحظة ثم التفت إلي ولمحت بدوري نظرة فضول في عينيه:

ـ وحشك؟ ما تكلميه..

شعرت بالدموع في عيني.. تنهدت «مبقاش نافع خلاص» ثم نظرت من النافذة لأشغل بالي في أي شيء سواه.. لن أتكلم ولن أبوح فلن يفهم أحد.. لقد استسلمت لفكرة أنه سيظل بقلبي فقط وليس بمنزلي.. وإننا كنا قصة حب يتحاكى عنها الجميع ولا يدري أحد بمقدار الوجع الذي نحمله.. حتى انتهت بمنتهى البساطة في أكثر أوقاتي احتياجًا له.. انتهت ما إن دب الشك قلوبنا.. وسرح كلا منا بخياله ولم نصارح بعضنا..

ثم التفت لحازم لأقول بصوت محتقن:

ـ عارف الفكرة في أيه يا حازم؟ إن ساعات كتير بحس إن اللي وحشني مش هو.. اللي وحشني الإحساس اللي كنت بحسه وأنا معاه، فلما راح حاسة بفراغ كبير..

تنهدت ثم قلت:

ـ أنا حاسة إني مش هتجوز..

قاطعني حازم قائلًا:

ـ مش معنى إن قصة حب مكملتش يبقى الأمل راح كدة.. إنتي جميلة يا نالا وتتحبي..

صمت للحظة ثم انهمرت في البكاء قائلة:

أنا بس كنت ما صدقت لقيت حد شاف معايا تفاصيل حياتي كلها، ووافق برضه إنه يتجوزني.. يا حازم الناس مش بترحم ولسة بيشوفوا إن اللي أهلها اتطلقوا دي واحدة مش كويسة، ما بالك باللي حصل ليا..

لسة هتعرف على حد من الأول واحكيله كل ده.. وبعد ما أفضح نفسي مش هيقبل..

أخذت نفسًا طويلًا ثم قلت:

ـ أنا محدش هايقبل بظروفي يا حازم.. وكنت ما صدقت إن أحمد بيحبني رغم كل ده..

كان هو آخر أمل ليا إني ممكن أتجوز واعيش حياة طبيعية زي باقي البنات اللي بشوف صورها وبسمع قصصهم..

إنما أنا دلوقتي لما بشوف واحدة اتخطبت ولا قرت فاتحة، بعيط عشان عارفة إني عمري ما هبقى زيها..

قاطعني صوت رنين هاتفي، أخرجته من حقيبتي لأرى رسالة منه.. «عايز أشوفك ضروري».

ـ حازم إلحق.. ده بعتلي ماسدج.

* * *

الفصل الثامن

«تمام أنا كويس.. أمال نالا فين؟».

قالها حازم لفريدة الجالسة بجواره في أحد المقاهي.. «في العربية بتصور ستوري وجاية».. أجابته فريدة وهي تضع حقيبتها بجوارها.. ليقول لها:

ـ عاملين إيه إحكيلي؟

رفعت فريدة كتفيها لترد بهدوء:

ـ زي ماحنا.. في دوامة هنجيب إيه الأول في الشقة والفلوس هتكفي ولا لأ..

أومأ حازم رأسه في أسف.. ثم قال:

ـ ربنا هيفرجها.. المهم إحكيلي، إنتي عاملة إيه مع نالا؟

شردت فريدة حتى أنها لم تلاحظ وجودي خلفهم طوال الوقت.. ثم قالت بصوت حزين:

ـ كويسين..

لطالما كانت كتومة ولا تبوح بكل ما يجول ببالها، فهي تلك الشابة التي يتحرك عقلها كترس في ماكينة معقدة ولكنها من الخارج هادئة كهدوء السماء في صباح يوم ربيعي جميل.. تلك الشابة التي لا تفتح قلبها إلا لمن تختاره أمان لها، وقد قلت اختيارتها.. فمن تعترض لعدة صدمات الواحدة تلو الأخرى ومن أشخاص كانوا بمثابة ركيزة الأمان الوحيدة له في حياته.. لا يثق بأحد مجددًا.. يرى الوعود كاذبة، يرى من يقسم على البقاء مدعٍ، ومن يقسم على الحب.. كاذب.

تنهدت فريدة ثم قالت بضيق:

ـ هي بس بتتعصب كتير أوي عليا.. مش بتسمعني، بتفهم كل كلامي غلط ومش بتديني فرصة حتى إني أشرحلها قصدي إيه..

صمتت للحظة وهي تلعب بمنديل يوجد على الطاولة ثم قالت:

ـ موضوع أحمد ده مأثر عليها جامد.. أنا مدياها عذرها، بس مانا برضه تعبت يعني.. ما احنا في الخرا ده سوا.. ومش حاسة بأي حاجة ومش شايفة نفسها غلطانة ومستنية كله يسامحها.. مع إنها من الناحية التانية، مش مستحملة كلمة مني..

ربت حازم على يد فريدة ثم قال:

ـ أنا عارف يا حبيبتي.. بس خليكم عارفين إن ملكوش غير بعض.. ولازم تصبروا على بعض شوية..

لاحظت هاتف حازم يرن، نظر إليه ثم وضعه على الوضع الصامت وأكمل حديثه مع فريدة.. لأدخل متجرًا بجانب الكافيه يبيع كتب.. أخذت كتابًا عبارة عن أسئلة عن نفسك تجيبها وأوامر تجعلك مرتاحًا أكثر في حياتك مع البعض من الجمل التحفيزية.. سيكون هديتي اليوم لفريدة لعل وعسى أن تعبر عن أسفي لما بدر مني.. وضعت الكتاب في حقيبتي ورجعت إليهم مجددًا لأجلس على الطاولة بجانبهم، فانتفضوا..

ـ إيه ياما ده.. محسناش بيكي..

قالها حازم فأخذت نفسًا طويلًا ثم قلت:

ـ هو أنا كدة خفيفة.. عامل إيه يا حازم؟

ارتشف حازم من قهوته ثم أجابني:

ـ كويس آهو.. فريدة كانت لسة بتحكيلي إن جالك شغل جديد.

أومأت برأسي قائلة:

ـ آه نسيت أقولك عليه لما اتقابلنا.. إدعيلي بقي.. وبالمناسبة دي.

فتحت حقيبتي وفتحتها لأخرج الكتاب وأعطيه لفريدة «جيبتلك ده» ثم نظرت لها أترقب ردة فعلها، أعلم جيدًا أنها تكره الكتب وتكره القراءة ولا يوجد لديها طول بال لتتصفح مئتي صفحة.. بل تقفز إلى النهاية مباشرة... لديها أيضًا تلك العادة الغريبة في معرفة نهاية أفلامها المفضلة قبل أن تشاهدها.. ربما ذلك يرجع لكثرة ما مرت به من خذلان على مدار حياتها.. فكثيرًا ما توسمت خيرًا في أشخاص وضرب بها توسمها عرض الحائط ليتركها وحيدة بين الخذلان وفقدان الأمل..

ظلَّت تتفقد الكتاب «ده إيه؟» وعلى وجهها علامات التعجب، اعتقدت أنها قد شعرت باليأس في تلك اللحظة.. فكيف لأختها الوحيدة قد سقط منها سهوًا حقيقة أنها لا تقرأ، فقلت لها بترقب:

ـ إفتحيه.. شوفيه..

ما إن فتحته، حتى سر وجهها مجددًا.. «إيه ده.. اللـه.. ده حلو أوي».. ابتسامتها تلك ردت الروح في جسدي مجددًا.. أخاف أن أفقدها.. أخاف أن أكون الحاضر الغائب.. جالسة بجوارها ولكن عقلي ليس معها ولا أشعر بما تشعر به.. أخاف أن نفترق! فقلت لها وأنا أشير على الكتاب:

ـ الكتاب ده عامل مبيعات كتيرة.. أول ما قريت عنه قلت لازم أجيبهولك تتسلي فيه، هيعجبك أوي أنا عارفة..

أومأت فريدة برأسها تعني الموافقة وانشغلت بتفقد الكتاب، فنظرت لحازم وقلت له بصوت لائم:

ـ مش بترد عليها ليه؟

تبدلت ملامح حازم ليرد بملل:

عشان هتتخانق معايا.. بصي هو أنا مكنتش عايز أقولك عشان كفاية اللي انتي فيه.. بس احنا متفقين على الصراحة وإننا مش بنخبي.

صمت قليلا.. ليكمل بصوت يائس:

ـ هي بس المشكلة إني بقيت معاها من حوالي أسبوعين بس.. يعني المفروض ده وقت الحب والمحن والخروجات والسهر بليل على الموبايل.. فهي مضايقة عشان ده مش بيحصل.. وانا مش عارف أعمل إيه..

أجبته بحدة:

ـ متعملش.. هو واضح عامة إنت قصدك إيه، هي مضايقة من وجودنا في حياتك و...

قاطعني حازم سريعًا ليقول:

ـ مش كدة.. بصي، إنتي عارفة إن كان بقالي كتير مدخلتش في علاقة مع حد من ساعة آخر مرة.. وأنا ما صدقت إني لقيت حد كويس أوي كدة.. هي بجد بتعملي كل حاجة أنا عايزها ومفيش حاجة بتقول عليها لأ.. ما عدا الموضوع ده.. بصي، أنا هتصرف معاها.. متشغليش بالك..

ابتسمت ابتسامة سخرية ثم قلت:

ـ مش فاهمة ليه أي حد قريب ليا لازم صاحبته تغير مني وتبقي مش طايقان،ي ومن غير سبب ومن غير متشوفني.. حازم.. لو هيريحها إني أقابلها عشان تطمن مفيش مانع.. بس خليك عارف كويس إني مش فايقة لده ومش هعمل كدة عشان سواد عيونها، هعمل كدة عشان إنت فارق معايا أنا وفريدة..

قاطعنا صوت هاتفي، فأخرجته من الحقيبة لأرى رقمًا أجهله يتصل فتركت الهاتف مجددًا ثم نظرت لهم وقلت:

ـ ده البنك طبعًا.. بقالهم كام يوم بيزنوا عليا إن بابا يروح يسدد الديون اللي عليه ومحدش مصدق إني معرفش عنه حاجة..

التفتت فريدة لي ثم قالت:

ـ آه أنا فيه بنك برضه كلمني إمبارح ونسيت أقولك.

تنهدت ثم قلت:

ـ وسألوكي طبعًا أسئلة خرا عشان مش مصدقين، البجحة في مرة قالتلي إنتي إزاي مش بتكلميه.. طب على فكرة إنتي اللي هاتسددي ديونه بقى..

فقال حازم لنا بتعجب:

ـ متخيلهم يشيلوا أرقامكم أصلًا.

فأجبناه سويًا:

ـ لازم هو اللي يعمل كدة.. وطبعا هو مبسوط، غير رقمه عشان يخلص من قرفهم، فبيقرفونا إحنا.. إحنا مالنا بالديون اللي عليه.. طبعًا تلاقي مراته شافطة كل حاجة..

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

ـ حتى واحنا بعيد عنه.. القرف واصلنا..

قاطعني صوت رنين الهاتف مجددًا لأجد تلك المرة أن ابنة عمي تتصل بي، عادة تكون المكالمات بيننا إخبارية أقولها أنا لها نيابة عن أبي لعمي.. أو العكس.. نظرت لحازم وفريدة ورفعت الهاتف أمامهم ليروا من يتصل بي.. «طب ردي شوفي في إيه».. قالوها معًا.. ضغطت على زر الاتصال ليأتيني صوتها المتوتر..

ـ أيوة يا نالا إزيك، بصي.. أنا بابي لسة مكلمني بيقولي إن باباكي تعبان، جاتله جلطة وفي المستشفى ولازم تكلميه..

فقلت لها باستنكار:

ـ تعبان ماله يعني وعرف منين؟

لتجيبني بصدق:

ـ صدقيني معرفش أي حاجة غير إنه كلمني قاللي كدة عشان أكلمك أقولك، وبيقولك كلميه ضروري شوفيه فين.

فقلت لها بتهكم:

ـ وهو لو تعبان وفي المستشفى هايرد عليا إزاي؟ طيب هشوف كدة.. واقولك..

أغلقت الهاتف لأروي المحادثة كاملة على حازم وفريدة.. فبدا على وجه فريدة القلق والريبة، ثم قالت:

ـ ما يمكن تعبان بجد.

قالتها بصوت مبحوح لأجيبها دون اكتراث:

ـ لا أنا واثقة إن دي تحويرة عشان نكلمه مش أكتر.

زفرت فريدة نفسًا ثم قالت بصوت عال:

ـ ممكن تبطلي سوء الظن اللي فيكي ده.. ممكن يكون جاله جلطة في القلب فعلًا.. أكيد مراته، ما هي عايزة كدة وهاترميه بعد متاخد فلوسه طبعًا..

أشعلت سيجارة لأرد عليها قائلة:

ـ وأنا بقولك دي تحويرة.. يعني إيه كلموه شوفوه فين.. هو هيرد مثلًا؟ ولو هو فيه صحة إنه يكلم عمك.. مكلمناش إحنا ليه؟ واللـه تحويرة..

صمت للحظة، فقالت فريدة بصوت متردد:

ـ يا ستي نشوف جايز الكلام بجد.. إفرضي مات.. ما هو لازم نكون موجودين على الأقل في العزا..

أعلم جيدًا أنه ما زال بداخلها معزة تجاهه، معزة قد قتلها ودفنها بداخلي بفعلته معي..

ذلك السر اللعين..

ـ في الأول وفي الآخر ده براحتك.. أنا مش هقدر أجبرك على حاجة.. أنا بس بقولك إني مش مصدقة ومش حابة أدخل في الدايرة دي تاني.. وعامة هثبتلك..

أشرت بإصبعي للنادل فجاء سريعًا يلبي النداء.. لأقول متخفية بابتسامة مزيفة:

ـ معلش أنا آسفة في الطلب ده.. بس ممكن موبايلك نعمل منه مكالمة عشان حظنا إن إحنا التلاتة رصيدنا خلص.

ثم ابتسمت ابتسامة خجل ممزوجة المجاملة، فأعطاني هاتفه، ثم قلت لحازم وأنا أعطيه الهاتف:

ـ حازم، اتصل برقمه كأنك بتتصل برقم غلط وشوف مين هيرد عليك.

أعطيت الهاتف لحازم ثم رجعت إلى الخلف لأسند ظهري في ثقة ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ كدة كدة هو مش عارف صوتك.. حطه على السبيكر بس..

بالفعل، نفذ حازم الخطة وضغطت على الهاتف ليتصل به.. حتى أجابه.. فقال حازم بجدية:

ـ ألو.. ممكن أكلم نور لو سمحت؟

لنسمع صوت أبي.. على ما يرام قائلا:

ـ لا والله الرقم غلط.

فأجابه حازم معتذرًا:

ـ آه طيب معلش.. أنا آسف.

ليقول أبي بنبرة عادية:

ـ حصل خير.. مع السلامة.

ابتسمت بجانب فمي، ونظرت لهم في انتصار ثم قلت باستنكار:

ـ مش قلتلكم تحوير... جاتله جلطة وبيرد عادي على الموبايل، لأ وفي الشارع كمان..

نظر لي حازم نظرة من يعرف مسبقًا بينما لاحظت على وجه فريدة مجموعة من المشاعر المختلطة، الحيرة من أمرها في السبب وراء تلك الفعلة، القلق من توابعها، واللوم الداخلي

له، الاختناق من تدخله مجددًا في حياتها، الخوف على صحته، جلد الذات لتصديقها له للمرة الألف..

ويكون كاذبًا..

كعادته..

رن صوت هاتفي معلنًا أن أحمد قد كتب شيئًا جديدًا على صفحته، فأنا ذلك الشخص الذي لا يكترث بأن يفتح كل يوم حساب شخص آخر لكي يعرف آخر أخباره ولكنني أهتم بشدة إلي درجة أنني فعلت خاصية أن الهاتف يرسل لي رسالة ما إن يقوم ذلك الشخص بتحميل صورة جديدة... تفقدت الهاتف لأرى صورته.. تجاهلتها عن عمد، سأتحقق من تلك الصورة وتعليقاتها في وقت لاحق فأنا لا أريد سلسالًا من الوم والعتاب من أي شخص يرى أن مراقبتي له لن تجلب لي سوى التعاسة.. فأنا أعلم ذلك جيدًا لكني أحتاجه.. أحتاج الحديث الذي كان بمثابة المسكن طوال الأربع سنوات الماضية..

سرقت نظرة لحازم لأرى إن كان لاحظ تلك الرسالة.. وفي بالي ألا أكذب عليه ولن أماطل مثلما أفعل مع باقي البشر.. فهو الشخص الوحيد الذي يكشف ادعائي بمجرد النظر لي.. والشخص الوحيد الذي قابلته يحترم قاعدة أن تكون صريحًا وقحًا معه أفضل من الكذب والتضليل..

ـ هو صح؟

قالها حازم وعلي وجهه علامات الفضول.. فقد تأكد عندما لاحظ تلك البسمة البلهاء على وجهي ما إن رأيت الرسالة.. فأجبته بتردد:

ـ آه.. هو..

نظرت لفريدة ولوحت لها في إشارة مني بالمغادرة قائلة:

ـ ياللا عشان الناس زمانهم في الطريق وتلاقي ساشا قالبة البيت

نظر لي حازم متعجبًا ثم قال:

ـ ناس مين؟ إيه ده انتوا رايحين فين؟

نهضت من الكرسي وأخذت حقيبتي استعدادًا للرحيل، التفت له ثم قلت بابتسامة رضا:

ـ هو انا مقولتلكش؟

باركلي..

اشتريت كنبة أخيرًا..

* * *

«خدي أختك من التمرين ومتروحوش دلوقتي».

قالها أبي لي على الهاتف، بعد أن قاطع جلسة تصوير لي تم تأجيلها أكثر من مرة بسبب امتحانات الميدتيرم.. فهي السنة الأخيرة لي في الجامعة وأردت الامتياز...!

في إيه؟

أجبته بصوت قلق.. ليرد علي:

ـ بنت الكلب هنا وشكلها كدة ناوية على نية زبالة.. متجيش إنتي واختك لحد مخلص منها..

ترددت تلك الجملة في أذني لأكثر من مرة وكأن لصوتها صدى.. فكيف لتلك المرأة اللعينة الملقبة بزوجة أبي الدخول إلى منزلنا، فمنذ أن علمنا بزواجه منه وقد قرر أن يفصل بيننا تجنبًا للشجار.. فقد حدثت بيننا مناوشات ولكنها لم تتخطى حاجز لؤم النساء.. بالطبع، فهي

شابة في سني.. وضعتني نصب عينيها.. فعلى مدار زواجهم الذي امتد قرابة سنة كاملة، التحقت بنفس جامعتي بل ونفس التخصص ولكن تعليم مفتوح.. وأرادت أن تراني عن قصد بين المحاضرات.. حفظت أسلوب ارتدائي الملابس أشتري قلادة أجد مثلها في رقبتها.. حتى عندما اقتنيت كلبًا.. أرادت اقتناء كلبًا أيضًا، التقطت له بعض الصور لتريني أنها مثلي وفي نفس المرتبة وتركته يموت بعد مرور شهرين عند حارس العقار.. بل وظلت تقتبس أقاويل مشهورة على صفحتها لتنال إعجاب المتابعين.. وأطلقت على نفسها لقب «إعلامية»..

في بداية الأمر.. كنت أراها إنسانًا بائسًا، يخطو خطوات شخص آخر ولا ينفرد بأسلوبه الخاص.. يشاهد نجاح الآخر ويحاول أن يقتبسه وكأنه سينتحل شخصيته يوم الوصول إلى النجاح.. كنت أشفق عليها.. رغم علمي بنواياها ولكني أشفقت عليها..

إلى أن وصل الأمر للتطاول..

وخاصة على فريدة..

فكان اشتعال فتيل القنبلة بيني وبينها هو يوم اتصال فريدة بوالدي لتجيبها هي بوصلة من السباب القذرة والتي نخجل عند سماعنا إياها.. لم أدرِ بنفسي يومها إلا وأنا في سيارتي ذاهبة لبيتهم مرتدية منامتي.. الثالثة بعد منتصف الليل.. وانهال بقطعة من الحديد أهشم بها سيارتها الواقفة تحت شرفتها.. وأنا أصرخ «أنا محدش يشتم أختي».

أتذكر يومها خوف أبي أمامها وانكساره وخضوعه لأوامرها، رفضت أن تفتح باب الشقة لنا تحت تهديد لأبي أنها ستقتلنا... خضع لأوامرها وأطاعها.. حتى وإن كانت على حسابي أنا وفريدة..

التفت لأجد نفسي أقف أمام الجميع أثناء التصوير ممسكة بالهاتف في يدي.. ينظرون لي وعلى وجوههم علامات الصدمة.. «معلش أنا لازم أمشي.. أنا أسفة جدًا.. حصلي ظروف»

وانطلقت لسيارتي وأنا أتصل بنجلاء.. تلك المرأة المكافحة التي تعول أسرة كاملة وتساعدني في أعمال المنزل أحيانًا.. «أيوة يا نجلاء.. قابليني عند البيت فورا.. مراته في البيت وانا مش هطلع لوحدي ليحصل ضرب.. ربع ساعة وتكوني معايا».

وما إن وصلت إلى باب المنزل حتى وجدت نجلاء تقترب مسرعة مني.. «هي فوق؟» قالتها وهي تلهث.. فمن الواضح أنها قد هرولت في طريقها من محطة الأوتوبيس حتى المنزل «اه.. لازم اطلع.. وطنط هاتكون معانا» أشرت بإصبعي لجارتي.. امرأة في العقد الخامس من عمرها، زوجها توفي ولديها ابن وحيد أصغر من فريدة بعام.. تعلم لأحوالنا منذ طلاق والدينا وتهتم بنا من حين إلى حين..

صعدنا الدرج في خطوات بصوت خافت.. لا أريد أن يسمعنا أحد ويتأهب..

فتحت باب المنزل لأجدها واقفة في الصالون أمام أبي حاملة طفلها.. تتشاجر مع أبي.

ما إن رأتنا.. ساد الصمت..

- إنتي بتعملي إيه هنا؟

قالتها نجلاء وهي تقترب منها ومتأهبة لأي ضربة على غفلة.. ألقت زوجته بطفلها على الأريكة كاد الطفل الذي لم يكمل عامه الأول بعد أن يسقط على رأسه.. ثم انهالت عليها بالسباب..

وما إن توقفوا للحظة.. حتى التفتت إلي.. لتسبني بأمي..

أعلم ان علاقتي بوالدتي ليست على ما يرام.. ولكن غريزة الابنة بداخلي جعلتني أستشيط غضبًا..

وعندما هدأ الوضع.. أخذت طفلها واقتربت مني وأنا أقف على مدخل الباب.. لتنظر إلى عيني مباشرة..

أخذت نفسًا عميقًا أستجمع قواي به ثم انهال كف يدي على وجهها وصفعتها صفعة قد رنَّ صوتها في المبنى كله..

التفتت إلي مجددًا.. احمر وجهها وأخذت تصرخ وهي تذهب إلى المطبخ لجلب سكين من أجل قتلي..

وقف أبي راضخًا لما يحدث.. فصرخت جارتي ونجلاء ثم جذبوني من ملابسي إلى أسفل الدرج وسط صراخ باقي الجيران..

هبطت إلى باب العمارة.. لأتركها بمفردها مع أبي في المنزل تصرخ وتسب.. لأجد أن الجيران لم يكتفوا بالمشاهدة من الشباك بل هبطوا ليقفوا على أعتاب مدخل العمارة.. فشارعنا هادئ تكاد تسمع فيه صوت الإبرة عندما تقع من جيبك..

وقفت أبكي عند مدخل المبنى وسط نظرات الجيران الصادمة لي.. وفجأة.. دوى صوت تكسير زجاج قوي.. جعلني أصرخ بشدة وأنا أخبط على وجهي بكلتا يدي «اتفضحنا... بتكسر البيت... اتفضحنا.. الشارع كله بيتفرج علينا» ومع كل جملة أصرخ بها أسمع صوت تكسير آخر.. قد انهالت على الشقة لتدمر كل ما يقع تحت يديها.. ولم يمنعها أبي..

لم يقو على منعها إطلاقًا..

ظللت أصرخ وأنا أشاهد الجيران يزداد عددهم أمامي.. يضربون كفًا على كف.. صامتين..

استمرت بتهشيم المنزل لنصف ساعة.. حتى هدأ صوت التكسير.. ثم سمعناهم يهبطون على الدرج.. وفي نفس الوقت لمحت فريدة تجري مقبلة علي..

ما إن وصلت.. التفت لأراهم أمامي.. لم تجرؤ على الاقتراب مني.. فما إن رأت فريدة قررت أن ترد لي الصاع صاعين.. فصفعتها حتى جرح وجه فريدة.. لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أجذبها من شعرها وأوجه لها الركلات وسط صراخ الجيران ومحاولات تدخلهم للتفرقة بيننا..

ولكن هيهات.. لم يستطيع أحد أن يفرق بين يدي وبين شعرها الملتف حول إصبعي..

هدأنا قليلًا وأسرعت لسيارتها لتنطلق هاربة.. فانطلقت في سرعة البرق لأقف بسيارتي مقابل سيارتها ناظرة مباشرة لها ثم أمرت أصدقائي من الجيران بغلق وعرقلة جميع الشوارع حولنا بسيارتهم لكيلا تهرب.. فقد كنت اتصلت بشرطة النجدة ولا بد أن تكون حاضرة في معاينة الواقعة..

رأت ألا مفر لديها.. ولن تهرب.. فأدارت سيارتها ورجعت للخلف قليلًا.. ثم ضغطت على دواسة البنزين لتصل إلى أقصى سرعة وترتطم بسيارتي في قوة..

رفعت مكابح سيارتي وظللت أصرخ من الشباك في كل مرة تصدم بها سيارتي «هاتي آخرك.. والله مانتي ماشية من هنا غير ع القسم.. وانت خليك واقف بتتفرج كدة» أصرخ وأبكي في الوقت ذاته.

حتى سمعنا صوت الشرطة قادمًا من بعيد.. وفي تلك اللحظة انهار أبي معلنًا إصابته بجلطة في القلب..

صرخت «افتحوا الطريق تاااااني.. بسرعة» ووصيت أصدقائي ألا يسمحوا لها بالمغادرة.. حملت أبي في سيارتي وانطلقت مسرعة وبجواري فريدة وخلفي أبي وبجواره نجلاء.. حتى صرخت الأيرة «أبوكي مااااات» نظرت في المرأة رأيت وجهه شاحب أبيض اللون.. لا يوجد به ملامح الحياة..

لم أنتبه إلى الطريق، فاصطدمت بسيارة متوقفة وأنا على أقصى سرعة... لم أبالِ بذلك المسكين.. سأعود له عندما أنتهي من تلك الدراما..

أسرعت إلى المستشفى لأجد صديقين هناك كنت قد هاتفتهم مسبقًا لأوصيهم بالبقاء مع أبي.. لأستطيع العودة مجددًا إلي منزلي لعمل محضر لها..

وما إن وصلت البيت حتى صعدت مع الضابط.. لكي يعاين ما حدث في المنزل.. صدمت لأرى أن كل ما يوجد في صالة منزلنا المكونة من ثلاثة غرف قد تهشم على الأرض.. وآثار دمائها على الحائط.. لقد جرحت يدها بالتأكيد..

في تلك اللحظة علمت أن في القانون، ما حدث يندرج في بند مشاجرة عائلية ويجب أن ينتهي بمحضر تصالح وعدم التعرض وإلا سأمضي تلك اللية في قسم الشرطة للعرض على النيابة غدًا.. ترددت وكنت سأوشك على اختيار الخيار الثاني من شدة يأسي ولكن صدمتني فكرة مستقبلي الذي سيضيع هباء.. من أجلهم.. فقررت إمضاء محضر الصلح.. ليرحل ضابط الشرطة وأعوانه.. وترحل هي الأخرى..

وأبقى أنا.. في منزلي المهشم.. المفتوح بابه لجميع الجيران وكأنه مزار سياحي..

أشعلت سيجارة..

نظرت حولي لحطام المنزل..

قررت أن أجلس ولكنني سرعان ما وقعت على الأرض..

فقد تمكنت ولا أدرى كيف من كسر..

أرجل الأريكة..

* * *

«متأكد إن رجلين الكنبة إتركبت صح كدة؟ معلش بقلق بس لا تاخدني وتتقلب بيا»

قلتها لعامل المصنع الذي حمل الأريكة مع زميل له وصعد بها إلى منزلي «أيوة والله يا مدام.. لو مش مصدقاني أوريكي تالت» قالها وهو يتفقد أرجل الكنبة بيديه مجددًا..

شكرته ثم رحل.. لأقف وسط الصالة أنظر إلى الكنبة.. أخيرًا منزلي قد بدأت ملامحه في الظهور.. كنت قد ادخرت مبلغًا من المال من أجل تلك الكنبة بعد أن تجولت في الكثير من المحلات.. لكي أجد واحدة بسعر معقول.. حتى وجدتها بل وبلوني المفضل.. الأزرق...!

ألقيت بجسدي عليها ونظرت إلى السقف وعلى وجهي ابتسامة طفلة رأت فراشها بعد يوم مرهق في المدرسة.. بينما وقفت فريدة تصورني فيديو وهي تتحدث إلى أصدقائها «بصوا.. جيبنا كنبة.. باركولنا» اعتدلت في جلستي وأخذت المخدة في حضني ونظرت للكاميرا.. «جيبنا كنبة يا عيااال.. جيبنا كنبة» وظللت أضحك وفي عيني دموع الفرحة.. لأول مرة..

شعرت بالفخر بنفسي.. وبفريدة.. لقد تمكنا من شراء شيء يغلب عليه طابعنا..

في منزلنا..

الجديد..

لفت نظري تلك الساعة المعلقة على الحائط.. هممت لجلب بطاريات جديدة وقمت بتغيرها، أغلقت فريدة هاتفها ثم قالت بتعجب:

ـ ما الساعة شغالة.. نفسي أفهم بتشيلي البطاريات كل شوية ليه وتغيريها وهي شغالة.

قالتها فريدة وهي تقف عاقدة ذراعيها حول صدرها وتنظر لي بتعجب لأجيبها وعلى وجهي ابتسامة:

ـ أخاف الساعة تقف.. أخاف في مرة ألاقيها مش بتتحرك، ثابتة فالزمن يوقف معاها..

بدلت البطاريات ورفعتها إلى موضعها مجددًا.. ثم قلت بإحباط:

ـ بقولك إيه.. أنا بكرة عندي حفل أنا وانتي معزومين فيه.. وبجد مش عارفة ألبس إيه.. شكلي بقى عرة أوي وأنا ببدل بين الكام البلوزة اللي فاضلين وبس كدة، وفي نفس الوقت شغلي محتاج أكون عشرة على عشرة وشكلي مظبوط دايمًا..

نظرت لي فريدة وهي تفكر.. ثم ابتهجت فجأة لتسرع إلى غرفتنا قائلة:

ـ أنا جاتلي فكرة حلوة أوي.. تعالي ورايا.

دخلت فريدة الغرفة وأنا أقف خلفها لتفتح حقائب ملابسنا ثم قالت بحماس:

ـ إحنا نطلع الهدوم القديمة شوية دي، نفتح فيديوهات على اليوتيوب ونقصها فيبقوا ستايل جديد.. إيه رأيك؟ عشان لو جالنا أي مناسبة ولا خروجة حلوة نكون لابسين حلو، وعشان فاكس شوبينج خالص الفترة دي.

فلتت مني ضحكة أعلنت إعجابي بهذا الفكرة، على الرغم من أنها بائسة إلا أنها قد تنقذنا يومًا مًا.. ثم قلت:

ـ إنتي مجنونة.. صح؟

ضحكت فريدة بحماس وهي تخرج تي شيرت قديمًا لي قد ابتعته من ثلاث سنين لتقول:

ـ والله ما بهزر، بصي ده مثلًا.. لو قصيناه شوية من تحت وقصرنا الكمام هيبقى زي الموضة بتاعت اليومين دول.

اعتدلت في جلستي وركزت أكثر في كلامها ثم قلت:

ـ طب والله مجنونة.. هاتبوظي الكام حاجة اللي فاضلة وهنمشي عريانين..

أخرجت فريدة بنطالًا قديمًا لي على الطراز الهيبي.. واسع الرجلين لآخره.. رفعته إلى الأعلى ثم قالت:

ـ طب بصي البنطلون ده.. شوفي ها..

قاطعتها قائلة باعتراض:

ـ لا.. أبوس إيديكي.. ده الوحيد اللي فاضلي وبحبه.. سيبيه..

أمسكت فريدة المقص وبدا أنها تعلم تمامًا ماذا تفعل.. ثم قالت بنبرة ثقة:

ـ ولو خليته سكيرت حلوة.. إستني..

همت فريدة بقصه وكأنها ترزي حريمي متمرس.. ولم يستغرق الأمر سوى خمس دقائق لأراها ترفعه في الهواء مجددًا وتنظر له بنشوة الانتصار.. قائلة:

ـ بصي بقى حلو ازاي.. إستني هالبسه أوريكي..

لقد تحول ليصبح قطعة جميلة وقيمة تزينت بها فريدة وهي تدور في منتصف الغرفة لترتفع أطرافها في الهواء معلنة أنها قد نجحت في تجربتها.. أعتقد أن روحها الحلوة المبهجة التي أراها الآن هي من أضافت إلى تلك الجيبة جمالًا فوق جمالها..

غريبة هي الأشياء التي دومًا نحتفظ بها على حالها حتى وإن كانت قديمة ونأبى التغيير البسيط فيها.. وما إن تتغير نشعر بالندم على كل هذا الوقت الضائع اعتقادًا مِنَّا أنها كانت أجمل..

ذهبت فريدة لحقيبة أخرى وما إن فتحتها حتى تغيرت ملامح وجهها وارتبكت، فقلت لها مبتسمة:

ـ إيه، هتقصي إيه تاني يا نيلة؟

صمتت وهي تنظر لي نظرة من ارتكب غلطة وقد تأخر الوقت على إصلاحها، فبدا على وجهي القلق، فقلت:

ـ في إيه.. الشنطة دي فيها إيه...؟

لم تنطق فريدة وظلت نظرات فريدة ثابتة علي، ويدها ترتفع ببطء من داخل الكيس لأرى ما تحمله.. ثم قالت بتردد:

ـ لقيت دول..

تجمدت ملامح وجهي.. حبست أنفاسي.. ابتلعت ريقي لأبدأ كلامي.. فخرج صوتي ضعيفًا:

ـ آه.. طيب.

وضعتهم فريدة بجانبها على الأرض، وسادتان.. لقد كانا هدية من إحدى الشركات حين تم إعلان خطبتي أنا وأحمد.. وسادة تحمل اسمي ووسادة تحمل اسمه.. مزينتان بخطوط ذهبية.. قررت الاحتفاظ بهما لأزين بهما أريكة غرفة المعيشة.. أو ربما فراشنا كعلامة غير مقصودة لأقول له إن هذه الناحية من السرير هي ملك لي.. فنضحك سويًا على حدة ذكائي..

نظرت إلى الوسادة..

تأملت اسمه المنقوش بدقة عليها..

سرت في جسدي القشعريرة.. فكيف لاسمه فقط أن يجعلني أشعر بمدى اشتياقي له، فعندما تشتاق لشخص تذهب لتبحث عمن يحمل نفس اسمه ليرتاح قلبك قليلًا كلما ناديت عليه حتى وإن كانت راحة مزيفة.. عندما تشتاق لشخص وأنت في منتصف طريقك عائدًا

من المنزل ما إن تلمح لافتة مكتوب عليها اسمه، تتسارع نبضات قلبك.. وكأنك ترى جزءًا منه أمامك.. يؤكد لك.. أنك ما زلت تحبه..

أخرجت هاتفي والتقط صورة لهم.. وأرسلتها لحازم ودنيا على الواتس آب..

فتحت الرسائل..

بحثت عن اسمه.. كتبت دون أن أفكر..

«ماشي موافقة.. هنتقابل فين؟»

* * *

الفصل التاسع

يأتي التوتر دائمًا مصاحبًا لفقدان الثقة بالنفس، فلقد نظرت إلى انعكاسي في مرآة سيارتي للمرة الأخيرة قبل النزول.. أعين منتفخة تعلن أنها لم تتذوق النوم البارحة، تتوسط هالة من السواد معلنة إرهاقي التام.. رأس متوج بشعر هائش طليق لم تضرب فيه الفرشاة، ليس إهمالًا مني ولكني أحبه حرًا طليق.. نظرات تائهة.. القليل من مستحضرات التجميل، فهذا طبع أغلب النساء عند الفراق.. أظهري جمالك ليلعن ألف مرة قراره بالابتعاد عنك..

ـ هو وصل؟

قالتها فريدة وهي تنظر لي بملل، منتظرة أن أنتهي من التحديق في صورتي.. فقلت في توتر:

-بعتلي ماسدج قاللي إنه قدامه خمس دقايق ويوصل..

تنهدت فريدة وشردت في سيارة بجوارنا تركن في ساحة المول.. أكاد أرى ملامحها تحمل الكثير من التساؤلات مهما حاولت جاهدة أن تخفيها، أكاد أسمع أفكارها المليئة بـ «ماذا سوف يحدث لي وإلي ماذا سيؤول ذلك الحديث.. وردة فعلها عندما ترى كريم».. ذلك الشاب الوسيم الذي انتزع قلبها من مكانها عندما قرر أن يبقوا أصدقاء فقط..

تبًا لعلاقة حب قد فشلت وقرر أطرافها البقاء معًا تحت عنوان أصدقاء..

علاقة قد كتب عليها الألم، الندم والكثير من التمثيل..

حازم قد اتفق صباح اليوم مع كريم أن نراه في المول، مكان عمله.. بما أنه وجهتنا.. وبما أنني سأرى أحمد هناك..

إنتي كويسة طيب؟ محتاجة حاجة؟

قالها حازم وهو يربت على كتفي، فقد لاحظ الشرود على ملامحي، فقلت بصوت مهزوز:

ـ لأ.. أنا مش عارفة ده صح ولا غلط اللي أنا بعمله ده.. وخايفة.. خايفة أشوفه..

ابتسم حازم ثم قال:

ـ متخافيش.. وقولي كل حاجة في قلبك.. مش كنتي عايزة تشوفيه ووحشك؟

أشعلت سيجارة وقلت بصوت حاد يميل إلى الغضب:

ـ آه واحشني.. آه متنيل وحشني.. بس مبقاش نافع خلاص نرجع.. هنفضل شاكين في بعض وحياتنا هتبقى جحيم، اللي يسيب الباب ده يا حازم مفتوح، عمره ما هيعرف يقفله حتى لو فضل متجوز عشرين سنة.. دايما هيشوفها ست خاينة ومهما يقصر معاها هيبقي جواه بيبرر لنفسه إنه حقه عشان سامح واستحمل، حتى لو كان ظالمها..

زفرت نفس السيجارة لأهدأ قليلًا، ثم قلت بصوت منخفض:

ـ أنا عارفة إنكم شايفين اللي انا بعمله دع غلط وخلاص موضوعنا انتهي وملوش لازمة وجع القلب.. بس عندي فضول أعرف بيفكر في إيه.. غير إن أنا جوايا كلام كتير هموت لو مقلتوش.. أنا حاسة إني ظالم ومظلوم.. حاسة إننا سيبنا بعض فجأة وملحقتش أتكلم وأقول كل حاجة..

صمت قليلًا ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ حاسة إني اتضربت قلم على وشي وأول ما لفيت عشان أشوف مين اللي ضربني، اختفى..

نظرت من النافذة وألقيت سيجارتي بعيدًا.. صوتي تحشرج في البكاء فقلت:

ـ أشوفه لآخر مرة أقول كل اللي أنا عايزاه عشان محسش بالندم قدام.. واقفل الصفحة دي خلاص.. بس بعد ما اتكلم...

نظرت إلى الأسفل لأرى أصابعي متشابكة في بعضها كطفلة تاهت عن أمها، هبطت دمعة على وجنتي ثم قلت بصوت محتقن:

ـ وبعد ما آخد آخر حضن..

رن هاتفي لأري ماسدج من أحمد.. «أنا وصلت».

ترجلنا جميعًا من السيارة واتجهنا إلى باب المول.. خطواتي مترددة، تتسارع تارة وتبطئ تارة أخرى.. أريد أن أراه وبشدة ولكني خائفة..

وصلنا إلى باب الكافيه لنرى كريم بانتظارنا جالسًا على طاولة في آخر صف ممسكًا بهاتفه، لمحنا وارتسمت على وجهه ابتسامة أعادت الحياة لروح فريدة، فتلك الطفلة تعشقه وبجنون..

ولكن قصتهم قد كتب عليها الدفن قبل أن تحيا.. فيكتب علينا سويًا ألا ننعم بيوم واحد من الحب..

ظللت أتلفت يميني ويساري على أمل أن أراه قبل أن يراني، لأنظر له كما أشاء نظرة تحمل الكثير من الحب الذي جاهدت في إنكاره.. فعيني دومًا تفضح وتبوح بما أخفيه.. وإن لاحظني سوف أتحول مجددًا للبرود واللامبالاة.. فلن يراني منكسرة مهما حدث.. حتى وإن كان انفصالنا هو الصواب.. حتى وإن كانت حياتي تنهار أمامي وأنا أودعه في يومنا الأخير..

رن هاتفي فأجبته «إنت فين؟».. ليقول «إنتي اللي فين.. أنا على باب الكافيه».. لمحته وما زال الهاتف على أذني الذي نسيت أمره وظللت أتفقده من بعيد.. ذلك الشخص الذي لطالما كانت رؤيته تجعلني أرقص فرحًا، أشعر بالسعادة وكأنني ملكت الدنيا بين يدي عندما أقفز بين ذراعيه ليربت على وكأن كفه يقول.. «أنا هنا.. أنا جنبك خلاص».. كيف تحولت رؤيته الآن إلى غصة في صدري وضيق في نفسي، تحولت إلى توتر وخوف ممزوج ببكاء شديد أكبته..

ـ إزيك؟

قلتها وأنا أقف أمامه بصوت منخفض، من يسمعه يقول إن تلك الفتاة قوية.. ومن يعرفني يقول إنني ضعيفة وعلى وشك الانهيار..

نظر لي نظرة غير مصدق ما يراه أمامه.. تلك النظرة التي كان دومًا ينظرها لي قديمًا، كانت إشارة لمدى جمالي ويتبعها بجمل غزل رقيقة..

قبل أن تتدهور علاقتنا وتتدهور صورته في نظري..

ـ أنا كويس.. وانتي؟

قالها وهو يجذب كرسي الطاولة المقابلة لطاولة فريدة وحازم وكريم ليجلس عليه، ملامح وجهه ثابتة.. يحدق بي وكأنه يريد أن يأخذ كفايته من رؤيتي.. أكاد أشعر بحبه.. ولكن، هل أحبني من الأساس؟ هل سامحني؟

ـ كويسة.. بص أنا وافقت إننا نتقابل بس عشان عندي كلمتين محتاجة أقولهم قبل ما نخلص كل حاجة..

أومأ برأسه بمعنى موافق أكملي.. أخذت نفسًا عميقًا، فذلك الحديث سوف يكون طويلًا جدًا.. نظرت إليهم لأهدأ قليلًا وفي أذني ترن جملة حازم: «متخافيش.. قولي كل حاجة في

قلبك..»، نظرت لأحمد مجددًا وقد تحولت ملامح وجهي لتصبح أكثر صرامة ثم قلت بصوت جاد:

ـ أنا مش جاية أبرر ولا أرد على أسألتك، أنا جاية أقولك كل حاجة في قلبي..

تسلل القلق إلى وجهه.

ـ يعني قبل ما تشوفني أوحش حاجة في الدنيا، أنا عايزة أقولك إني استحملت كتير أوي.. مش لوحدك بس...

ابتسم نصف ابتسامة باستخفاف وكأنه يريد أن يقول لي بعد كل هذا.. ثم قلت:

ـ مستغرب ومش مصدق صح؟

صمت وأشعلت سيجارة.. ثم نظرت لعينيه مباشرة وقلت بصوت منخفض:

ـ أنا عارفة إنك كلمت صاحبتك القديمة؟ امممم عرفت وسكت لشهور.. عارف ليه؟ عشان اخترت إني أكمل معاك برضه.. عرفت إنك بتستهبل مع بنات معاك في الشغل وسبحان الله ولاد الحلال اللي قريبين ليك كتير.. وبرضه اخترت إني أكمل معاك..

تبدلت ملامحه.. بدا كمن سرق شيئًا قد وقع من جيبه أمام القاضي.. فقال بصوت مهزوز:

ـ الكلام ده كدب.. ومحصلش.. إنتي بتدوري على أي مبرر وخلاص.

ابتسمت قائلة:

ـ هو انت فاكر إني جاية ألبسك العمة وألف حوالين رقبتك حبل المشنقة وأمشي يا شيبوب؟

زفرت نفس السيجارة.. ثم قلت:

ـ إطلاقًا. أنا كمان غلطانة ومعترفة بده.. أنا غلطت لما خبيت إني كلمت إسلام، أنا كان لازم آجي واقولك.. بس خفت.. كالعادة.

صمت للحظة وشعرت ببوادر البكاء.. كتمت نفسي لأتمالك أعصابي ثم فلت كل شيء عندما لمحت رجلًا خلفه ممسكا بيد حبيبته لأقول بصوت محتقن:

ـ أنا خفت.. أي واحدة ممكن تقولك، أنا كان لازم أفكر في خطوة الجواز ميت ألف مرة قبل ما أحس إني لبست.. كنت بس عايزة أتأكد إنه إنت.. كنت عايزة أحس إني حرة لآخر مرة في حياتي.. كنت عايزة أعمل حاجة أنا عارفة إنها غلط ومبررها سخيف وأهبل..

بس أنا مش جاية أقولك كدة..

أشعل سيجارة أخرى ثم التفت لي قائلًا وهو يزفر دخانه لأعلى:

ـ أمال هتقولي إيه؟

اسندت ظهري إلى الوراء ثم قلت:

ـ جاية أقولك إن العيب مش فيك ولا فيا.. هو العيب في اللي بيحصل.. يعني أنا شيلتي تقيلة عليك يا أحمد.. أنا عارفة...!

نظر لي وعلى وجهه التعجب قائلًا:

ـ وانا كنت اشتكيت ولا قصرت معاكي في حاجة؟

ابتسمت ثم قلت:

ـ مش محتاج تشتكي.. يا أحمد إنت ممكن تكون مشكلتك إن المرتب اتخصم منه مية جنيه.. لكن أنا مشكلتي إني مش عارفة هعيش الشهر ده أصلًا ولا لأ.. أنا حياتي تفاصيلها

كتير ومنها المتعب ليا أنا شخصيًا، حتى شخصيتي أنا عارفة إن مش أي حد يقدر يحتويها ويستحملها..

أنا كنت بطلب منك تقدر حاجات إنت متعرفهاش أصلًا.. وفي نفس الوقت، إنت بتتعامل كأني واحدة طبيعية بتتحول من بنوتة لزوجة..

صمت وأخذت نفسًا طويلًا ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ وانا مش بنوتة يا أحمد هتتحول لزوجة.. أنا واحدة كانت ميتة وبتحاول لسة تعيش.. يعني نقطة البداية عندي غير عندك..

تبدلت ملامحه ثم زفر قائلًا بتهكم:

ـ مش شايفة إنها حجة؟ ما اللي حصل زمان حصل خلاص.. وأي حد هتتجوزيه لازم تفهمي إن حياتك هتتغير.

رفعت إصبعي أمام وجهه وقلت بحدة:

ـ شفت؟ غنت شايف إن اللي حصل حصل.. لاغي فكرة إن كان ليه توابع..

وآه حياتي هتتغير.. بس عمرها ما هتبقى مرسومة بإيد حد تاني غيري..

اقترب من الطاولة حتى سند كلتا ذراعيه عليها وقال بصوت عالٍ:

ـ إنتي هبلة يا نالا؟ إنتي هبلة؟

تساقطت دموعي ونظرت له مباشرة قولت بصوت مهزوز:

ـ آه هبلة..

بص يا أحمد.. بغض النظر عن اللي حصل، بس أنا كان بقالي كتير ساكتة ومترددة وحاسة إن فيه حاجة غلط.. فيه حاجة ناقصة..

وجودك ناقص.. وجودك اللي بجد يا أحمد مش إنك قاعد في وشي وبس.. وانت اتغيرت عن زمان أوي..

قاطعنا النادل بزجاجة مياه وضعها على الطاولة، فشكره أحمد لكي يذهب بعيدًا.. لأكمل حديثي قائلة:

ـ فاكر أول ما شوفتك كنت بقولك هو إنت إزاي بجد؟ محولتش حتى إني أسمع لكل اللي حذرني في الأول.. قررت إني أكمل معاك وعندت وقلت لأ.. أنا شايفة فيه حاجة حلوة، قعدت سنين كل ما يحصل حاجة دايمًا اروح للسبب اللي يخليك مش غلطان وبخلق جوايا مليون ألف مبرر.. أكيد انت مش متحكم ده مجرد خوف، أكيد إنت مش كداب ده مجرد هزار، أكيد إنت مش خاين ده مجرد لعب عيال..

كلها كانت مبررات بسكن بيها قلقي..

أشعل أحمد سيجارته بعصبية تنم عن قلقه، فأكملت:

ـ إنت مسحت كل حاجة فيا وكنت بتحاول تغيرني لواحدة إنت راسمها في خيالك، في خيالك إنت بس..

ورفضت لو انا حبيت أعمل حاجة أنا عايزاها، كل حاجة كانت لازم تكون على مزاجك وفي ستين ألف داهية أنا عايزة إيه.. وأي حاجة بعملها.. كانت عشان بس أرضيك..

إنت دخلت في تفاصيلي عشان تشكلها بإيدك رغم إنها هي هي التفاصيل اللي خليتك تحبني في الأول..

زفر دخانًا ثم قال:

ـ عشان إنتي اللي معترفة إنك مكنتيش راضية عن نفسك زمان..

ابتسمت فأجبته:

ـ يا أحمد.. أنا عشان أتغير بجد للأحسن.. لازم الأول أتصالح مع عيوبي بتاعت زمان واتقبلها واتقبل إنها جزء مني.. مش أنكرها وادفنها واتحول لشخص جديد.. أنا عشان أتغير لازم يكون عشاني مش عشان حد..وانت متقبلتش الفكرة دي..

كل مازعل من حاجة، تحسنني انت بالذنب عشان انت مستحمل كتير ونا عارفة آه.. بقيت بسكت.. بقى عايزة أصرخ في وشك واقولك كل حاجة بس عارفة إن ده اللي في إيدك..

صمت للحظة شردت بها عندما لمحت تلك الطاولة، ففي كل مرة أكون بكافيه حتمًا ولا بد أن أشهد تلك الحالة..

حالة التوتر والضحكات الكثيرة والتمعن في التفاصيل..

الحالة التي تمتلكها تلك الشابة الجالسة أمامي على الطاولة، بجوارها أمها ويقابلها شاب وأمه..

يتقدم لخطبتها..

* * *

«يعني انهاردة تعارف بس ولا قراية فتحة؟»

قالتها فريدة وهي تقف في منتصف الصالة وعلى وجهها التعجب، تراقب تحركاتي ما بين الصالة والسفرة.. إيابًا ومجيئصا لتجهيز كل شيء.. «معرفش، هو جاي مع عيلته.. بصي هي تعارف أعتقد» قلتها وأنا أرتب الوسادات على الكنب.. لأقول لها:

ـ هي ماما متكلمتش لسة؟

أومأت فريدة رأسها بلا.. لأقف أنا تائهة بين أطقم الكاسات والملاعق.. كنت قد اقترضهم من زهرة لأن ما تبقى لنا من بعد آخر شجار مع زوجة أبي لن يكون كافيًا.. فقط كأسان من طقم وطبق واحد صمد من معركة تهشيم الصالة.. ثم إنني أريد أن أبدو بأحسن حال.. أمام عائلة أحمد.. أريد أن أثبت صحة نظرية أن طلاق أبي وأمي لا يشوبه شيء وأننا على وفاق جميعًا ولا نختلف شيئًا عن باقي العائلات..

أعلم أننا في عرف المجتمع هناك قواعد في ذلك اليوم، نتوارثها أجيال عبر أجيال، غير مسموح لأحد أن يعبث بها.. ومن يخرج عن إطارها يتهم بقلة الأصل وجهله بالأصول المتعارف عليها.. طقم معين لتقديم القهوة وأطباق معينة للحلويات.. مع كاسات معينة للعصائر.. ويتم تقديمهم بترتيب معين لا أفقه عنه شيئًا.. فأنا الأخت الكبري والفتاة الأكبر في كلا العائلتين ولم يسبق لي أن شهدت أو رأيت ذلك النوع من الطقوس..

وقفت تائهة وسط أكوام من الكاسات لا أعلم بدايتها.. أحضرتها في صباح هذا اليوم مسرعة عندما رفضت أمي تقديم المساعدة.. فاكتفيت بطلب المساعدة منها..

فالتقط هاتفي لأحدثها:

ـ ألو يا ماما إنتي فين.. إتأخرتي أوي والناس زمانهم على وصول.. أنا واقفة في المطبخ محتاسة ومش عارفة أعمل إيه..

لتأتي إجابتها بصوت بارد غير مكترث بحجم قلقي.. فاليوم هو زيارة عائلة أحمد لنا في بيتنا للتعارف بأهلي.. وإن سار الأمر على ما يرام.. سنحدد ميعاد خطبتنا.. خطبتي من ذلك الشاب الوسيم الذي لطالما حلمت أن أكون زوجته.. بعد أن امتدت صداقتنا لقرابة العامين..

ـ لما أخلص اللي ورايا الأول.. هبقى آجي..

فأجبتها بصوت عالٍ:

ـ في إيه أهم من بنتك وقراية فتحتها انهاردة.. تعالي بقى.

أجابتني الإجابة نفسها لتغلق الاتصال.. التفت لفريدة ورأيت أبي يقف خلفها ليقول:

ـ أمك فين مجتش ليه؟ وإيه الحاجات دي كلها؟

قلت له بصوت يائس:

ـ قالت لسة مش جاية دلوقتي.. أنا خايفة يجوا قبلها.. وانا مش عارفة أعمل إيه.. طب أكلم زهرة؟

أومأت فريدة برأسها لتقول:

ـ كلميها مؤقتًا ظبطي معاها أي حاجة.. بعدين انتي لازم تلبسي أصلا.. إتأخرتي كدة.

وضعت التورتة في الثلاجة ثم التفت لأذهب إلى غرفتي وقلت لفريدة:

ـ طيب تعالي معايا ساعديني والنبي.. أنا مش مجمعة أي حاجة..

وذهبنا سويًا لغرفتنا.. جلست على الفراش لأهدأ قليلًا بينما فتحت فريدة دولاب الملابس لتختار هي ملابسي.. فتلك هي هوايتنا دومًا.. أن تقوم هي باختيارهم لأبدو في أبهى حلة..

ـ ها.. إيه رأيك في دول على بعض؟

قالتها فريدة وترفع أمامي بنطال من القماش أبيض اللون.. وبلوزة زرقاء.. «حلوين أوي.. هلبسهم». ذهبت لأقف أمام المرآة لأصفف شعري غير المهندم من فرط تحركي منذ الصباح الباكر.. وأضع القليل من مساحيق التجميل.. أريد أن أبدو بمظهر جمال بسيط.. فدومًا كنت أكره كثرة المساحيق.. فالهدف منها إضافة لمعة بسيطة من الجمال إلى وجهك وليس تغير ملامحك لتصبحي أنثى أخرى..

«كلمي السوبر ماركت شوفيهم اتأخروا ليه؟ البيبسي لو جه سخن مش هيلحق يسقع كدة»

قلتها لفريدة وأنا على عجالة من أمري.. أجري في كل ركن في غرفتي أسارع الزمن لأرتدي ملابسي وأوفر وقتًا كافيًا لأرتب المطبخ..

«وكلمي إنتي زهرة ياللا أول ما تخلصي لبس عشان تشوفي الحاجة معاها»..

قالتها فريدة وهي تقبل على الهاتف لتتصل بالمحل.. بينما انطلقت أنا مسرعة لأقف في مطبخنا مجددًا أحاول الاتصال بزهرة..

ولا أعلم أي أمر يجب أن أقلق بشأنه.. قلقي من إتمام الزيجة وتعاملي مع أهله لأول مرة في حياتي.. فأنا العروس اليوم.. أم قلقي من ترتيبات لم أكن مكلفة بها من الأساس!

فأنا العروس اليوم...

قاطعني صوت جرس الباب لأجد أمي مقبلة على في المطبخ بعد أن ارتديت ملابسي وخلفها عبير.. من تساعدها في أمور منزلها بعد انفصالها عن أبي..

«عبير نضفي يلا الحاجة دي.. وحطيهم بالترتيب على الرخامة.. نالا وريني جيبتي إيه نقدمه».

على الرغم من ضيقي منها.. إلا أنني اطمأننت عندما سمعت صوتها في أرجاء المنزل.. فصوتها دائمًا حتى وإن كانت تصيح في شجار.. عندما أسمعه في المنزل.. أشعر بقليل من الطمأنينة.. إننا عائلة كاملة العدد تحت سقف واحد.. حتى وإن كنا نتشاجر.. ولكننا العدد كامل.. كأي عائلة أخرى.. فالتفت له مشيرة إلى الطاولة لأقول:

ـ جبت التورتتين دول والجاتوهات وساليزون ومشكل حلويات شرقية وعصاير والبيبسي جاي في الطريق.. والسكر والقهوة والشاي أهم..

اندهشت أمي ثم قالت:

ـ إيه كل ده؟ ليه كل ده؟

لأرد عليها بصوت مهزوز:

ـ مانا مش عارفة إيه اللي بيتجاب.. فجيبت كله واحنا نختار..

قاطعنا صوت أبي.. ليقول ببروده المعتاد:

ـ إزيك؟

أعلم أن هناك شيئًا بداخله يقول إنه سعد برؤيتها تقف في ذلك المكان مجددًا.. فمنذ أن رحلت وتركتنا.. حدث الكثير من الشجارات بينهم وصلت به أنه هددها بألا تطأ قدماها هذا البيت.. فقلت زيارتها لنا.. بل ووصل الأمر أننا كنا نراها خلسة دون أن يعلم.. خوفًا منه..

أعلم أنه اطمأن هو الآخر.. حتى ولو اطمئنان زائف..

وأعلم أنا أيضًا أن قلبي يرقص فرحًا.. فقد استطعت أن أجمعهم تحت سقف واحد.. دون شجار.. بل لفرحة..

فأنا العروس اليوم..

انتهينا وأصبح كل شيء جاهزًا وفي مكانه الصحيح.. حتى وصل أحمد وعائلته..

جلسنا جميعًا.. يتحدث الكبار وأسرق أنا وهو نظرات حب.. وعشق.. وسعادة.. بأننا نقترب خطوة من تحقيق حلم الزواج..

كنت مبرمجة أن أذهب كل عشر دقائق إلى المطبخ لآتي بصينية تحمل أشياء مختلفة.. تارة كاسات عصائر وتارة جاتوهات وصينية الشاي.. التي كدت أن اسقطها على أرجل والد

أحمد من فرط القلق الذي اجتاحني.. ثم أجلس مجددًا.. نظراتي ما بين حذائي خجلًا.. وما بين أحمد.. اندهشت من ردة فعلي.. لم أعتد أن أخجل وكنت قد تخيلت ذلك اليوم منذ أن كنت طفلة أنني سأكون كطفلة في الملاهي.. ألعب وأرقص وأضحك.. ولكنني جلست على طرف الأريكة صامتة.. أبتسم فقط.. وأنظر إلى الأرض خجلة..

حتى قطع حبل أفكاري صوت جعل جسدي ينتفض..

«طب نقرا الفاتحة بقى..»

* * *

«أفهم من كدة إننا خلاص؟»

قالها أحمد وعلى وجهه علامات القلق.. لأجيبه بصوت منخفض:

ـ في يوم من الأيام، هتقابل واحدة تفاصيلها هتعشَّق في تفاصيلك وكأنها اتخلقت عشانك.. بس الواحدة دي مش أنا يا أحمد.. أنا مش هقدر أكون الواحدة دي ولا انت قادر تكون اللي يعرف يشيل شيلتي..

صمت للحظة.. شعرت بالدموع في عيني وسأوشك على البكاء ثم قلت:

ـ عشان كدة قلتلك في أول كلامنا.. إن المشكلة مش فينا.. المشكلة في اللي بيحصل..

أقبل ليمسك بيدي.. قائلًا بصوت محتقن:

ـ طيب ما نوعد بعض إننا نتغير.. أنا مش هعمل اللي بيزعلك وهسيبك براحتك في شغلك وحياتك.. وانتي ماتعمليش اللي بيزعلني.. ونسامح بعض ونبتدي صفحة جديدة..

ضغطت على يديه.. فتلك هي المرة الأخيرة التي سأشعر بها بدفء كفيه.. تنهدت ثم قلت:

ـ مبقاش نافع خلاص.. اللي يشك مرة.. هايشك ميت ألف مرة..

أجبته بتلك الجملة وشعرت وكأن سكينًا قد غرز في قلبي.. لعنت الظروف واختلاف طباعنا التي ظهرت وبقوة بعد ارتباطنا رسميًا.. وقفت حائرة وقلقة من احتمالية أن تكون تلك مجرد مخاوف وارد حدوثها قبل الزواج، توتر ما قبل الدخول في عش الزوجية.. ولكنني أعلم جيدًا أنها لم تكن كذلك..

كنًّا مثل الماء والنار.. تحتاجهم الطبيعة على مدار السنين ولكن لن يجمعهم سويًا مكان واحد..

التفت لحازم ودنيا وكريم.. ثم نظرت إلى فريدة والدموع في عيني.. فهمتني فهمَّتْ بجمع أشيائها استعدادًا للرحيل.. نظرت إلى أحمد مجددًا ثم قلت بصوت متحشرج:

ـ ربنا يوفقك..

وقفت أمامه مادة يدي له لنتصافح.. نظر ليدي.. ثم نظر لي مجددًا..

نهض من مكانه.. ثم رمي جسده كله بيني ذراعي..

لنتعانق..

العناق الأخير..

* * *

ودعته وانصرفت هاربة من الكافيه.. أعلم انه الصواب.. وأخاف أن أغير رأيي وأضعف وأجري نحوه مجددًا أتوسل له أن يبقى بجانبي..

كنت أعلم أن قصتنا حتى وإن تم الزواج لن تتخطى حاجز السنتين لأحصل على لقب مطلقة.. وأخاف أن أكرر ذلك الكابوس مرة أخرى.. أخاف أن يكون مصيرنا مثل والديّ..

ظلا تلك السنين سويًا ظنا منهما أن الحب كافيًا..

فالحب وحده ليس كافيًا، هو فقط العامل الذي يلين قلبك بسببه في أي شجار فترجع عن قرارك وتسامح.. لكنه وحده ليس كافيًا.. فالحب بيننا كان كبيرًا.. ولكن بجانب الحب، كل شيء مدمر..

اتخذت قرارًا وأنا أثق بأنه سيكون بمثابة قرار انتحاري في الأيام المقبلة..

تبًا لقرار تعلم جيدًا أنه نهاية أملك الوحيد.. ولكنه الأمل الوحيد في استقرارك...!

دومًا الحياة تأتي بقرارات صعبة تجبرك على التخلي عن عامود أساسي في حياتك.. مقابل عامود آخر.. لن تستطيع العيش دونه.

وقف حازم أمام سيارتي في الجراج.. وبجانبه دنيا.. ليقول بصوت قلق:

ـ إنتي كويسة طيب؟ محتاجة حاجة؟ قولتوا إيه؟

أجبتهم بصوت متحشرج، فأنا أكتم بداخلي جرعة من البكاء تكفي من تنعي أمها:

ـ مش قادرة أتكلم دلوقتي.. بعدين..

التفتا لفريدة وغمزا لها بأن تعتني بي.. لمحتهم ولكني ادعيت بأنني لا أكترث وذهبت لأجلس في السيارة..

لتدخل بجانبي فريدة بعد أن صافحتهم..

تجلس بجواري..

صامتة..

ممسكة بيدي بقوة..

* * *

الفصل العاشر

«نقف عند البنزينة شوية؟ عايزة أجيب حاجة أشربها.. عايزة حاجة؟»

قلت تلك الجملة بصوت هادئ، متعب ومستهلك.. لتقول:

ـ هنزل معاكي أدخل الحمام.. مع إني مش بحب أدخل برة البيت..

توقفت بالسيارة أمام السوبر ماركت الملحق بمحطة الوقود.. ترجلنا ودخلنا سويًا.. لتهرول فريدة في اتجاه الحمام. وأقف أنا أمام أرفف المعلبات.. وجهي عابس ونظراتي ثابتة.. بدوت وكأنني شخص يعاني من آثار ثاني يوم له بعد شرب الكحوليات.. تائهة.. هادئة.. جفن متثاقل.. أنفاس بطيئة.. وانفجار في الأفكار الداخلية..

فتلك هي اللحظة الأولى لي..

كشابة تعيش حياتها..

بمفردها..

ودونه..

ارتعد جسدي عندما شعرت بيد تربت على كتفي، لألتفت وأرى أمامي زوج أمي.. مبتسمًا ابتسامته المستفزة ويلوح لي قائلًا:

ـ إزيك يا نالا.. عاملة إيه وفريدة عاملة إيه؟

لتتبدل ملامح وجهي وأقول له بصوت حانق:

ـ كويسين.

ليبتسم مجاملًا إياي ثم يقول:

ـ طب إيه.. مش هتسألي على ماما؟

فلتت مني ابتسامة سخرية كانت عن قصد ثم قلت بتهكم:

ـ واسأل ليه؟ مانا ياما سألت ومبتسألش فيا..

ليتغير وجهه ويقول بجدية:

ـ بس مهما حصل.. دي مامتك..

تمالكت أعصابي لأجيبه بهدوء قائلة:

ـ يا أنكل، مع احترامي لحضرتك ده شيء واجب عليا بس بعد إذن حضرتك أنا مش حابة إن حد يتدخل ما بينا..

أعتقد أنه لم يسمعني.. أظن أنه لن يبالي بأي شيء أقوله فهو يحفظ كلمتين عن ظهر قلب.. فأكمل حديثه قائلًا بابتسامة مزيفة:

ـ أيوة يا حبيبتي مانا مش بتدخل وقاصد ده من ساعة ما اتجوزنا.. أنا بس مش عاجبني الوضع..

التقطت زجاجة مياه من الرف بجانبي ثم التفت له وقلت باستنكار:

ـ ولا كان عاجب حد.. معلش بقى قدرنا كدة..

صمت للحظة ثم قال بصوت أعلى:

ـ أمال ربنا فين؟ ربنا امرك...

قاطعته لأصرخ بصوت عالٍ:

ـ ربنا؟! هو أي حد مسموح ليه إنه يدمر شخص تاني باسم ربنا فين؟ أنا هاقول لحضرتك.. ربنا عادل وشايف كل حاجة.. ولو عليا فانا مرتاحة عشان عملت اللي عليا وزيادة وفوق الزيادة كمان لسنين..

لا أدري لماذا يقع اللوم دومًا على الأبناء ولا أحد يلوم الأهل عما بدر منهم من تشوهات.. لا أحد يرفع إصبع الاتهام نحوهم بسبب الايذاء النفسي الذي يتعرض لهم أولادهم.. وكأنهم معصومون من الخطأ.. دومًا يتناسون حقيقة أننا بشر.. وأن البشر خطاؤون..

دومًا يتناسون حقيقة أن هناك أمًا قتلت ابنها وهنالك أبًا ذبح ابنته.. وهنالك الكثير من الأهالي يلقون بأيديهم أطفالهم في الشوارع.. أيجب أن يكون الفعل جسدي لكي نقر بأن تلك الأم لا تستحق هذا اللقب؟.. وكأن الإيذاء النفسي ليس كافيًا.. ولن يكون كافيًا إلا عند خطوة واحدة.. ألا وهي الانتحار..

فما بالك بشخص قد عانى من الإيذاء النفسي الظاهري، وبسببه تلقى جميع التهم عليه..

أما الإيذاء الجسدي.. فهو سر..

لن يبوح به..

ولذلك، سأضرب بتلك الجمل عرض الحائط.. فلا كل أم تستحق الحنان..

ولا كل أب يستحق الاحترام..

تسللت يد لتهبط على ظهري مباغتة لي.. جعلتني انتفض.. ادرت وجهي لأرى أمي.. أمامي..

ـ إيه.. مش هتسلمي عليا؟

وقفت صامتة.. لا أتحرك.. فتلك هي المرة الأولى التي أراها فيها منذ سنة..

دعوت الله أن تخرج فريدة لتكون بجانبي.. فقالت بصوت صارم:

ـ ليكي عين تبصيلي كدة كمان؟ ومش بتردي عليا وانا بكلمك؟ طبعًا.. هو انتي هتبقي طالعة لمين..

تلك الحجة اللوامة التي ينطق بها كلاهما.. منذ الطلاق، أي ذنب يقترفه الطفل يبدأ كل واحد منهم بتبرئة ذاته بأن تلك الصفة المشينة لم يرثها منه.. بل من الطرف الآخر.. فلا يقدر أحد على مواجهة عيوبه.. حتى وإن كان يراها صادرة من قطعة منه..

«بتسألي عليًّا بعد إيه؟».

قلتها بصوت منخفض.. ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ كنتي فين طول الفترة اللي فاتت؟ مكونتيش في حياتي.. ليه مستنية مني أتعامل كأن مفيش حاجة حصلت؟

بدأ وجهها بالاحمرار، فدومًا تقول جملة استفزازية لأثور أنا بطبعي.. فلا أستطيع أن أتحكم في أعصابي أمامها.. فقالت بصوت عالٍ:

ـ أنا أمك.. يعني المفروض تيجي تحت رجليا وتتأسفي لحد ما أسامحك

أكره تلك الجملة وبشدة.. فانفجرت بها قائلة:

ـ الجملة دي قدمت أوي.. قدمت وبقيت بايخة. مفيش حد بيعمل كدة.. أنا بنتك.

أنا واحدة بتحس وانتي دوستي على كل حاجة فيها.. يوم ما قررتي تشيليها ذنب كل قرار غلط خدتيه في حياتك..

قالت بصوت عالٍ صارخة:

ـ بعد كل اللي أنا عملته عشانكم.. أنا ضيعت عمري عليكم.

صوتي تحشرج.. فقلت:

ـ عارفة يا ماما المشكلة فإيه؟ ماما؟... بقالي كتير مقولتش الكلمة لدرجة حساها غريبة عليا..

المشكلة إنك فاكرة إن دورك خلص.. خلاص دخلت الجامعة فسهل إني أترمي ورسالتك خلصت.. مع إن أي واحدة بتفضل محتاجة أمها طول حياتها...

صمت للحظة بكيت فيها، أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

ـ أنا مكنتش طالبة معجزة.. أنا كنت طالبة حاجة بسيطة أوي.. احتواء.. طبطبة.. حضن.. وإنك تسمعيني..

والله ما كنت طالبة حاجة كبيرة..

زاد انفعالها إلى حد أن وقف الجميع يشاهدنا فصرخت:

ـ إنتي واحدة جاحدة.. إنتي مش بنتي.. أنا بنتي ماتت..

ابتسمت والدموع تنهمر على وجنتي بينما وقفت هي صامتة بدورها، ثم قلت بصوت هادئ:

ـ مانا فعلًا مت.. مت.. واديني بحاول أعيش من تاني آهه.. إنتي متعرفيش حاجة عني..

متعرفيش غير شوية حاجات سطحية زيك زي أي حد عادي من صوري على النت غير كدة.. إنتي متعرفيش حتى أنا متدمرة دلوقتي إزاي.. ولا بمر بإيه..

صمت للحظة وقبل أن أرحل.. التفت لها مجددًا.. ثم قلت:

ـ حاجة واحدة بس نفسي ألاقيلها إجابة.. لما الليل بيجي وبتدخلي تحطي راسك على المخدة..

بيجيلك نوم إزاي وإنتي متعرفيش عيالك عايشين ولا ميتين؟!

* * *

انطلقت مسرعة، فتحت النافذة.. إلى آخرها.. أريد هواءً يتغلغل إلى أعماق صدري.. فأنا أختنق..

التفت لأجد فريدة تجلس بجواري وعلى وجهها علامات الذعر، فقالت:

ـ إيه اللي حصل تاني؟ ما تقولي.

أغلقت الشباك قليلًا، فأنا بخير الآن.. ثم قلت:

ـ بس كدة.. هو ده كل اللي حصل..

أغلقت فريدة صوت الأغاني العالية.. كنت قد أدرت أغنيتي المفضلة لأهدأ قليلًا.. لتكمل حديثها قائلة:

ـ أيوة بس انتي صوتك كان عالي أوي وسمعت زعيق كتير.. ده بس اللي حصل؟

أومأت برأسي بنعم.. نظرت لها ثم ابتسمت.. حاولت تغيير الحديث لأخفف من وطأة قلقها.. فقلت وأنا أتظاهر بالحماس:

ـ بقولك إيه ما تيجي بعد ما أخلص meeting نخرج شوية أعزمك على عصير حلو كدة؟

تبدلت ملامحها لتصبح أكثر صرامة فقالت بتحد:

ـ شغل إيه.. إنتي بجد هتسيبيني لوحدي وتروحي الشغل؟

أجبتها بصوت حنون:

ـ فريدة.. إنتي عارفة احنا محتاجينه إزاي.. الفلوس خلصت ومش عارفة هندفع إيجار الشهر الجاي منين.. كل اللي اتحوش خلص خلاص..

قاطعتني لتقول بنفاد صبر:

ـ ماشي.. بس مش كل حاجة شغل شغل.. أنا محتاجاكي دلوقتي..

خليكي معايا..

أخذت نفسًا عميقًا.. ثم قلت:

ـ أنا أصلًا مش عايزة أسيبك بعد اللي حصل وعايزة آخدك ونروح أي مكان نفصل فيه شوية.. بس هنجيب فلوس منين.. أنا ما صدقت إن جالي أي شغل وانتي عارفة..

هزت رأسها هزة فحواها أنها غير مقتنعة.. وأن قد طفح كيلها.. أعلم أنني أصبحت شخصًا عمليًا ولكن بطبيعة حالنا الجديد.. يجب أن أفكر في جميع النواحي، فلا أريد أن أكون ذلك الشخص المتواكل الذي يجلس في فراشه باكيًا، يحمل جميع عوائق حياته على أكتاف الغير.. أوقات أحتاج للعاطفة أن تحركني ولو لقليل من الوقت..

بدوت كمن يحتار بين عقله وقلبه..

لكني أقف محتارة ما بين الطابع العملي لأنني وحيدة ولن ينقذني غيري.. وبين الطابع العاطفي أن أظل بجانبها..

فلن ينقذها غيري..

وصلنا البيت.. توقفت أمام البوابة أنتظر فريدة أن تترجل.. فقد ظلت طوال الطريق صامتة.. «لو احتاجتي حاجة إبقي كلميني» قلتها وأنا أتوسم أن أنال الرضا.. فلن أقوى على حمل ذلك الذنب اللعين بتركها.. لم تعرني اهتمامًا..

رمقتني بتلك النظرة اللوامة..

وذهبت..

تاركةً إياي ألعن تلك اللحظة التي قررت فيها أن أتوقف عند تلك البنزينة..

* * *

«وريني كدة.. لأ حطي روج لون أفقع كدة.. دي عروسة يابنتي..».

قلتها وأنا أتمعن في وجه أمي، الجالسة تحت يدي ملك.. صديقتي المقربة التي تمتلك مهارة فاقت توقعات الجميع في أساليب وضع مستحضرات التجميل.. حتى امتهنت تلك الهواية لتصبح من أمهر النساء في ذلك المجال.. وبما أنها أحن ما رأتها عيني في أصدقائي.. قررت أن تزين أمي.. في ليلتها..

تنحنحت أمي في جلستها بعد أن أبعدت أيدي ملك لتقول بصوت متوتر ممزوج بابتسامة خجل:

ـ إنتي مجنونة.. لا طبعًا.. والله هقوم أمسحه.

أشرت لملك بإصبعي أن تكمل ما بدأته ثم قلت لأمي بحماس:

ـ إنتي عروسة انهاردة والليلة ليلتك.. حطيلها روج أحمر يا ملك..

اليوم هو عرس أمي وزواجها من رجل أتوسم فيه أن يكون خير عوض قد أتاها بعد مرارة السنوات الماضية مع أبي.. زميل لها في العمل.. شارف عمره على الخمسين، أرمل.. ولم يتزوج منذ وفاة زوجته السابقة.. إلى أن خطفت قلبه أمي.. حسب ما يقول.

اليوم.. أزف أمي.. على الرغم من توتر العلاقة بينا منذ أن رحلت عن منزلنا، يمضي شهر كامل نتحدث فيه كل نصف ساعة، ومن بعده شهرين لا تعلم عني شيئًا.. إلا أنني ولحظي السعيد.. كانت العلاقة لا بأس بها عند وقت عرسها..

«فريدة.. هاتي الهدية..».

قلتها لفريدة التي بدورها التقطت حقيبة ورق كانت تخفيها خلف الكرسي، لترفع يدها في الهواء.. حاملة «طرحة زفاف بيضاء».. فقلنا بصوت واحد سويًا.. «مفاجأة».. لتصدم أمي وتضحك بشدة وعينياها ممتلئة بالدموع.. قائلة:

ـ إيه ده.. انتوا بتهرجوا.. طرحة إيه اللي ألبسها.. لأ طبعًا.. بعدين مش هتليق على الفستان..

ارتدت أمي فستانًا أرجواني اللون، ذا أكمام طويلة والقليل من الدنتيل الرقيق عند منطقة الصدر.. رغم شجاري معها مرارًا وتكرارًا لترتدي فستانًا أبيض لتجيبني في كل مرة..
«يابنتي أنا داخلة على الخمسين.. أبيض إيه اللي ألبسه ده، هو انا عيلة وفرحانة بشبابي..»
كانت دومًا ما تشعل تلك الجملة النيران في عقلي..

فنحن في مجتمع.. أصبح الفستان الأبيض حكرًا فقط على الفتاة البكر.. هي الوحيدة التي يحق لها أن تزف بفستان فخم وسط احتفال كبير يتضمنه الكثير من الأقارب والأصدقاء، الكثير من الصور الفوتوغرافية.. والكثير من المباركات.. أما من طلقت أو ترملت.. فلا يحق لها أن تعاود تلك الكرة، أن تفرح تلك الفرحة.. علي الرغم من كونها عروسًا مثلها مثل

الآخرين.. ولكن يولد بداخلها إحساس الخجل.. وكأن كيف لها الحق في أن تسعد بارتداء ذلك الفستان مجددًا.. حتى وإن كانت زيجتها السابقة هي أسوأ قرار أخذته طوال حياتها..

«طب إلبسيها هنصورك بيها وبعد كدة إقلعيها تاني..».

قالتها فريدة وهي تحاول أن تثبت الطرحة بين خصلات شعر أمي.. بينما وقفت ملك تضع اللمسات الأخيرة.. لأذهب بدوري إلى الصالة.. أصافح المدعوين وأتكلم معهم وأفرح بترديد.. «العروسة لسة بتجهز..».. لقد كنت فرحة بحق.

شعرت وكأنني أمها.. وهي ابنتي.. أخذت أتجول في منزلها حيث قررنا أن يقام العرس به.. أحرص على أن يكون كل شيء مثاليًا وفي المكان المناسب.. أتفقد الكاسات، أعيد ترتيب المناشف.. لقد شعرت بأنني أزف ابنتي.. لا أدري إن كان بسبب تلك النظرة الطفولية البريئة التي لم تغادر عينيها طوال اليوم.. أم لوفاة جدتي قبل أن تراها سعيدة ولو لمرة واحدة في حياتها..

أعتقد أن السبب الواضح والقطعي، هو أنني أعلم جيدًا أن كل عروس، مهما كبر سنها.. لا زالت تحتاج أمها في مثل ذلك اليوم..

فسعدت بلعب ذلك الدور معها..

أخذت أميل عليها كل حين، أقبلها.. اعدل من خصلات شعرها.. وأضع اللمسات الأخيرة على الفستان..

«أيوة بصيلي ياللا واضحكي».

قلتها وأنا أرفع كاميرا هاتفي نحوها لأخذ لها الكثير من الصور.. لتكون ذكرى يوم ميلاد فرحتها مجددًا.. فنظرت لي وضحكت ضحكة لم أرها منذ زمن بعيد..

أعلم جيدًا أنها تستحق تلك الفرحة، فلقد عانت من أبي طوال سنوات عديدة.. كان الحب الأول لها.. أحبته منذ أن ضربت الأنوثة جسدها.. ولم ترَ غيره ولم تسمح لرجل آخر بالدخول إلى قلبها، على الرغم من معرفتها بسماحه للكثير من النساء بالدخول إلى فراشه..

لكنها ظلت متمسكة قائلة إنها ابنة أصول وألا يصح أن تتركه لعله يعدل عن أفعاله يومًا ما ويدرك حقيقة أنها امرأة لا يعيبها شيء.. إلى أن أدركت حقيقة أنه لن يتغير حتى لو انقلبت موازين العالم، سيظل كما هو.. فقررت الحفاظ على ما تبقى من كرامتها وودعته قائلة «أنا ضيعت عليك أكتر من نص عمري..».

«هو أنكل وصل؟».

قالتها فريدة وهي تتفقد ساعة يدها.. إلى أن أجابها صوت جرس الباب لأنطلق مسرعة نحوه قائلة:

ـ آهه العريس جه.. سمعيني زغروطة يا بت يا ملك..

لينطلق لسان ملك بأعلى زغرودة دوى صوتها في المبني كله.. فتحت الباب وصافحت زوجها وعائلته.. قائلة:

ـ اتفضلوا يا أهلًا وسهلًا.. اتفضلوا..

ثم غمزت بعيني وأنا أنظر إلى زوجها قائلة:

ـ العروسة جهزت خلاص..

ليضحك لي في خجل غير مصدق كم السعادة التي امتلكتني..

شعرت سعادة تغمر قلبي وتطفئ نيران القلق المستمر عليها كونها تعيش بمفردها..

ولكني اليوم اطمأننت عليها..

أسرعت إلى الداخل لأجدها تقف أمامي وبجوارها ملك وفريدة.. أقبلت عليها وعيني تدمع لأقول بصوت متحشرج:

ـ انهاردة يومك... مبروك يا ماما..

بكت ثم عانقتني بشدة وكأنها تعانق الحياة على ذلك الترتيب الإلهي..

لقد أحببت الحياة في تلك اللحظة ولو كانت الحياة رجلًا لكنت قبلته.. شاكرة إياه..

لقد منحت السماء فرصة ثانية لأمي، فرصة بالشعور بالراحة مجددًا.. بأن يحبها شخص ويقدر مكانتها.. على الرغم من أنني لم أرتح له بطريقة كاملة.. إلا أن حديثها عنه كان ممتلئًا بتفاصيل كثيرة توحي بأنه رجل يستحقها..

«ياللا عشان نطلع... المأذون وصل».

قلتها وأنا أشير لهم نحو الباب.. لتسير أمي ثم فريدة ثم أخرج أنا وملك خلفهم تباعًا.. وسط زغاريد ملك وتهليل فريدة..

وقفت أتأملها وهي تصافح المدعوين على استحياء إلى أن وقفت أمام زوجها، تبادلا نظرات الغرام ثم جلست بجواره ليكون بينها وبين المأذون..

لقد كنت محظوظة بحضوري زفاف أمي.. رغم أن الكثير غير متقبل تلك الفكرة وكأن الأم هي حكر لهم يسهل التحكم فيه حتى وان انفصلت وبقيت بمفردها، لكنها يجب أن تظل بمفردها.. أبغض تلك الأنانية في تحديد مسار حياة شخص قد اكتفى وسأم البكاء طوال حياته.. أستحقر تلك الأنانية في البشر في منعهم بزواج الأب والأم..

فنحن سيأتي علينا يوم.. نتزوج ونكون عائلة صغيرة.. تاركين خلفنا أبًا وأمًا قد أفنوا الحياة في تربيتنا.. فلا يكون جزاءهم عند الطلب بهزيمة وحش الوحدة القاتل الذي يتملك منهم.. كلمة «ممنوع الزواج»..

لماذا نلتمس دومًا العذر لأشخاص ونعطيهم الفرص حتى وإن كانوا لا يستحقونها..

بينما نبخل عليهم بفرصة العيش مجددًا..

لتلك الحياة التي يستحقونها؟

* * *

وصلت إلى مكتب الشركة.. عمارة فارهة تنم على رقي من يقطن بها.. تكسوها طبقات من الرخام وشرفات نحاسية.. المدخل وكأنني قد دخلت بهو أحد الفنادق العالمية.. وقفت مترددة عند البوابة.. فأنا أهاب تلك المقابلات العشوائية التي لا أعلم فيها أحد مسبقا.. سأدخل لأتحدث مع أناس غريبين عني، فقد كان وجود شخص واحد سيهدئ من قلقي قليلًا.. فعلى الأقل سأشعر بالونس.. خاصة وأن ضميري يؤنبني في نبضات تصطدم بقلبي كل خمس دقائق لما فعلته مع فريدة..

أخرجت هاتفي لأتصل بجمال «إنت متأكد إن ده العنوان» قلتها بصوت مهزوز حتى شعر به هو الآخر «مالك قلقانة كدة ليه؟» ليقولها مصاحبًا إياها ضحكة خفيفة «إنتي رايحة تسمعي الشغل واللي مطلوب منك وهتمشي».. لا يعلم أنني أخاف الوحدة.. حتى وإن كانت في العمل.. وأن اليوم لا بد أن أتغلب على هذا الصراع الصغير بداخلي.. لاحتياجي لذلك المال..

صعدت لأجد فرد أمن يستقبلني ويتحقق من بطاقة الهوية، جعل قلقي يزيد.. فأنا قادمة للعمل فحسب وليس لغرض آخر..

«أنا عندي ميتينج مع مستر عمرو».

قلتها بينما كان يكتب رقم بطاقة هويتي في سجل أمامه وكأنه إنسان آلي قد برمج على تلك المهنة.. ليقول بوجه جامد:

ـ إتفضلي للسكرتيرة..

أخذت منه بطاقتي ولم أنطق بكلمة.. فالذعر واضح على وجهي.. ذهبت لتلك المرأة التي أشار إليها لأقول بصوت مبحوح:

ـ مساء الخير.. أنا عندي ميتينج مع مستر عمرو.

أجابتني بابتسامة صفراء.. «أقوله مين؟» لأرد «نالا...» رفعت سماعة الهاتف وضغطت على رقمه الداخلي بالشركة.. بينما وقفت أنا أتفقد تفاصيل الشركة.. من الواضح أنها شركة كبيرة.. وأن ذلك الشخص المدعو عمرو.. صاحب حيثية كبيرة في العمل هنا.. فأنا لا أعلم عنه شيئًا سوى ما قاله جمال وليس بتفاصيل كثيرة.. أعطاني العنوان بعد أن حدد معهم ميعاد المقابلة وقال لي أذهب لمقابلة شخص يدعى عمرو..

ـ إتفضلي هو مستنيكي.. المكتب اللي في الآخر على الشمال..

ابتسمت شاكرة لها ثم توجهت إلى مكتبه.. حتى وقفت أمام الباب المنقوش عليه مهنته، صاحب الشركة.

أخذت نفسًا عميقًا.. طرقت الباب لأسمع صوتا أجش يقول «اتفضل».. أمسكت مقبض الباب فلاحظت ارتعاش يدي.. أنا حقًا متوترة..

«مساء الخير»..

قلتها بصوت مهزوز وابتسامة شعرت فيها بأن أعصاب وجهي تعصي أوامري.. لأجد رجلًا في عقده الرابع.. يرتدي سترة أنيقة.. ووجهه مدفونًا في حاسوبه.. ويده تدون ملاحظات في الوقت نفسه.. جالسًا على مكتب كبير بني اللون وخلفه صور وشهادات تمييز يعلوهم رف عريض أبيض اللون مزين بدروع تقدير.. وأمامه كرسيين أقل فخامة من كرسيه الضخم للضيوف..

لم يرفع نظره عن الحاسوب وقال:

ـ آه أهلًا إزيك.. إنتي البنت اللي هتشتغل معانا في الإعلان الجديد.. بصي بقى.

نظر لي حتى تغيرت ملامحه.. فلم أكن متأنقة على أكمل وجه.. وقد خربت مساحيق التجميل على وجهي حتى بعد أن حاولت إصلاحهم في السيارة.. وأعلم أن مظهري قد يعطيك أن عمري لم يتجاوز الثامنة عشر، صمت قليلًا ثم قال متعجبًا:

ـ إيه ده.. أنا قايل لجمال أنا عايز حد تقيل في المجال ده يرشحه..

خلع نظارته وألقاها على المكتب ثم نظر لي بتأمل واستعلاء بينما وقفت أنا أمامه غير فاهمة:

ـ إنتي اشتغلتي قبل كدة في المجال ده؟

ترددت قبل أن أجيبه.. فقد كنت سأكذب وأقول أعمال واهية ليشعر أنني جديرة بذلك العمل.. وأستحق تلك الفرصة.. ولدي القليل من الخبرة.. ولكني تراجعت.. رجل بتلك المكانة سيكتشف أمري مبكرًا مع أول جملة أقولها.. غير أن الكذب ليس من شيمي..

ـ بصراحة لأ.. بس أنا عندي أفكار كتيرة من زمان.. وكنت جاية لحضرتك أعرف التفاصيل كلها زي ما جمال قاللي..

أومأ برأسه بغير اهتمام ثم قال وهو ينظر إلى ملفات أمامه:

ـ إبعتيلي أي حاجة من شغلك أشوفها.

تبدلت ملامحي وشعرت بأن الذعر قد تملكني، فأنا لا يوجد لدي أي عمل مسبق جاهز لأرسله.. فقلت بصوت متردد:

ـ حاضر أكيد.. أنا ممكن أطبق فكرة كانت في دماغي.. كنت محضراها من....

قاطعني صوت هاتفه الذي أجاب عليه في التو واللحظة خلال حديثي.. لو يعبأ بتلك الشابة التي تتكلم أمامه.. أنهى مكالمته والتي بدت في غاية الأهمية.. لم أفهم شيئًا منه فحديثه قليل ولكني أستوعب حقيقة أن ذلك الإعلان غاية في الأهمية.. وذلك لأن الشركة ستتغير حالها ويرتفع شأنها إذا وافق المعلن عليهم واختار أن يتم صفقة الإعلان معهم.. ولربما ينالوا جائزة بسببه.. أنهى حديثه ثم قال:

ـ على العموم.. الإعلان بتاعنا هايبقى عن العيلة، محتاج منك أفكار جديدة وصايعة نربط بين العيلة والمنتج غزاي.. وياريت تكون حاجة مش مهروسة كتير.

ثم رفع نظره لي وقال بصوت صارم:

ـ أو منحوتة.. إكتبيلي إيميلك هنا هبعتلك عليه التفاصيل كلها..

أخذت الورقة والقلم وقلت وأنا أكتب «طيب.. ممكن أطلع برة فكرة العيلة وأفكر في حاجات تانية..» تأنيت للحظة «يعني لو جاتلي حاجة تانية ممكن أنفذها برضه»... أنهيت الكتابة والتفت له منتظرة الرد ليجيبني بصوت جاد:

ـ لأ.. هما عايزين العيلة وموافقين عليها.. هتسلمي الشغل كمان أسبوعين..

شكرته مبتسمة وبداخلي الخيبة.. دونًا عن جميع الأفكار.. تأتي الفكرة التي أحتاجها وبشدة لتنتشلني من الفقر ويجب أن أعبر عنها لتكون الشيء الذي أفتقده.. وبشدة.

* * *

وصلت إلى المنزل.. صعدت الأربعة طوابق بصعوبة.. فجسدي يصرخ ألمًا..

لطالما آمنت بأن الإجهاد النفسي يظهر وبقوة على جسدك.. فإذا كنت فرحًا تجد طاقتك تتجدد كل عشر ثوانٍ بل سترقص لساعات.. وإن كنت مهمومًا لن تقو على جلب ريموت التلفاز الملقى على الطاولة أمامك.. بل وستشعر بأن قرارك للدخول إلى الحمام يتطلب مجهودًا كبيرًا منك..

فتحت باب السطح الخارجي.. لتستقبلني ساشا مهللة بقدومي بقفزة أعلن بها جسدي انهياره التام.. فجلست نصف جلسة على الأرض ورتبت على ظهرها قليلًا.. ثم فتحت باب المنزل.. وأمامي هدف واحد.. أرتمي بجسدي على الكنبة وأظل محدقة في السقف لألتقط أنفاسي..

ـ إيه ده.. إنتي بتعملي؟

قلتها لفريدة الواقفة أمامي حاملة بعضًا من ملابسها تدسها في حقيبة كبيرة عند باب الغرفة..

«بلم حاجتي»..

قالتها فريدة بصوت متحشرج.. لأقبل عليها غير فاهمة.. وأقول بصوت مهزوز:

ـ بتلمي حاجتك إزاي... إنتي رايحة فين؟؟

ذهبت للحمام لتأخذ ما تبقي من أشيائها ولم تنظر لي.. فمشيت خلفها وأنا أسألها سؤال واحد...»رايحة فين بقولك».

لتقف فجأة وتلقي ما بأيديها على الأرض كمن طفح به الكيل وتقول بصوت عالٍ جعل جسدي يرتعش.

ـ هروح أقعد عند بابا.

اقتربت مني وقالت بصوت قلق متردد:

ـ أنا قلقانة عليه. من ساعة آخر مكالمة دي ومتكلمش ولا حاول تاني.. أنا خايفة يكون حصله حاجة بجد.

تبدلت ملامحي ليسود عليها التعجب ثم قلت:

ـ مكالمة إيه؟ مش أنا يا بنتي وريتك إنه مش حقيقة وإنه كويس؟

عادت مجددًا للملمة ملابسها.. فلن تواجهني بذلك القرار إلا وهي تفعل شيئًا آخر يلهيها عن النظر مباشرة لعيني الدامعة.. ثم قالت بتصميم:

ـ برضه لأ.. أنا خايفة يكون حصله حاجة.. أصل متكلمش ولا عمل حاجة ليه؟ بعدين ما هو ممكن يكون اللي رد ده خالد صاحبه.. مانتي عارفة إن صوتهم زي بعض وكنا دايمًا بنتلخبط..

صمت للحظة ثم قلت:

ـ وكان في الشارع إزاي؟

لتجيبني بسرعة..»عادي كان في الشارع بيجيبله حاجة..» صمتت للحظة.. أكاد ألمح التردد في عينيها.. «بصي معرفش بقى.. أنا قلقانة وعايزة أروحله».

جلست على الفراش خلفي.. أراقبها ثم قلت بصوت محتقن:

ـ قرارك ده عشان قلتلك لازم تشتغلي؟ خلاص يا فريدة متعمليش كدة..

أنا بس كنت عايزة أعرفك قيمة إنك تجيبي القرش بعد ما تتعبي فيه وتدوقي حلاوتها.. بس لو ده هيخليكي تمشي..

متمشيش..

اقتربت منها وأمسكت يدها وقلت بعين دامعة:

ـ كل الناس مشيت من حياتي.. مبقاش إلا حازم ودنيا وجمال.. وانتي..

أنا مليش غيرك.. إحنا ملناش إلا بعض..

أبعدت يدي عنها وأغلقت سوستة الحقيبة وبقوة لتقول بعصبية:

ـ إنتي شايفاني إيه بالظبط؟ هَمشي عشان الفلوس.. هو خلاص دماغك كلها بقيت فلوس فلوس.. قلتلك ماشية عشان قلقانة عليه..

لأرد أنا بعصبية جعلت الوسادة تسقط على الأرض:

ـ وهو كان قلق عليكي؟ كان عبرك من ساعة ما مشينا؟ كان رفع سماعة الموبايل عليكي؟

توقفت عن الحركة والتفتت لي لأكمل حديثي قائلة:

ـ ده ما صدق خلص منك.. رايحة تجري عليه عشان مراته تخليكي شغالة عندهم؟

نظرت لي مباشرة وقالت بحدة:

ـ مفيش حاجة فارقة معايا غير إني عايزة أطمن عليه وأكون جنبه..

توجهت إلى الباب... توقفت والتفت لي مجددًا لتسأل ذلك السؤال اللعين:

ـ ده أبوكي.. خلاص مبقاش في قلبك رحمة؟

لم تنتظر مني الإجابة.. أغلقت الباب خلفها.. تاركة إياي أقف في منتصف الصالة..

وحدي..

فهي لا تعلم..

أي شيء..

* * *

الفصل الحادي عشر

«أنا مش عارفة أنام.. نمتي؟»

قالتها فريدة وهي تتثاءب، لم تعتد على السهر ولن تفعل ذلك مهما حاولت.. فهي كائن نهاري بطبعها.. وأنا كائن ليلي..

أعشق الليل وأقدس هدوءه ووحدته.. ذلك الوقت من اليوم الذي أحب أن أطلق عليه اسم «وقتي الخاص»..

لا أحب النوم.. أفضل السهر خلف ستار أشياء أحبها، أفلام، موسيقي، مكالمة هاتفية طويلة..

أحب أن أختلي بنفسي، أصمت قليلا، لتهدأ الضوضاء من حولي..

أو ربما لأنني أخاف..

أخاف النوم.. ليلًا..

«لا لسة.. مش جايلي نوم».

ظللنا هكذا ممدين على الفراش.. ناظرين إلى السقف.. وكل منا يسبح في خياله.. فقد مررنا بكل شيء سويًا، على الرغم من اختلاف تأثيره علينا.. رؤيتي غير رؤيتها.. ووجعي يختلف عما شعرت به..

نسمع صوت سيارة تمر كل عشر دقائق.. ضوؤها ينير لنا الغرفة.. فنرى خيالات الحقائب على الحائط..

سكون تام حولنا إلا بعض أصوات لهرة جار لنا في الطابق السفلي.. وصوت أنفاس ساشا..

«إنتي عارفة إننا أقويا فشخ»..

قلتها وعلى وجهي ابتسامة لترد بحماس:

- آه.. صحابي دايمًا بيقولوا عليا كدة والكلام بيوصلي.

تنحنحت لأقول بفضول:

- بجد والله؟ بيقولوا إيه فرحيني..

لتجيبني بصوت هادئ:

- بيقولوا إننا أقويا أوي.. وإن ربنا عوضنا كتير.. وإننا استحملنا كتير وشوفنا كتير ولسة واقفين على رجلينا..

ضحكت ضحكة عالية ثم قلت:

- طب والله لنعزمهم أحلى عزومة عندنا في البيت.. بس ديش بارتي بقى عشان مش هنعرف نجيب أكل لكله..

ضحكت فريدة ثم قالت:

- آه استحالة طبعًا.. هقولهم حاضر..

تغير صوتي ليرجع إلى نبرة الجدية مجددًا وقلت:

- بس لأ.. إحنا فعلًا برافو علينا يا بت يا فرفر.. ولا أجدعها راجل والله. بعدين.. دانا عمري ما كنت أتخيل إنك بتفهمي في النجارة وتبقي شاطرة كدة..

ولا أنا تخيلت إني هأقدر أمثل الدور على العمال إني مدام بقى وفيه راجل في البيت..

ضحكت فريدة ثم قالت بسخرية:

ـ ياختي اتنيلي.. جواز إيه..

صمتت قليلًا ثم قالت:

ـ بصي.. إحنا نشتغل جامد الكام سنة دول.. ونهج على أي جزيرة.. والله بجد.

لأقول بتعجب:

ـ جزيرة؟ إنتي دماغك شطحت؟ ما خلاص مشينا من كل حاجة.. عايزة كمان تشتغلي مش في بلد تانية.. لا جزيرة؟

أجابتني بحماس:

والله بجد ياللا.. ونشتغل أي حاجة كدة ونمشي حافيين ونضحك في وش الناس ونبقى كام واحد اللي هناك وبس ومرتاحين..

بس هنرمي موبايلاتنا في البحر..

قالت الجملة الأخيرة وكأنها تنبهني.. فقلت وأنا أضحك:

ـ تصدقي لما تخيلت الموضوع اتبسطت..

ردت باستهزاء قائلة:

ـ بركة إن حاجة فرحتك أخيرًا..

شعرت بالخجل.. فأنا أعلم أن تلك المسكينة قد ذاقت مني مرارة لحظات انفجاري.. فقلت بصوت ضعيف:

ـ بصي.. أنا عارفة إني مزوداها شوية في العصبية.. بس غصب عني والله..

لتجيبني بصوت هادئ:

ـ إتعصبي براحتك بس ميطلعش عليا..

قاطعتها لأقول:

ـ والله لسة حالًا هقولك كدة.. متزعليش مني.. أنا بس متوترة عشان الشغل اللي جايلي ده..

قال إيه هعمل إعلان عن العيلة.. والإعلان شكله مهم ومعتمدين عليا أوي وانا خايفة كدة.. بس محتاجين الفلوس..

ردت بصوت حنون طمأنني:

ـ شوفي طيب لو عايزاني أساعدك في حاجة..

ضحكت بصوت عالٍ ثم قلت:

ـ دا وش.. أنا محتاسة ياما..

صمت للحظة ثم أكملت حديثي قائلة:

ـ فاكرة كنت كل ما انزل صورة لينا سوا على الإنستجرام... أكتب عليها إيه؟

أجابتني بصوت متردد:

ـ اكتبي كلام كتير يا نالا.. إيه فيهم..

أخذت نفسًا عميقًا.. ابتسمت ثم قلت:

ـ أنا وإنتي.. ضد العالم كله.. وهنفضل كدة دايمًا..

صح؟

ظلت عيني معلقة على السقف.. «فريدة؟» لم تجبني، لقد التزمت الصمت فجأة.. «إتخرستي ليه يا حجة؟» فضربت بكف يدي على ذراعها..

لأجد يدي تلوح في الهواء..

لتصطدم بالعدم..

عقلي يعبث بي مجددًا..

فأنا جالسة في الفراش..

وحدي..

وقد تركتني فريدة..

انفجرت في بكاء مرير حد الصراخ.. أركض في المنزل وأنا أصرخ باسمها «فريدة»... أكره الوحدة.. أكرهها وبشدة.. لن أطيق العيش للحظة دون ونس.. ولكن روحي لن تطيق العيش للحظة دون فريدة..

انتبهت إلى ساعة الحائط.. لقد توقفت.. لقد نسيت أمرها تمامًا الأيام الماضية ولم أغير البطاريات.. لم أعرها اهتماما ًكافٍ، فتوقفت لتعلن توقف إحساسي بالحياة مجددًا..

لتقول لي إن العقد قد انفرطت حباته مجددًا..

وضاع الشمل..

أمسكت هاتفي واتصلت بحازم لأصرخ به قائلة:

ـ إنت فين؟ إنزلي دلوقتي... أنا بموت متسبنيش لوحدي».

* * *

ذهبت مسرعة لذلك الكافيه المعتاد.. فهذا المكان اعتدت أن اقابل حازم ودنيا وجمال هناك.. نتحدث ونتسامر لساعات حتى وإن كانت لمنتصف الليل، لأعود إلى المنزل خلسة، خوفًا من أن يراني أحد وتلتصق بي وصمة العار، أنني فتاة منحلة تعيش بمفردها وتعود إلى منزلها في وقت متأخر.. أو يشعر يونس بخطواتي فيوبخني.. أعلم أنه يحبنا ولكنه بطبيعة الحال.. أحيانا ينصب نفسه ولي أمرنا..

«في إيه قلقتيني؟».

قالها حازم ويبدو على وجهه ملامح التوتر الشديد، لأجيبه بصوت عالٍ:

ـ هموت يا حازم.. من ساعة ما فريدة مشيت.. هموت.. هتجنن خلاص..

ليسأل حازم ذلك السؤال الذي أهرب أنا من إجابته لكيلا تسمعه أذني ويصدقه عقلي:

ـ متكلمتش خالص؟

أومأت برأسي ب «لا» وأنا أبكي قائلة:

ـ ولا مرة.. محولتش حتى تبعت ماسدج، الواتس آب مقفول، آخر حاجة بعتتهالي قالتلي أنا على باب البيت آهه.. هكلمك قبل مانام. ومعبرتنيش من ساعتها..

شرد حازم للحظة ثم بدا عليه القلق وقال:

ـ طب ما يمكن موبايلها باظ.. أو أبوكي اتخانق وكسره ولا حاجة..

قاطعته لأقول بحدة:

ـ هتتصرف، كانت هتعرف تتصرف.

اقتربت منه ونظرت له مباشرة وأنا أبكي ثم قلت بصوت محتقن:

ـ أنا حاسة إنها مصدقت خلصت مني..

هو أنا غلطت في إيه طيب.. هُنت عليها عادي كدة؟

ربت حازم على كتفي وقال محاولًا تهدئتي:

ـ إهدي بس وإن شاء الله خير.. أنا واثق إنه مش كدة وإن أكيد في حاجة تانية..

قاطعنا صوت هاتفي، أخرجته بسرعة فتلك فريدة مؤكدًا.. لأجد زهرة تتصل بي.. تخبرني أن أحمد اقترب على الوصول، فاليوم هو ميعاد فسخ الخطوبة رسميًا.. وكنت قد اتفقت معه أن ينتهي من هذا الأمر مع زهرة.. أجبتها سريعًا حتى أنهي المكالمة وأعود مجددًا للحديث مع حازم..

الذي هاتفه أصدر صوت وصول رسالة أخرى.. كنت قد قرأتها ليس تطفلًا مني ولكني كنت شاردة إلى أن استوقفني محتواها:

«إنت معاهم برضه يا حازم؟ مش كنا هنخرج؟ حازم أنا مش قادرة أكمل بالمنظر ده».

لاحظت تغير ملامحه ما إن قرأ الرسالة فأبعدت نظري عن هاتفه لأرفع إحراجي من التطفل عني.. وإحراجه من التبرير عنه..

لمحت جمال ودنيا مقبلين علينا.. ولم يلفت نظري سوى شيء واحد فقط.. نظراتهم سويًا التي تعلن بداية إعجاب بينهم.. فأنا أحفظ تفاصيل كل منهما عن ظهر قلب.. دنيا تبدأ في الاهتمام بالشخص والتقاط أطراف الحديث معه وتعدل خصلات شعرها كل خمس دقائق.. أما عن جمال.. فهو يبدأ بالحديث عن إنجازاته المستمرة في العمل.. ثم يبدأ في إلقاء النكات بكاريزمته الجبارة ليجعلها تضحك، فتقع في غرامه..

«هو وصل؟».

قالها بحازم بترقب.. لأقول وأنا ألملم حاجياتي استعدادًا للرحيل:

ـ لأ.. لسة.. كويس عشان ألحق أوصل قبله.

ثم نهضت حتى أوقفتني يد حازم وهي تجذبني:

ـ إستني هنا.. توصلي فين؟ إنتي مش هتحضري القعدة دي أصلًا..

أبعدت يديه عني قائلة بنفاد صبر:

ـ عارفة... أنا بس عايزة أكون في المكان.

ليرد بغير اقتناع وبصوت صارم:

ـ بس ده مش صح.. ومش وقته.. إنتي فيكي اللي مكفيكي رايحة توجعي نفسك تاني ليه؟

ابتسمت له ثم قلت:

ـ متخفش عليا.. هابقى كويسة.. أنا بس عايزة أكون موجودة..

اقتربت دنيا مني لتقول:

ـ إيه يابنتي رايحة فين؟ دحنا لسة واصلين..

لأقول لها وأنا اقترب عليها لأعانقها:

ـ حازم هيحكيلكم.. لو خلصت بدري هرجع عليكم.. ياللا باي..

ثم التفت لحازم واقتربت منه وقلت هامسة:

ـ محتاجين نتكلم.. فيه حاجة واخدة بالي ومش حابة يحصل مشاكل بسببها.

ودعتهم سريعًا ثم ذهبت إلى منزل زهرة... تفقدت الجراج فلم أجد سيارته.. فاطمأن قلبي أنني وصلت قبله.. فلا يصح أن أطرق الباب وأدخل وهو جالس.. سيتوجب عليه أن أصافحه وأنا لن أقدر على الوقوف أمامه..

«يابنتي لما انتي قاهرة نفسك عياط كدة... نصالحكم على بعض؟».

قالتها زهرة وهي تعانقني بشدة على فراشها.. لأقول وأنا أبكي بحرقة:

ـ مبقاش نافع خلاص..

لا يعلم أحد أنني أبكي حالي.. أبكي ذلك العشم اللئيم فيه.. أبكي درع الأمان الذي سيودعني الليلة..

وأبكي مرارة فراق كل تفصيلة صغيرة في بيتي معه.. قد حلمنا بها سويًا..

فأنا اليوم أضرب أول لحظة في حياه العزوبية.. بعد أن كنت اتأقلم على لقبي بـ«المدام»..

«طب أنا هتكلم معاه».

قالتها زهرة لأنتفض بين ذراعيها وأنظر لها مباشرة وأقول محذرة:

ـ لأ... متقوليش حاجة.. إحنا قررنا خلاص والموضوع انتهى..

ثم انهرت باكية حتى انتفخت عيناي.. واحمر وجهي وضاقت أنفاسي..

رن جرس الباب. لأسمع صوته.. ذهبت مسرعة لأختبئ في غرفة المعيشة الملاصقة للصالة.. لأسترق السمع..

أريد فقط أن أسمع صوته للمرة الأخيرة... وما إن سمعته حتى اجتاحتني حالة من النحيب الصامت إلى حد أنني أمسكت الوسادة وكتمت بها أنفاسي..

أخاف أن تفلت مني شهقة فيسمعها..

«طب بص يا أحمد ما بيني وبينك كدة.. إنت الموضوع خلاص بجد؟ لو حابب نصالحكم على بعض أنا هعمل كدة يا حبيبي»..

لم تتمالك زهرة أعصابها وقررت أن تسأله.. لم تستطع كتمان الشيء الوحيد الذي حذرتها منه.. ولكن عند سماع إجابته.. شكرتها بداخلي.. «لا خلاص كدة». حسنًا هو لا يريد.. على الأقل لن أشعر بالذنب.. فهو أيضًا لا يريدني.. ولم يسامحني.. ولم يكن في حسباني أنني سأبكيه كل هذا.. اعتقدت أن الأمور ستكون طبيعية وسأحزن قليلًا.. ولكن حقًا ما يقال إنك لن تشعر بمرارة الموقف إلا أن يحدث.

ظللت أبكي بحرقة طوال جلستهم.. وأنا أشاهد لمعة دبلتي أمامي في علبتها..

ذهبت لألتقطها وألبسها للمرة الأخيرة.. فلا يعلم أحد مقدار حبي الشديد لتلك القطعة الصغيرة من المعدن..

فاليوم الذي لبستها فيه.. كانت تلمع وبشدة.. ظللت طوال اليوم أتحسسها غير مصدقة إنها في إصبعي حقًا، منقوشًا عليها اسمه.. وظللت ألوح بها في الأفق غير مدركة أنني لطالما

سخرت من تلك البنات.. ولا أعلم إلا حينها أنها حركة لا إرادية تنم على الفرحة الشديدة.. وليس التفاخر كما ظننت..

فتحت كاميرا هاتفي.. التقطت صورة لأصبعي بها..

لأحتفظ بها إلى الأبد..

قبل أن تضيع مني الآن..

«ماشي يابني.. شوف إنت عايز إيه وقُلنا».

قالتها زهرة لأحمد وهي تقصد تلك الأمور المادية والشبكة.. أعلم أنني ألححت عليها أن تقول له كل شيء ظنًّا مني أنه سيعترض على شيء.. فأتدخل أنا وأتحدث معه.. لربما نتعانق مجددًا.. ولكنه وافق على كل شيء دون اعتراض واحد..

لا أعلم أشهامة منه.. أم هو على عجالة أن ينتهي من أمري؟

«طيب أستأذنكم أنا».

قالها وهو يستعد للرحيل، تلك هي اللحظة الوحيدة التي سأختلس بها نظرة إليه وهو واقف باب المنزل.. سأنظر له ولا أكترث إن رآني.. أريد أن أتمعن في عينيه.. لأفهم في يجول في باله.. فعيناه مرآة له.. أريد أن أعلم إذا كنت سأرى قسوة ونظرة لوم.. أم نظرة سأشتاق لكِ..

هممت بالاقتراب من باب غرفة المعيشة..

«مع السلامة يا أحمد».

أخرجت رأسي فقط في تأنٍ لكي ألمحه.. وما إن اتضحت الرؤية..

كان قد ذهب..

وذهبت معه دبلتي..

وآخر فرصة..

لكي أراه..

* * *

«تمام شعرك كدة ولا حابة ترفعيه شويه كمان؟».

قالها مصفف الشعر لي، لم أنتبه له فقد كنت شاردة في هاتفي، أتصل بأمي مرارًا ولكن دون جدوى.. «يا آنسة حضرتك معايا؟» رنت الجملة فانتبهت له.. نظرت لانعكاسه في المرآة أمامي أولًا.. ثم لي.. «لا حلو أوي كدة..» قمت لأدفع حسابي وانطلقت مسرعة نحو سيارتي.. وأنا أتصل.. ولكن ليس من مجيب..

فتحت باب سيارتي.. ألقيت الحقيبة ثم وقفت بجانبها أشاهد هاتفي وهو يرن.. أنظر له في مرارة.. أتوسل أن يصدر أي صوت غير ذلك الجرس اللعين الذي ينبهني بأنه لم يجبني أحد..

أسندت ظهري على العربة.. أشعلت سيجارة في عصبية.. نظرت للأعلى وزفرت نفسًا طويلًا.. أحتاج أن أهدأ.. فاليوم من المفترض أن يكون مميزًا..

رن هاتفي فانتفضت لأجد زهرة تتصل بي، فأجبتها مسرعة:

- أيوة يا زهرة.... لأ مش بترد عليا.. والناس مستنيين.. لو حصل حاجة هكلمك..

لفت انتباهي صوت جرس آخر ينبهني بوجود مكالمة أخرى في انتظاري..

«طب زهرة، أحمد بيتصل.. هكلملك تاني».

أغلقت الهاتف دون أن أسمع حتى إجابتها، فما إن رأيت رقمه على الشاشة.. حتى تملكتني حالة من التوتر.. أجبته بصوت مهزوز وأنا أحاول أن أظهر أنني في قمة السعادة:

ـ أيوة يا حبيبي.. أنا خلصت كوافير أهه.. هقابل ماما ونيجي.. إنت وصلت؟ طيب طيب حاضر، مسافة السكة..

أغلقت الهاتف وظللت واقفة لا أعلم ماذا أفعل، جن جنوني عندما اتصلت بها مجددًا ولم ترد عليّ..

وضعت هاتفي على سقف السيارة وفتحته على مكبر الصوت لأتابع صوت الجرس وأنا أهندم ملابسي.. ليرتفع صوتها فجأة..

ـ عايزة إيه؟

قالتها بصوت غير مكترث، فانتفضت حتى ارتطمت يدي في السيارة وأنا ألتقط الهاتف.. لأقول في ذعر:

ـ الناس وصلوا.. وبكلمك كتير مش بتردي..

لأسمع أغرب رد قد سمعته أذني:

ـ أنا مش جاية.. عشان تتعلمي بعد كدة تتكلمي مع أمك إزاي..

وقفت مذهولة أنظر إلى المارة.. شعرت بحجر ثقيل على صدري يمنعني من الصراخ، بوادر البكاء قد ظهرت، فخرج صوتي متحشرجًا لأقول:

ـ يعني إيه مش هتيجي؟ أنا إزاي عروسة رايحة تشتري دبلتها من غير أمها؟

لم أسمع يومًا قط بأن ذهبت فتاه لشراء دبلة خطبتها بمفردها.. حتى وإن كانت يتيمة، دومًا تذهب مع أناس بمثابة أهلها..

فنحن لا نريد الصحبة من أجل المشورة فيما يصح شراؤه.. بل الصحبة في السعادة، الصحبة في دقيقة الاختيار، مشاركة لحظات الفرحة مع من تحب، تقبل عليه دومًا لتقول أخبارك الجديدة لينصت لك ويفرح.. فتسعد أكثر..

فالوحدة مرض يقتل حماسك.. ويصيبك بالفتور...!

ـ إبقي خدي مرات أبوكي معاكي بقي.. مش إنتي موافقاه على جوازته؟ أنا مش جاية..

قالت تلك الجملة لأهوي على الرصيف.. أبكي.. لأقول بصوت متهدج:

ـ طب ممكن عشان خاطري ملناش دعوة بالقصة دي وتيجي معايا؟ أنا مش هعرف أروح لوحدي.. هقولهم إيه؟

انكمش جسدي كله، رأيتني من فوق كطفلة صغيرة تائهة عن أبويها فقررت الجلوس على حافة الرصيف تبكي حالها منتظرة تدخل القدر لترفع رأسها وتجد ذراعي أمها تشدها إليها.. ولكن بداخلها صوت يقول.. ستبقين وحدك إلى الأبد.

«قلتلك مش جاية.. روحي إنتي بقى لوحدك وشوفي منظرك قدام أهله هيبقى عامل إزاي»..

شعرت بالدم يجري في عروقي معلنًا انتفاضة قادمة.. وجهي يحمر وقلبي يخفق سريعًا.. أصوات نفسي تعلو.. وقفت فجأة حتى أختل توازني.. فبعد مرور ثلاث سنوات على طلاق أبي وأمي.. وقرار العيش مع أبي.. ومرور سنوات من الأكل السريع.. يصبح جسدك هزيلًا.. وكأن طعام الأمهات به شيء سحري يجعلك أكثر قوة...!

تنهدت ثم قلت بصوت محتقن:

ـ أنا عايزة أفهم إنتي بتعاقبيني أنا على إيه؟ على إنه إتجوز؟ أنا مااااالي؟ أنا عايزة أفهم أنا مالي؟

ظللت أصرخ بأعلى صوت ولم أكترث لنظرات المارة في الشارع..

أصرخ وأبكي..»بتعملي معايا كدة ليه؟» أدبدب على الأرض.. «مش عايزاني أفرح بجوازتي ليه؟».. أحني جسدي وكأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة.. «حرام والله...!».

ـ إنتي إزاي بتتكلمي معايا كدة؟ إنتي نسيتي إن أنا أمك ولا إيه؟

غوري.. أنا مش جاية في حتة..

أغلقت الخط في وجهي.. ظللت أحدق في الهاتف غير مصدقة.. بالتحديد في صورتي أنا وأحمد التي تحتل الصفحة الأمامية.. دموعي تنهمر وأنا أشعر بأن حلمي يختفي شيئًا فشيئًا.. لن أكون ملكه.. ولن يكون لي..

فالزواج قد انتهى قبل أن يبدأ..

فتحت باب سيارتي وجلست نصف جلسة أحاول أن ألتقط أنفاسي.. فقد ثرت إلي حد الهياج والصراخ الهيستيري..

أشعلت سيجارة أخرى.. وأنا أتصل بأحمد.. إلى أن توقفت قبل أن أضغط على زر الاتصال..

عاصفة تجتاح عقلي..

مشتتة ما بين إلغاء الأمر برمته، أم أصارحه بكل شيء وأذهب وحدي.. ولكني لن أستطيع.. لن أقدر على مواجهة عائلته بمفردي، لن أقو على مشاهدتهم جميعًا حوله.. وأنا بلا حول وبلا رفيق..

رن هاتفي في يدي لأجده يتصل بي.. فزعت للوهلة الأولى.. ولكني قررت أن أرد وأترك الأمر يحدث بتلقائية.. ليقول لي بتعجب:

- إنتي فين يا بنتي؟ مامتك لسة قافلة معايا وقالتلي إنها في الطريق خلاص..

للحظة ظننت أن المكالمة خاطئة.. نظرت إلى الهاتف لأتأكد ثم وضعته مجددًا على أذني.. فقلت بصوت مهزوز:

- آه.. إزاي؟ طيب جاية آهه..

ليرد علي بصوت هادئ:

- متخافيش.. حكتلي على كل حاجة وانا اتكلمت معاها وخليتها تهدى.. يالا عشان إحنا فعليًا قاعدين على الرصيف..

تحولت دموعي من دموع يأس لدموع فرح.. في نفس اللحظة...!

أدرت محرك سيارتي وأسرعت لهم وأنا أقهقه وحدي في السيارة.. أتفقد الساعة كل خمس دقائق على أمل أن تمر بسرعة لكي أكون متواجدة هناك.. وما إن وصلت، نظرت في المرآة لأمحي آثار البكاء.. لمحت أحمد واقفًا بجوار عائلته وبجانبه أمي.. تنظر لي شذرًا.. ولكني لم أكترث.. فهي الآن معي، بجواري.. لست وحدي...!

دخلنا المتجر سويًا بعد إلقاء السلام الحار.. وكأنني قد نسيت تمامًا ما حدث عندما وضع الرجل أمامي مجموعة من الخواتم..

نظرت إلى أحمد وجسدي مال ناحيته قليلًا ثم همست:

- هو احنا بنعمل كدة بجد؟

نظرت له وأنا أضحك على الرغم من الدموع في عيني.. ليقول:

ـ آه بجد.. يا عروسة.. ياللا اختاري دبلتك..

* * *

«مش عارفة لو مكونتيش جيتي انهاردة كنت هنام إزاي»..

قلتها لدنيا.. قد اتصلت بي لتطمئن عليّ فوجدتني جالسة وحدي على السطح وصوت بكائي جعل الكلام يخرج من فمي غير مفهوم.. فجائت مسرعة لمنزلي..

ـ يابنتي إنتي هبلة، أكيد مش هسيبك كدة.. المهم، عملتي إيه؟

سردت لدنيا تفاصيل اليوم، راقبت نفسي وأنا أتحدث.. شعرت بأنني أقص عليها إحدي الحكايات التي اعتدنا على قولها خلال مكالمتنا اليومية الطويلة.. لم أدرك أنني اليوم، بطلة تلك القصة المشؤومة.. حتى ظل هاتفي يرن مرارًا وتكرارًا..

«هو موبايلك ماله؟ مين اللي بيزن ده»..

قالتها دنيا وعلى وجهها علامات التعجب، لألتقط هاتفي دون اهتمام أنظر إليه ثم ألقيه مجددًا وأقول بصوت متحشرج:

ـ لسة منزلة عندي إننا سيبنا بعض، انفجار رسايل بقى.. كله عايز يعرف إيه حصل..

نظرت لي دنيا نظرة لو تجمعت كل معاني الشفقة على الأرض، لكانت بها وقالت:

ـ إقفلي النت اليومين دول.. مش هتستحملي كلام الناس..

هممت بشرب كوب الماء الملقى بجانبي، فالبيت لا يوجد به سوى ماء وبضعة بارات من الشوكولاتة منتهية الصلاحية.. وبواقي طعام معلب لساشا.. لم أستطع الذهاب للتبضع،

كيف وفريدة ليست معي..

أشعر انني فقدت الرغبة على العيش مجددًا.. أردت أن أظل مكاني لا أتحرك، فكل شيء أصبح فعله ثقيلًا على قلبي.. أريد أن أبقى مكاني حتى الممات.. ولن أكترث..!

تنهدت ثم قلت لها:

ـ عادي، مش فارقة..

صمتت دنيا للحظة شعرت أنها تريد أن تقول شيئًا لكنها متحرجة فقلت لها :

ـ عايزة تقولي إيه؟

أخذت نفسًا عميقًا وقالت بصوت متردد:

ـ فريدة كلمتك؟

نظرت الناحية الأخرى وتنهدت قبل أن أقول:

ـ لأ..

ساد الصمت لبضع لحظات، أكره ذلك الطنين الذي يحتل مسامعي عندما لا يكون كل شيء ساكنًا حولي.. أحب الضجيج حولي، ليغطي على ضجيج أفكاري.. وعلى أوجاعي جميعها..

قررت كسره، فهممت بالنهوض قائلة:

ـ أنا أسفة البيت مفيهوش حاجة تتاكل..

تنحنحت دنيا في جلستها وجذبتني لأجلس قائلة بصوت هادئ:

ـ إنتي هبلة؟ أسفة على إيه؟ أنا هطلب حاجة ناكلها سوا.. أجيبلك بيتزا؟

أومأت برأسي بلا.. ثم قلت:

ـ مليش نفس.. كلي إنتي، أنا هقوم أشوف ساشا بتعمل إيه.. بتتجنن طول ما حد في البيت وانا أطلعها برة على السطح.. اللي هو ده بيتي أنا إزاي تطرديني..

مازحتها ثم ذهبت لساشا في الخارج.. انحيت عليها لأخذ القليل من الحنان عندما تقرب فمها من يدي، أشعر أن العالم ما زال بخير..

وقفت أشاهد المباني من حولي.. مبانٍ هادئة ساكنة يسود عليها الظلام.. تمامًا كروحي..

استنشقت هواء قد أثلج صدري قليلًا.. ثم أشعلت سيجارة كانت الأخيرة في العلبة.. وما إن انتهيت منها، نظرت إليها.. مودعة إياها..

قبلتها ثم ألقيتها بعيد.. لتهوي من فوق السطح وتسقط وحيدة..

راقبتها، فحالها كحالي.. يقترب مني الأشخاص، يملكونني ويسلبون مني كل شيء.. يلهثون ورائي لإخماد غرائز بداخلهم، حب أم صداقة أم منفعة.. اشتعل من أجلهم.. وما إن يكتفوا.. أصبح عديمة الفائدة فألقى بعيدًا.. ليتم استبدالي بواحدة أخرى..!

ـ إنتي طلبتي أكل ليا وليكي.. إنتي خسيتي ولازم تاكلي بدل ما تقعي من طولك..

قالتها دنيا وهي تقترب مني.. أمسكت كرسيًا كنت قد تركته مسبقًا.. لتجلس بجواري.. ثم قالت بصوت جاد:

ـ نالا.. إحنا أكتر من صحاب.. صح؟ قوليلي في إيه ناقصك؟ معاكي فلوس؟

فلتت مني ضحكة ثم قلت بسخرية:

ـ اتنيلي يا دنيا.. ماحنا عارفين اللي فيها..

تبدلت ملامح وجهها وقالت بصوت أكثر جدية:

ـ أنا مش بهزر.. إنتي عارفة إننا كلنا معاكي وفي ضهرك صح؟ قوليلي الدنيا عندك إيه؟

التفت لها قائلة:

ـ متخافيش.. أنا دلوقتي معايا ألف ونص.. والمفروض الشغل ده لو خلص واتقبلت.. هاخد مبلغ حلو منه..

نظرت لي دنيا باهتمام أكثر ثم قالت:

ـ طب ما ده حلو يا نالا، أنا شايفة إن دي فرصة حلوة متضيعهاش وممكن يكلموكي في شغل تاني كمان..

أومأت برأسي.. «آه عارفة».. نظرت الناحية الأخرى..»إدعيلي بس أعرف أخلصه.. مش عارفة أشتغل يا دنيا في وسط القرف ده كله».. قلتها وأنا أحاول أن أكبت البكاء.. «لأ والمفروض أكتب عن العيلة... عيلة إيه والنبي اللي اكتب عنها دي..».

اقتربت مني دنيا ثم نظرت إلي مباشرة لتقول بصوت حازم:

ـ هتعمليه وهتنجي.. أنا واثقة والله..

ثم عانقتني.. وقالت وهي تعود إلى البيت:

ـ أنا هدخل أحضر طبقين كدة عشان لما الأكل يجي..

التفتت ثم ذهبت إلى الداخل لتتركني أقف وحيدة علي السطح.. أشاهد آلاف من التعليقات المحملة بسؤال واحد فقط.. «سيبتوا بعض ليه؟»... بعضهم فضولي إلى حد

الوقاحة..»ده عشان العين والحسد بس انتوا مع بعض وهتتجوزوا.. وبعضهم سيئ.. للغاية.. «أحسن تستاهلي».. لا أدري لماذا يصبح الإنسان بتلك القسوة..!

لمحت تلك الرسالة.. «تلاقي أختك اللي شجعتك على الهبل ده».

وقفت عندها وشعرت بغليان في رأسي.. كنت محتارة ما بين الرد عليها أمام الناس جميعًا بأبشع الألفاظ، وسأخسر حبهم واحترامهم لي.. أم أكتفي بمنعها من الدخول إلى صفحتي مجددًا..

أخذت نفسًا عميقًا.. سقطت دمعة على خدي وأنا أتذكر كل شيء..

رحيله..

رحيلها..

رحيل كل شيء..

فتحت الهاتف، أسرع إصبعي بالضغط علي زر الاتصال بالرقم المسجل باسم «فريدة».

لأسمع صوت رنينه في أذني..

ولكن بلا إجابة...

* * *

الفصل الثاني عشر

You have arrived

هاتفي نطق بتلك الجملة مشيرًا أنني قد وصلت المكان المنشود، توقفت سيارتي لأترقب المكان.. كافيه هادئ في التجمع الخامس يتوسط مجموعة من الكافيهات التي قد توقف الزبائن عن الارتياد عليها.. منطقة فارغة تمامًا ذات ضوء خافت ونادرًا ما تلمح شخصًا يمر.. فالمكان يوحي الآن بالسبب وراء اختياره.. ألا يرانا أحد..

«معلش اتأخرت عليكي».

قلتها لسمر.. صديقة حازم الحميمة، شابة في أواخر عقدها العشريني، طويلة المقام.. نحيلة قليلًا.. شعر أسود أشعث وعيون تسفر عن كره غريب أكاد أشعر به في نظراتها.. طاقتها كئيبة.. شعرت بها في مصافحتها ليدي، أو ربما لأنني أكره الحياة الآن..

رمقتني نظرة بجانب عينها ثم قالت:

ـ لأ عادي، مانا متعودة إن كل الناس بتتأخر عليا..

قالتها بنبرة تدل على الضيق.. توتري قد زاد، فأنا لا أدري لماذا هاتفتني قائلة إن اللقاء مهم.. تلك المكالمة جعلتني أشعر بأن شيئًا ليس على ما يرام سيحدث، تثاقلت حركتي ونهضت لكي أراها في المكان الذي اختارته..

نظرت لها نظرة غير فاهمة، وادعيت أنني لم أهتم، فقلت بصوت مهزوز وعلى وجهي ابتسامة متوترة:

ـ طيب خير.. قوليلي، أوعي يكون حازم مزعلك؟... دانا موصياه عليكي قد كدة..

صمتت للحظة وهي تنظر لي نظرة ثاقبة، ارتشفت من فنجان القهوة وعيناها ما زالت معلقة عليّ.. وأنا أحاول جاهدة أن أحافظ على ابتسامتي ثم قالت بصوت صارم:

ـ وإنتي مين عشان توصيه؟

تبدلت ملامح وجهي سريعًا.. حسنًا، الآن أدركت سبب المقابلة المفاجأة.. لم تنتظر مني إجابة بل بدا عليها أن لديها حديثًا مكتملًا في عقلها ستقوله مرة واحدة ثم تذهب دون الاستماع لي في الأساس..

أخذت نفسًا عميقًا ثم نظرت لي مباشرة لتقول بصوت جاد:

ـ بصي يا نالا.. إحنا ستات زي بعض وانا عارفة إنك هتفهميني كويس..

أومأت برأسي.. فأكملت حديثها قائلة:

ـ أنا بقالي فترة بقول لحازم إن فيه حاجات كتير أنا مش موافقة عليها وهو مصمم برضه، وكل مرة بقفش واقلب الدنيا وهو لا هنا.. فقلت أكلمك إنتي بقى عشان اخلص..

شعرت بالدم يسري في عروقي بسرعة حتى ضرب أعلي رأسي، وشعرت بوخز تحت إبطي، تلك العادة السخيفة التي تحدث كلما توترت..

اقتربت مني ثم قالت باستنكار:

ـ مفيش حاجة اسمها صحوبية بين واحد وواحدة.. وخاصة لو هو مرتبط.. إنتي ترضي إن خطيبك يكون ليه صاحبة لازقاله أربعة وعشرين ساعة؟

ابتعلت ريقي بصعوبة، أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

ـ أنا مش لازقة لحد يا سمر.. واللي بينا مش صحوبية، حازم واحد من أهلي واكتر.. وهو أكيد قايلك أنا وفريدة عنده إيه من قبل ما يبقي فيه ما بينكم حاجة.. بعدين معلش.. أنا اللي اعرفه إنكم كنتوا صحاب، جاية دلوقتي تقولي مفيش حاجة اسمها صحاب؟

ضحكت ضحكة سخرية ثم قالت بتهكم:

ـ دي حجة عشان بنحب بعض.. إيه... إنتي تحبيه ولا إيه؟

رفعت حاجبي وقلت بصوت عالٍ:

ـ نعم؟

قاطعتني قائلة بحدة:

ـ بصي، أنا مش عاجبني جو السهوكة والمحن والغلب اللي انتي عايشة فيه وإن يا حرام حياتك جحيم.. وإن هو المنقذ اللي بيساعدك في كل حاجة.. كفاية محن يا نالا وابعدي عنه..

نظرت لها ولم أستطع أن أتفوه بكلمة، شعرت وكأن الحديث بأكمله قد تجمع عند طرف لساني وأبى أن ينطلق، لتنتهز تلك الفرصة قائلة:

ـ حازم مش من بقيت أهلك.. سيبيه في حاله شوية، متبقيش مقطوعة من شجرة وتيجي ترمي بلاكي ع الناس وتعمليلهم مشاكل..

رجلي تهتز بشدة، أمسك هاتفي في يدي أكاد أكسره، وجبهتي تتصب عرقًا.. عقلي مشتت ما بين ألف كلمة تقال، وفعل واحد قد ينهي كل شيء..

صمتت قليلا ثم قالت:

ـ أنا مش بهددك.. أنا بس حبيت أقولك إبعدي عن حياتنا..

همت بالرحيل، التقطت حقيبتها ووقفت، ثم استدارت مجددًا لتقول محذرة:

ـ الكلام اللي حصل ده هايفضل ما بينا، أنا عارفة إنه صعب عليكي.. مانتي بتجري تحكيله دخلتي الحمام ولا لسة..

ثم انصرفت..

ظللت جالسة مكاني أتذكر.. كل مرة استمعت فيها لقصة صديقة لي اتهمت جميع الرجال بأنهم أحقر البشر.. وكل صديق لي وصف الإناث بأبغض الصفات..

كل مِنَّا يرى أن الجنس الآخر دومًا ما يكون قذرًا.. يلقي أخطاءه عليه.. فالرجال لن يفهموا النساء ولو جالوا سعيًا في الأرض وأن النساء دومًا يلهثون وراء المادة ومن يدفع أكثر..

غير مدركين تلك الحقيقة البشعة، أن مجتمع الإناث ممتلئ بالأمراض الدفينة، تظهر فقط عند ظهور..

الجنس الذكوري بينهم.

نهضت وأسرعت بالتوجه إلى سيارتي.. انطلقت مسرعة وكل ما يجول بخاطري شيء واحد فقط.. لن أقدر علي فراق حازم، فقد اخترته فردًا من عائلتي بعد أن اهتز عالمي وانهار.. ولن أقدر علي عدم البوح بما حدث، فلقد برمنا اتفاقًا أن تكون الصراحة عنوان صداقتنا حتى وإن كلفنا الأمر خسارة أي شيء..

لطالما طاردتني دومًا فكرة أنني منبوذة، كل من يقترب مني حياته تنهار.. آمنت بتلك الفكرة اللعينة، إن لعنة الفراق قد كتبت علي.. وأنني سأظل وحيدة مهما قد اقترب مني أشخاص، حتمًا سيأتي ذلك اليوم الذي يلوحون لي وهم يغادرون حياتي بكل سهولة..

إحساسي بالذنب أخذ بالتوغل بداخلي سنة بعد سنة حتى تملك مني.. غريب هو القدر، أمضي في طريقي.. أحاول أن أجد من يفهمني ومن يكون لي خير جليس، لأصدم بحقيقة أنني كنت مجرد محطة في حياته.. يجب أن يتخطاها..

سأمضي في حياتي دون حازم.. سأختفي تمامًا.. فلن أقدر على تحمل إحساسي بالذنب أنني كنت السبب ولو في شجار بسيط بينهم..

حتى وإن كنت أشعر بحالة من الغضب والهياج من اختياري..

فأنا لم أختر أهلي.. ولكنني اخترتهم.. اخترت حازم ودنيا.. ولن أستطيع تحمل فكرة أن يخذلني شخص فيهم..

بعد ان جعلته مصدرا للامان..

سأمضي وحدي..

تمامًا مثلما أفعل الآن، فأنا أقف وحدي في الإشارة المرورية ذات الضوء الأخضر وجميع من حولي يتذمرون من شرودي وتعطيلي للطريق.. وما إن هممت بالتحرك.. حتى اصطدمت بي عربة خلفي كانت تتعجل تحركي..

ظلت نظرتي ثابتة للأمام.. حائرة ما بين النزول لتقفد السيارة وبين عدم الاكتراث.. فلن أقو على مواجهة فكرة أن اقوم بتصليح شيء أنا لا أملك ثمنه..

ولا أعلم ما الذي يجب علي إصلاحه..

فكل شيء قد انهار..

ترجلت لأرى شابًا في منتصف عقده الثالث من عمره يقف ناظرًا لشنطة السيارة «حصل خير.. جت سليمة».. قد تبدو جملته مطمئنة أن السيارتين بأحسن حال.. ولكني شعرت بأنه

يراوغ من حقيقة أنه الملام في تلك الحادثة، فاحمر وجهي وقلت له وأنا أشير له.. «يعني إيه جت سليمة.... هو انت تخبطني وتقولي جت سليمة؟».. اقتربت منه وأنا اصرخ في وجهه بينما هو يقف صامتًا وعلى وجهه علامات التعجب.. «هو أنا اجي أموتك واقولك جت سليمة؟ آجي أفشخ حياتك واقولك جت سليمة؟ مفيش حاجة سليمة..»... نظرت إلى سيارتي وأنا أصرخ.. «هي عشان مش باين حاجة من برا يبقي شغالة خلاص وكويسة؟؟ ما يمكن مخبية علينا يا أخي...».. لم أشعر إلا وأنا أنزل بقبضة يدي على مقدمة سيارته، أضربها مرارًا.. «أنا عايزة أفهم ليه محدش حاسس؟ ليه كل حاجة بتبوظ؟».

نظرت إليه مجددًا لأراه يقف غير فاهم.. ثم قلت بأعلى صوت «ليه كل حاجة بتروح في داهية...».

رفعت رأسي للسماء ثم أخذت نفسًا عميقًا وصرخت.. «في إيه بقى، هو مفيش غيري على الكوكب ولا إيه؟» استندت على السيارة ودفنت وجهي وراء كف يدي وانهمرت بالبكاء..

وكأن تلك هي القشة التي قسمت ظهري إلى نصفين...!

* * *

يا نالا.. اتطلقوا خلاص.. أبوكي وأمك اتطلقوا..

* * *

لأ.. هتقعدوا مع أبوكوا.. أنا ضيعت عمري عليكوا كلكم ومحدش بيقدر..

* * *

آه عادي اتجوزت.. إنتوا مالكوا.. هي في بيت وانتوا في بيت..

* * *

أنا مش عايزك.. إنتي واحدة خاينة.

* * *

حازم مش من بقيت أهلك.. سيبيه في حاله شوية، متبقيش ترمي بلاكي عالناس.

* * *

مبقاش نافع خلاص..

* * *

شعرت بيد تربت على كتفي لأرفع نظري واجد والدة الرجل الذي اصطدمت بي بسيارته تقف أمامي وعلى وجهها علامات التعجب وقالت بصوت مهزوز:

ـ مكنش يقصد يا حبيبتي والله، أصل بنتي بتولد واحنا متأخرين عليها..

شعرت وكأن الجملة، كوب من الماء المثلج قد سكب على رأسي لأستعيد وعيي، نظرت حولي لأجد بعضًا من المارة يحدقون بي، بعضهم يمصمص شفاه قائلًا «دي باينها مجنونة».. وبعضهم يضرب كفًا على كف قائلًا «آدي آخرة سواقة الستات»..

هدأت قليلا وتوقفت عن البكاء، أحاول أن ألتقط أنفاسي.. «أنا أسفة». نظرت إلي الأرض وأنا أعتذر.. توجهت إلى سيارتي وأسرعت بالقيادة هاربة من نظرات الكل لي..

أضغط على دواسة البنزين وكأني أدعس جميع آلامي تحت قدمي، أقود بسرعة وكأنني أهرب من أعباء الحياة..

سيارتي تتسم بطراز مختلف عن باقي السيارات، فهي مرتفعة.. صغيرة الحجم، وغير متزنة على الإطلاق، تجبرني دومًا على القيادة بشكل حذر وأنا أكره القيود، أؤمن بأن القوانين قد صدرت ليتم اختراقها، حتى وإن كانت قوانين الفيزياء.. فأنا أعاملها كأنها إحدى سيارات

الطراز الرياضي المتمرسة في خوض مسابقات السرعة، غير مكترثة بتحذير الكل لي طالما أقود في خط مستقيم، ولكن إن أجبرني الطريق على أخذ منحدر.. أقود وكأنني أبلغ من العمر ما يكفي لكي لا أرى أمامي ببضعة خطوات..

فتلك اللحظة لم أكترث وضربت بقوانين الهواء مع السرعة عرض الحائط.. فليحدث ما يحدث..

سأنطلق بجنون..

لن يمنعني شيء..

حتى وإن انقلبت العربة رأسًا على عقب..

ظللت مسرعة حتى لمحت محطة وقود تقترب، فهدأت من سرعتي قليلًا لأتوقف وأجلب مشروبًا، فقد جف فمي من فرط البكاء، وما إن هممت بالدفع حتى، أدركت حقيقة أن النقود قد أوشكت على الانتهاء.. ف عليّ فاتورة الهاتف، ونحن بصدد أول أيام الشهر القادم التي تصحبها موعد الإيجار الجديد.. ولا أملك ربع ثمنه..

لا يوجد أي عمل على الإطلاق، ولا أي دفعة مادية متأخرة.. وكل من راسلني لأي حملة دعائية قد اختفى بعد أن بثَّ الأمل فيّ..

بدلت مشروبي بزجاجة مياه.. وانصرفت..!

رفعت صوت الأغاني لأعلى درجة غير مبالية بصوت السماعات القديمة المهترأة، أعلم أنني يجب أن أغيرها أو أصلحها على الأقل، ولكني تعودت علي كل حال..

فتحت النافذة وأخذت نفسًا عميقًا حتى ضرب الهواء شعري فتطاير..

لم أشعر بصوت هاتفي يرن بين رجلي، إلا عندما شعرت باهتزازه، لأرى رقم زهرة.. فأجبتها بصوت محتقن:

ـ أيوة يا زهرة..

جاء صوتها حنونًا دافئًا.. يعطيني الأمل ولو للحظة أن هناك من يهتم بي فقالت:

ـ أيوة يا نالا يا حبيبتي.. عاملة إيه؟ عندي ليكي أخبار حلوة..

تسارعت نبضات قلبي، لديها تلك العادة على جعلي متشوقة.. تلعب علي أوتار فضولي بشكل جيد.. فأكملت حديثها قائلة:

ـ أحمد بعت الفلوس خلاص بتاعت عفشك، مبلغ حلو يسندك حبة حلوين، عدي عليا خوديهم بقي..

ابتسمت وسط دموع قد بللت وجنتي، فالسماء قد لبت النداء.. وأرسلت بصيصًا من الأمل يجعلني أهدأ.. غريب أمر البشر فعندما تغلق في وجوههم جميع سبل النجاة، يتدخل القدر برسالة واضحة..

لا تستسلم يا صغيري..

فالحياة ما زالت مستمرة.. قلت لها دون تردد:

ـ هجيلك حالًا..

أغلقت الهاتف وأدرت عجلة القيادة لأشق طريقي إلى منزلها.. حتى لمحت رسالة من رقم غريب قد وصلت وأنا أتحدث معها..

وما إن رأيت محتواها.. حتى ضغطت على المكابح وأسمعت إطارات السيارة الأرجاء جميعها..

توقفت على جانب الطريق..

لأقرأ..

«نالا... أنا فريدة، ده موبايل صاحبتي، متتصليش بيا عشان مش حاكية حاجة لحد.. موبايلي مش معايا.. هكلمك كمان ساعة بالظبط، ردي عليا والنبي ساعتها، خاللي موبايلك معاكي..

وحشتيني..»

* * *

(مـا سيبقى)

الفصل الثالث عشر

الساعة الثانية عشرة ظهرًا الآن، توقفت بسيارتي أنا ودنيا على جانب الطريق.. أطفأت المحرك وأشعلت سيجارة وأنا أترقب الباب الخلفي للجامعة.. الكلية التي التحقت بها فريدة منفصلة عن باقي الحرم الجامعي، لها حرم خاص بها، قلعة يحميها سور ضخم ذو طراز عتيق.. وذلك المكان لطالما حلمت به فريدة أثناء دراستها بالمدرسة، رسمت لنفسها مستقبلًا داخل ذلك المبنى..

توقفت أمامه ومر شريط ذكرياتها في خيالي، كيف لها الصمود والتفوق في الامتحانات، حتى نالت درجة الالتحاق بتلك الكلية.. عل الرغم من كل ما تمر به.. أتذكر يوم النتيجة كنت أول من عرفها.. طبعتها وأنا أبكي في طرقات الشركة الخاصة بعملي، ثم ألصقتها على الحائط وراء جهاز الحاسوب على مكتبي بجوار شهادات تفوقي وبعض من ذكريات نجاحي.. ظللت أتمعن فيها طوال اليوم وأنا أبكي دموع الفرحة، فصغيرتي قد أعلنت تفوقها اليوم.. ليس في الدرجات وحسب، بل في إثبات حقيقة.. أنها قوية..

لمحت حارس البوابة يجلس على مقربة منها في تململ، ممسكًا هاتفه يشاهد مقاطع من الفيديوهات في سأم..

ـ هتنزلي دلوقتي؟

قالتها دنيا بصوت حذر لأقول «آه، إدعيلي بقى الموضوع ينفع».. زفرت نفسًا عميقًا، ألقيت السيجارة ثم ترجلت نحوه.. «سلاموا عليكوا».. قلتها وأنا أبتسم ابتسامة خجل.. يجب على الجانب الأنثوي أن يظهر الآن، لأستخدم أقوى أسلحته.. ليرفع رأسه في عدم اهتمام «وعليكوا..».. صمت للحظة لأفكر في مدخل مناسب أبدأ به حيلتي.. «سيجارة؟» مدت يدي بعلبة السجائر في محاولة مني من التودد إليه.. ليقول بعدم اكتراث.. «شكرًا يا آنسة، مبدخنش»، حسنًا.. سأدع خيالي يقود الحديث..

ـ هو مش ده باب الكلية؟ هو مقفول ليه.. إنتوا حابسين العيال جوة..

قلتها وأنا أستند على الباب وبعد أن ضحكت ضحكات متقطعة ساخرة، لينظر لي في حدة ويقول:

ـ ده باب الدخول وبس.. حضرتك تؤمري بحاجة؟

توترت قليلًا ثم قلت بصوت مهزوز:

ـ لا أبدًا.. دانا كنت واقفة مستنية حد شوفتك لوحدك كدة قلت أسلي وحدتك شوية يعني..

أومأ برأسه ثم أشاح بنظره مجددًا لينغمس في شاشة هاتفه.. بينما وقفت أنا أمامه صامتة لبضع لحظات أفكر.. فقلت بصوت مهزوز:

ـ بص أنا هكون صريحة معاك.. أنا أختي جوة وشوية وطالعة، فممكن تطلع من الباب ده..

التفت لي وقد هم بالرد على وملامحه تدل على النفي القاطع لأقاطعه قبل أن يتحدث:

ـ أصل هي متقدملها واحد مهووس، واقفلها على الباب التاني ومش راضي يسيبها في حالها وبيجري وراها في كل مكان، وهي مش عايزاه حضرتك والله.. وأهلنا كلهم برة مصر فمحدش عارف يوقفله..

لاحظت أن ملامحه بدأت تطمئن، نظر لي مباشرة في محاولة كشف كذبي ولكني كنت بالذكاء الكافي الذي جعلني أنظر له ولم أظهر توتري وأشيح بنظري عنه.. «فينفع تطلع من هنا؟» قلتها بتوسل وصوت منخفض.. «أكسب فينا ثواب.. مش عارفين نخلص منه...» وقفت أمامه صامتة في انتظار إجابته، فتنحنح قليلًا في جلسته كمن يفكر.. ثم قال:

ـ بس دي قوانين الجامعة يا آنسة وانا ممكن أتجازى فيها..

اقتربت منه وقلت بصوت ضعيف متوسلة إياه:

ـ بس دي حالة إنسانية، اعتبرها اختك الصغيرة. ومش هقولك بنتك عشان شكلك صغير في السن..

كانت لحظة انكساري هي آخر فرصة لدي، أعلم جيدًا أن حيلة «العمر» سلاح فتاك للتقرب من الشخص، إذا وددت التقرب من أنثى، قل لها إنها تبدو في العشرينيات من عمرها، وإذا أردت أن يستلطفك رجل تحدث معه أن بريق الشباب يلمع في عينيه..

استخدمت ذلك السلاح الذي جعله يلين ويوافق.. فأومأ برأسه بنعم.. ابتسمت ابتسامة واسعة وشكرته كثيرًا.. «هي قدامها ربعاية وهتكون هنا.. وشكرًا جدًا بجد..» قلتها وأنا أرجع خطوات إلى الوراء لأقف مستندة على سيارتي في انتظارها.. «تمام؟» قالتها دنيا وهي تلوح لي من داخل السيارة.. لأنظر لها من خلال النافذة وأقول غامزة.. «عيب عليكي.. تمام» ثم ضحكنا سويًا..

التفت مرة أخرى إلى البوابة ونظراتي ثابتة عليها.. أتحرق وأنا أنتظر مجيئها.. أرسم في خيالي سيناريوهات لتلك اللحظة.. سأقبل عليها سريعًا ثم أرتمي بين ذراعيها في عناق طويل ممزوجًا بالبكاء؟ ولكن سيكشفنا الحارس.. حسنًا.. سأتعامل ببرود وأكبت مشاعري حتى نرحل من هنا.. لكني أخاف أن تدرك فريدة أن تلك المقابلة هي حقيقة مشاعري..

هززت رأسي وكأني أنفضها من كل تلك الخيالات وقررت أن أدع اللحظة تحدث بتلقائية، حتى وإن كشفنا الحارس، سأجذبها لنركض نحو السيارة وننطلق سريعًا..

ظللت واقفة أسترجع أمامي كل ما مررنا به.. غير مصدقة..

ما يحدث..

الآن..

* * *

عندما أنتظر شيئًا، أراقب دومًا الساعة.. ألمحها كل خمس دقائق لأصدم بحقيقة أنه قد مر نصف دقيقة فقط..

دومًا ما ننسى أنفسنا وننسى الوقت عند الفرح تحت شعار أن أحلى الأوقات دومًا تمر سريعًا، وتمر علينا لحظات الترقب كأبد الآبدين.. متجاهلين حقيقة أن ما بين ذاك وتلك، لحظات الانتظار..

فالانتظار يقتل لذة كل شيء، يجعل الزمن أبطأ.. وكأن العالم قد توقف عن الدوران..

باقي ساعة كاملة على ميعاد المكالمة المنتظرة، مكالمة فريدة لي.. سأحاول أن أشتت نفسي لكي لا أسأم من النظر في الساعة راجية العقارب أن تهرول بداخلها لكي يمر الوقت واطمئن عليها ويهدأ قلبي.. زحام من الأسئلة قد اصطفت في خيالي وأشعلت نيران القلق التي لن يطفئها سوى تلك المكالمة..

سأذهب إلى زهرة لكي آخذ النقود..

فلولا ضائقتي، لما سررت بهم..

أتذكر جيدًا أين ذهبا في الأساس، أتذكر ذلك اليوم الذي ذهبت فيه أنا وأحمد إلى متجر تجاري كبير قد عرفته من صديقة لي عندما أخبرتها بأنني أبحث عن الأماكن التي يرتداد عليها المقبلين علي الزواج، فلقد كان ينقصني كل شيء ولم يكن والدي يوفر لي كل ما أحتاجه من مبالغ مالية اعتقادًا منه أن خمسة آلاف جنيهًا كافية لفرش مطبخ كامل! غير قناعتي الشخصية بأن البهرجة والبزخ في أمور مدة صلاحيتها ليست دائمة.. شيء تافه فارتضيت بالأشياء التي تؤدي غرضها بكفاءة عالية وفي نفس الوقت مقبولة.. فقررت الذهاب لذلك المول لعدة أيام متتالية وتبضعت كل ما أحتاجه.. شعرت أن تعبي في العمل

أحصد نتيجته الآن.. فقد ادخرت بعضًا من الأموال من مرتبي وها أنا أشتري حاجيات بيت الزوجية مع عمر.. بيتي الدائم من مالي الخاص.. تعبي لم يهدر!

أتذكر يومها مدى سعادتي وأنا أطير وسط الطرقات، أختار هذه وتلك.. أرسم في بالي رسمة مبدئية لشكل الغرفة النوم فنقوم بشراء الفراش سويًا.. أتخيل نفسي في مطبخي فأشتري ما سأستخدمه.. أختار الألوان بعناية وأقارن في الأسعار.. أفتح ورقة قد كتبتها خصيصًا لهذا اليوم كي لا أنسى.. أمرح بين طاولات الطعام لأختار الملائم ممازحة عمر بأنني لا أعرف شيئًا عن الطهي ولكنني سأختار أفضلهم على كل حال، فنتفق سويًا على دفع العربون.. أتذكر سعادة عارمة قد اجتاحت جسدي وجعلت عقلي سابحًا في نشوة يوم الزفاف.. فأنا ألملم تفاصيل حياتي المستقبلية بين يدي..

كيف تحولتي يا نالا من تلك العروس التي تتجول بين الأروقة محققة حلم الفستان الأبيض لتلك العجوز محنية الظهر من أعباء الحياة المتراكمة فوقها.. من ديون لالتزامات العيش بمفردها..

أمر مدهش كيف يتحول المكان من مبهج لمؤلم حسب شعورك دون تغيير تفاصيله..

تمامًا كشعوري الآن بتلك النقود.. فقد كانت يومًا وسيلة سعادتي، والآن هي وسيلة خلاصي من أعبائي فقط..

توقفت أسفل منزل زهرة، اتصلت بها لأخبرها بوصولي لكي تهبط، فلن أستطيع الصعود لها.. لن أسمح بأن تفوتني دقيقة واحدة هباء.. يجب علي الاستعداد لتلك المكالمة..

وافقت زهرة لأجدها تقف أمامي بعد خمس دقائق تلوح لي، ترجلت وعانقتها..

دومًا أشعر بحنان الأم الذي أفتقده وبشدة.. بين ذراعيها، فقلت بصوت متهدج:

ـ فريدة بعتتلي ماسدج.

قلت تلك الجملة لأسمع شهقة زهرة العالية وهي تضع يدها على صدرها وعلى وجهها الاندهاش، فأكملت حديثي قائلة:

ـ أنا لسة معرفش أي حاجة..

بدأت في البكاء، أعلم أنها كانت صامتة وتحاول الادعاء بالقوة طوال الفترة الماضية أمامي فقط لكي لا تزيد همي، وأعلم جيدًا أنها بكت مرارًا لتنام كل ليلة داعية أن تسمع أي خبر عن فريدة.. فزهرة قد انقطعت العلاقة بينها وبين أمي منذ زمن بعيد.. وبالطبع بينها وبين أبي.. «هتكلمني كمان شوية». اقتربت منها.. «أول معرف حاجة هقولك..» ربت على كتفها لكي تهدأ قليلًا.. فمسحت وجهها بيدها وباليد الأخرى مدتها بالنقود..

أخذتهم وانصرفت.. هربت لكي لا ننهار سويًا..

قدت السيارة قليلًا حتى توقفت في شارع جانبي قريب، أدرت مكيف السيارة فقد بدأت حرارة جسدي بالارتفاع معلنة قمة توتري، أشعلت سيجارة والتقط هاتفي لأتحدث مع حازم.. أريد أن ألهي أفكاري قليلًا..

زفرت نفسًا وأنا اسمع صوت رنين الهاتف.. ولكن بلا إجابة..

التفت إلى المال الملقى بجواري، أمسكته وبدأت في العد.. أمسك بين يدي مبلغًا لا بأس به، أعلم أنه طوق نجاتي من عوائق كثيرة.. فتحت حقيبتي لأضعهم في جيب سري بداخلها وظللت ممسكة بها، أغلقت جميع الأبواب والنوافذ إلا قليلًا من نافذتي يكفي لخروج دخان السجائر.. خوفًا من أن يمد شخص غريب يده ويسرق الحقيبة.

انكمش جسدي بأكمله، فأنا خائفة.. كطفلة صغيرة تواجه العالم بأكمله..

قاطع حبل أفكاري صوت رنين هاتفي، ألقيت السيجارة في عجالة وأغلقت النافذة، لأرى رقمًا مجهولًا يتصل بي..

فأجبته، لأسمع صوت..

فريدة..

ـ أيوة يا نالا... وحشتيني أوي..

بدا صوتها خائفًا، مهزوزًا وضعيفًا..

ـ إنتي فين؟ في إيه حصلك؟

قلتها بصوت عالٍ، لم أتمالك أعصابي ولن أخفي توتري.. لتجيبني «أنا في الجامعة..» ثم صمتت قليلًا وقالت.. «نالا أنا متبهدلة، إنتي لازم تيجي تاخديني». لم تكمل الجملة حتى بدأ صوتها في التحشرج، فبكيت رغمًا عني.. تمر السنين بيننا ومهما طال الزمن أظل أبكي كلما أسمع تلك الحشرجة في صوتها، وكأنها سكين قد اخترق قلبي.. فهي ابنتي الصغيرة..

أخذت نفسًا عميقًا، فأنا ملاكها الحارس الآن.. فكيف لها أن تراه ينهار ومن المفترض أن تحتمي به.. فقلت بصوت هادئ:

ـ ممكن تهدي طيب وتفهميني براحة كدة في إيه؟.. إهدي وأنا معاكي آهه..

سمعت صوت أنفاسها المتعالية يهدأ شيئًا فشيئًا.. فقالت بصوت محتقن:

ـ أول مروحت البيت، بابا مصدقش إني قدامه.. فضل بصصلي كدة شوية، لقيت مراته طالعة من المطبخ، أول ما شافتني افتكر إنه لازم يكون راجل قدامها عليا.. جابني من شعري ودخلني الأوضة من غير ولا كلمة..

صمتت قليلًا.. أحاول أن أكون هادئة وكل ما يجول في بالي مكانها.. أريد أن أخطفها بعيدًا عن ذلك العالم القذر.. «طب إنتي فين الأول؟».. أدرت محرك السيارة استعدادًا للذهاب

إليها.. «أنا في الجامعة.. وده موبايل صاحبتي». ضغطت علة دواسة البنزين بأقصى قوة لأنطلق سريعًا.. ثم قالت بيأس:

ـ بس مش عارفة ـطلع..

لأقول بصوت عالٍ.. «يعني إيه.. ليه؟ أنا جيالك» لتقاطعني بقولها «جايب واحد من معارفه الشمال دول ومخليه واقفلي ع الباب.. مش عارفة أطلع». صدمت عند سماعي ذلك لخبر، فهدأت من سرعتي.. حتى توقفت.. أدركت أنه استعان بالرجلين الملقبين ب»ذراعه الأيمن» كان قد تعرف عليهما في شجار قديم في عمله، انبهرا بقدرته على ربح الشجارات وأمور البلطجة فقدما له جميع فروض الولاء والطاعة وظلا بجانبه كحماية دون أي مقابل سوى وجبة يومية أو ربما نزهة معه لأماكن لم يراها من قبل.. وظل هو يتفاخر بهما وكأنهما وسام على صدره يعلن فرط رجولته غير المعهودة، فلقد كان لوجودهما أثر كبير بداخله يجعله يشعر أنه ما زال رجل يهاب وتحترم كلمته..

أكلمت فريدة حديثها قائلة:

ـ خَد مني موبايلي، وخد كل حاجة ممكن توصلني بيكي..

لم أدرِ إن كان هو سبب طردنا من المنزل في بادئ الأمر، فلماذا التمسك الشديد بنا الآن؟

قاطعتني فريدة قائلة:

ـ ومن ساعتها أنا قاعدة في البيت شغالة لمراته ولابنه..

صمتت قليلًا ثم أجهشت بالبكاء:

ـ تعالي خديني يا نالا والنبي..

أدركت في تلك اللحظة، أنه لم يكن محتجزًا لابنته إلا لسبب واحد فقط قد تغافلت عنه لقسوته، على الرغم من أن حقيقة واقعي دومًا ما تكون قاسية.. لقد سأم من تحمل المسؤولية.. وسأمت زوجته العيش معه حاملة طفلها في كل مكان، وبالطبع لا يملك المال الكافي لتوظيف من يحمل عنهم كل تلك الأعباء.. إلى أن جاءت فريدة كطوق نجاى لهم من عبء المسؤوليات..

لقد صدقتي يا أمي بقولك سابقًا..

صدقتي عندما صحتي أننا سنكون عبيد أوامر زوجته.. ولم نبالِ بك وقتها..

اعتصر قلبي لسماعي إياها بتلك الحالة، إحساسي بالعجز قد تمكلني، ولكن مع بكائها دبت روح المقاومة فيّ..

لن أتركها..

حتى وإن كان والدها..

غريب أمر الرجال.. يسرعون بالتزوج لإنجاب من يحمل صفاتهم ويخلد اسمهم.. وعند تحمل المسؤولية.. يفرون!

ليس كل من كتب في شهادة الميلاد «والد».. يستحق ذلك اللقب..

- طب إهدي أنا معاكي.. حد ضربك؟ حصلك حاجة؟ بتاكلي طيب؟

لم نفترق البتة منذ أن ولدنا، لم تغب عن نظري لثانية.. نشأنا سويًا ومع مرور السنين نشأ بداخلي إحساس الأمومة تجاهها، أفنيت ما مر من عمري من أجل إسعادها فقط، فكل ما أريده هو أن تطمئن.. وألا تشعر أن ينقصها شيء..

تنهدت وقالت:

ـ ضربني.. كان عايز يعرف مكانك فين.. لما صممت متكلمش، خد موبايلي وخد كل حاجة وقفل عليا الأوضة.. وقاللي طالما فردة منكم موجودة يبقي التانية هاتيجي وراها على طول.. أنا نزلت الجامعة النهاردة بالعافية..

صمتت قليلًا، ثم قالت:

ـ كان حابسني يا نالا..

* * *

اليوم.. هو أول أيامي في العمل..

لقد تخرجت من الجامعة بتقدير امتياز، عدل السماء دومًا يتحقق في خطوات نجاحي التي يتعجب منها الكل.. أسمع دومًا ذلك السؤال، كيف لكي النجاح في حياتك العملية هكذا على الرغم من كل ما تمري به.. لأقول.. أنه عدل السماوات..

لقد كان ابتلائي في الدنيا أشخاصًأ فرضوا علي بحكم صلة الدم، ليكون تفوقي هو من نصيبي..

انتهيت من يوم طويل للغاية في شركة دعاية وإعلان كبيرة.. كانت فرصة كبيرة لي أن أعمل هناك.. ستضيف الكثير لي..

أمامي طريق طويل للعودة للمنزل..

رنَّ هاتفي لأجد فريدة المتصلة.. لا بد أنها وصلت البيت بعد يوم جامعي شاق.. وتتصل لتعرف متى سأعود.. فأجبتها لأسمع صراخًا:

ـ نالا.. تعالي بسرعة.. أمك هنا وقالبة الدنيا..

طوال حياتي لم أسمعها قط تصرخ بصوت مرتعب كهذا.. «أنا في الحمام قافلة على نفسي.. وداخلة في panic attack.. إيديا منملة..» حبست أنفاسي.. أعلم أن اليوم هو ميعاد قدوم أمي إلى البيت، فمنذ انفصالهم من ثلاث سنوات وزياراتها لنا قليلة.. فجاءت بحجة أن لديها خبر هام عن أبي..

يوجد لدينا أخ.. يكبرني بثلاثة أعوام.

لم نعلم عنه شيئًا إلى أن هاتفتني البارحة وقالت لي ذلك الخبر الصادم.. ومن بعدها لم يغمض لي عين أنا وفريدة..

نريد أن نعرف كل شيء..

وهي تتلذذ بقولها.. «مش هقولك عرفت منين.. مصدر موثوق منه قاللي..» لتترك فضولي يتغذى علي لليلة كاملة..

ثم اتفقنا سويًا على مقابلة اليوم.. لتتحدث عن كل ما تعرفه عن ذلك الأمر.. وتلملم ما تبقى من أشيائها في المنزل..

ـ إهدي.. إهدي.. في إيه؟

قلتها وأنا أصرخ.. لتجيبني بصراخ قد غطى على مخارج ألفاظها:

ـ جت لمت باقي حاجتها وفضلت مستنياها، خلصت وكانت عايزة تمشي ومش عايزة تحكي.. قفلت البيت بالمفتاح قامت جريت ورايا عايزة تنزل وعمالة تضربني، حبست نفسي راحت مكسرة في الشقة..

صمتت قليلًا ثم قالت وهي تلهث:

ـ جسمي كله منمل.. تعالي بسرعة، أنا حابسة نفسي في الحمام وهي بتكسر الباب عليا..

اقشعر بدني عند سماع صوت الضربات العنيفة على الباب ممزوجًا بصراخ أمي.. «افتحي بقولك».

أخرجت رأسي من النافذة وظللت أصرخ في السيارات حولي «إفتحوا الطريق.. وسعوا». أصرخ وأبكي.. أعلم أن فريدة عندما تتوتر وتخاف يغشى عليها ويتخشب جسدها بالكامل وكل ما تحتاجه هو يدي تمسكها لتهدأ.. «عدوني.. وسعوا». صرخت وسط نظرات المارة الصادمة..

ـ إهدي أنا جايلاك.. خليكي معايا على الموبايل متقفليش..

أمسكت الهاتف بيد واليد الأخرى تقود.. ألمح الطريق تارة وتارة أصرخ من النافذة.. حتى اتصلت بأمي لأقول صارخة:

ـ سيبيها في حالها.. حرام عليكي.

صرخت في الهاتف وشهقات بكائي عالية لتجيبني أمي بصوت هيستيري:

ـ أنا عايزة أمشي.. بنت الكلب قافلة بالمفتاح.. إنتوا اتتجننتوا..أنا أمكم إزاي بتكلموني كدة.

لقد طفح كيلي.. فدومًا أردد جملة.. أختي خط أحمر.. من يرد الشجار فمرحبًا به، ولكن بعيدًا عنها.. أحاول حمايتها من كل الآلام بداخلي بسببهم.. لن أسمح بأن تذوق مرارة ما مررت به.. لن ترسم تلك الندبات في روحها فتقتلها لتدفن بجواري..

ـ لو جيتي جنبها قسمًا بالله ما هيحصل كويس.. أمكم؟.. بنتك مرعوبة منك وتقولي أمكم.

أخرجت رأسي من النافذة مجددًا لأصرخ «إفتحوا الطريق»، ثم وضعت الهاتف مجددًا على أذني.. محاولة إلهائها قليلًا حتى أصل..

سأحميها حتى وإن كان من والديها.. المفترض أنهم حمايتها في الدنيا..

لم يتبقَ لها سواي.. بعد أن افترق كل منهما.. وشق طريقه في الأنانية وحب الذات.. متغافلًا حقيقة.. أننا ما زلنا أبناءهم.

أغلقت الهاتف، فضغطت سريعًا على مكالمة فريدة..

وضعت الهاتف على مكبر الصوت لأمسك عجلة القيادة بكلتا يدي وأقود سريعًا.. لأصل في غضون عشر دقائق.. ترجلت لألمح أبي قادمًا يهرول من بعيد.. «هي أمك اتجننت؟» قالها وقد بدا على ملامحه القلق من فريدة..

والقلق من شيء آخر..

صعدنا إلي البيت.. وما إن دبت قدمي الصالة حتى رأيت بقايا الزجاج المتناثر.. دخلت لأجدها تقف أمام الحمام ممسكة بشاكوش.. تنهال به على الباب المهترئ من كثرة الضربات عليه..

جذبها أبي بعيدًا.. لأفتح باب الحمام وأجد فريدة.. طريحة على الأرض.. تلهث بصعوبة..

فاقدة الوعي..

ضممتها إلى صدري لكي تهدأ قليلًا.. ثم خرجت لهما.. لأسمع صوت صراخهما..

ـ قولهم.. قولهم اللي أنا عرفته.. إيه مكسوف؟ مش عايز تقول إن عندك ابن تاني.

التفت إلى أبي لأجد ملامحه قد تبدلت وأصبح أكثر توترًا، جلس على الكرسي خلفه.. وخرج صوته مهزوزًا:

ـ إطلعي برة..

وقفت صامتة أمامه.. ثم التفتت له... نظرت إلي مباشرة ثم قالت بتحدٍ:

ـ بكرة يتجوز وهتبقوا شغالين عند مراته.

صفعت الباب بقوة.. فأسرعت إلى فريدة.. حملتها بكلتا يدي وساعدتها على النهوض.

ـ تعالي قومي معايا.. خلاص مشيت.. محدش هيخوفك ولا يحبسك كدة تاني طول مانا عايشة..

* * *

«إسمعيني كويس وركزي معايا... بكرة إنتي رايحة الجامعة تاني صح؟».

قلتها بصوت حذر، كمن يضع خطة اختراق مبنى.. لتجيبني بصوت منخفض.. «آه، المفروض»، أخذت نفسًا عميقًا لأتدارك الموقف، إلي أن أتتني فكرة، فلمعت عيناي.. وقلت لها بحماس:

ـ متقوليش لحد إننا اتكلمنا، وانزلي الجامعة عادي ومتخديش معاكي حاجة زيادة عشان ميشكش، هاتي حاجتك الأساسية المهمة بس.. وبكرة الساعة اتناشر بالظبط، أيًا كان وراكي إيه.. هتطلعي من الباب اللي ورا..

قاطعتني قائلة.. «بس ده ممنوع حد يخرج منه.. ده دخول بس»، لأجيبها:

ـ أنا هاتصرف مع الأمن ساعتها.. هكون مستنياكي هناك..

لتقول بصوت يرتجف:

ـ ماشي ماشي.. هستناكي..

ساد الصمت للحظة فكسرته بصوت هادئ:

ـ متخافيش، طول مانا عايشة محدش هيعملك حاجة.. ومش هسمح إن حد يجي جنبك..

صمت للحظة ثم أكملت حديثي أحاول أن أمزح معها قائلة:

ـ بعدين ياللا تعالي بقى، ساشا قرفاني ومش عارفة أعملها أكل كل يوم..

سمعت صوت ضحكة منخفضة تعلن عن بداية حالة الراحة التي تملكتها، فلن أغلق الهاتف مهما كلفني الأمر، إلا أن أسمع صوتها مطمئنًا «خاللي بالك على نفسك لحد ما اشوفك بكرة». زفرت نفسًا طويلًا «ماشي حاضر.. باي باي».. ثم أغلقنا الهاتف..

أدرت محرك السيارة وبدأت في طريقي إلى البيت.. وكل ما أفكر به، فريدة.. نائمة بجواري..

كيف لي التفكير بها بهذا الشكل من قبل؟ ظننت أنها كرهتني وقد بدأت حياة جديدة مع أبي، ظننت أنها سئمت العيش معي.. ولن تقدر على مواجهة العالم مثلي..

ظننت أنها استسلمت..

فاستسلمت، لواقع من نسج خيالي حتى أيقنت أنه حقيقة..

كثير منا يمضي في حياته غير عابئ بلحظة فهم، يحمل الضغائن دون سماع المبرر.. يكره الآخر دون السماح له بلحظة من الصراحة.. فربما لحظة واحدة كفيلة أن تهدم جبالًا من الظنون.. ونتصافى.. أو لحظة واحدة كفيلة بإخماد نيران الشكوك..

قاطعني صوت هاتفي، التقطه لأرى وصول رسالة جديدة على الإنستجرام.. كانت من شخص يحمل اسم أبي ولقب عائلتي..

«أنا أخوكي الكبير.. وعايز أكلمك ضروري، أنا جيت عند بيتك من فترة وكنت هكلمك بس قلت بلاش أعملك فضايح، فسيبتلك حاجة على زجاج عربيتك.. لو مردتيش عليا أنا هفضحك قدام الناس كلها وأقول أنا مين وابويا يبقى مين، وانتي واحدة مشهورة وحاجة زي كدة هتضرك».

صدمتني حقيقة أن كل تلك الرسائل الغامضة التي أرسلت لي سابقًا من حساب مجهول دون معلومات عن صاحبه، كان هو من يرسلها..

واسمي الذي نقش على نافذة سيارتي، كان ذلك إصبعه..

وحتمًا إنه تابع حسابي يومًا ما ورأى أين أجلس دومًا مع أصدقائي، فتتبعني ليعرف مكان منزلي..

ليتني كنت من هؤلاء الذين يفضلون أن تكون تفاصيل حياتهم سرًا وليست مباحة أمام الجميع بجميع تحركاتهم اليومية..

«إبعد عني بعد إذنك، كلامك مع أبوك مش معايا.. وأنا معرفش عنه حاجة.. ولو عايز تفضح إفضح، معنديش حاجة أخاف منها».

أرسلتها له ثم اتصلت بدنيا «حصليني ع البيت دلوقتي، عايزة أقولك حوار مهم.. فريدة كلمتني».. ثم أغلقت الهاتف، لن أعطيها تفاصيل أكثر، فربما تلك العادة قد ورثتها عن أمي.. أترك الناس يحترقون بنار الفضول.. وكيف لي الهرب من صفات قد حفرت بداخلي بحكم الجينات المتوارثة..

أيقنت الآن أنني لن أدع تلك الجملة السخيفة «إنتي شبه أمك أوي» القدرة على إزعاجي.. فمن كان يود التقرب مني أول شيء أصارحه به ألا يقولها لي مهما كلفه الأمر ومهما بدوت مثلها، فلقد ظل هذا الشبح يطاردني لسنوات كثيرة.. لن أكون مثلها، لن أخطو خطواتها ولن أذيق مرارة صفاتها السيئة لأحد.. حتى تصالحت مع حقيقة.. إنني أشبهها، شئت أم أبيت.. أشبهها، أحب الناس جميعا، السيئ منهم قبل الطيب، أضع سقفًا لتوقعاتي ثم أهدمه وأبكي حالي، مبهرة في فن التقاط الحديث مع الآخرين حتى أصبح محور الجلسة، متحدثة لبقة.. وأحافظ جيدًا على الأصول مع الآخرين وودهم حتى وإن كانوا يكرهونني، أشبهها في صفات جعلت عملي يزدهر.. حتى رسمة فمي عندما أضحك، أصبح نسخة طبق الأصل

منها.. وكأن مرآتي تعكس صورتها أمامي كل صباح.. فقررت اختيار الصفات القديمة لها، العادات الحميدة، التي تميزها عن الآخرين..

اخترت أن أشببها فيما جعل الآخرين يحبونها.. فأنا مرغمة على تلك العادات التي نقلت لي قبل مولدي..

فلماذا الهرب من القدر الآن؟

وصلت منزلي فلمحت دنيا مسرعة في آخر الشارع.. انتظرتها، فجاءت مقبلة، عانقتني «في إيه حصل.. فريدة فين؟» قالتها وعلى وجهها علامات الترقب من سماع خبر صادم.. «تعالى نطلع الأول طيب وهحكيلك».

تلك العادة!

وصلنا إلى منزلي. وما إن بدأت في الحديث حتى رن جرس الباب، فتحت لأجد حازم يقف أمامي:

ـ إنت جيت إزاي.. في إيه؟

ضحك ضحكتة المعهودة ثم قال وهو يدخل بينما أنا ظللت مكاني:

ـ إنتي فاكرة إني هسيبك مثلًا.

أغلقت الباب والتفت له مبتسمة:

ـ أكيد لأ.. بس أصل لما كلمتك إنت مردتش.

فقاطعني قائلًا:

ـ دنيا كلمتني وقالتلي فجيت على طول..

نظرت له ثم الناحية الأخرى في محاولة مني لتفادي النظر له مباشرة، فعيناي دومًا تتكلم عندما أحاول أن أكبت الحديث وهو يعي ذلك تمامًا ويقرؤها جيدًا.. «سيبنا بعض على فكرة». قالها وهو يبتسم بأسى، فتسمرت في مكاني ونظرت له مباشرة.. فأكمل حديثه:

ـ هي قالتلك متحكيش حاجة لحازم عشان توقعنا في بعض وجت قالتلي، عشان تبقي إنتي اللي بتخبي وبكدة هتكوني كسرتي حتة إننا مش بنخبي على بعض..

صمت للحظة ثم اضيقت عيناه وقال:

ـ بتوقعك في الغلط يعني.

تبدلت ملامح وجهي ونظرت للأسفل، ثم قلت:

ـ أنا بس مكنتش عايزة أعمل مشاكل ما بينكم..

جلست على الأريكة بجواره.. ليجيبني:

ـ خالص، هبقى أحكيلك بعدين.. مش وقته، بس كدة كدة القصة دي مكنتش نافعة.. هي شخص فاكر إن الكون كله هيمشي على مزاجه، ده حتي شغلي دخلت فيه من ورايا وفشخته برضه.. المهم دلوقتي فريدة، إحكي اللي حصل..

أخذت نفسًا عميقًا، أشعلت سيجارة ثم بدأت في الحديث..

ـ هاخد إجازة من الشغل بكرة وهبات معاكي انهاردة.. ونروح سوا بكرة..

قالتها دنيا وهي تضع كوبًا من البيبسي أمامي على المنضدة، هي صديقتي ولكنها تحفظ جميع تفاصيلي عن ظهر قلب.. فربت على يدها قائلة «ربنا يخليكي». ثم نظرت لهم «أنا مش عارفة من غيركم كنت هعمل إيه بجد». ليقاطعني حازم قائلًا:

ـ يا ستي ولا أي حاجة.. كنتي هتبقي قوية برضه.. قوليلي بقى، حاسة بإيه؟

صمت للحظة ورجعت إلى الوراء بعد أن ارتشفت من الكوب قليلًا ثم قلت بصوت مهزوز:

ـ حاسة بالذنب إني فهمتها غلط.. في نفس الوقت بقول لنفسي.. طب ما هو طبيعي..

بص، أنا حاسة بحاجات كتير أوي مختلفة عن بعض.. بس أهمهم، إني خايفة..

قال حازم بتعجب «مِنْ؟» لأجيبه بصوت محتقن:

ـ خايفة معرفش أرجعها بكرة.. خايفة أوي، معنديش حل تاني للأسف.. فيارب الدنيا تمشي بقي..

صمت قليلًا ثم أكملت حديثي بصوت حانق:

ـ واللي بيقول إنه أخويا ده يكلمني كل شوية وعرف بيتي هنا وبيهددني إنه هايفضحني.

تبدلت ملامحهم لتصبح أكثر قلقًا ثم قالت دنيا:

ـ لازم تعملي محضر بعدم التعرض.. إنتي بنت ولوحدك وبتروحي البيت بليل والشارع هادي.

قاطعها حازم قائلًا لي:

ـ مظنش إنه هيعمل حاجة وحشة.. الواد ده عايز فلوس، ملهاش تفسير تاني غير كدة.. هيفضل يزن عليكي عشان تلاقي أبوكي منفضله..

قلت بتعجب:

ـ هو فعلا أمي قالت قبل كدة إنه كان بيرشيه عشان يفضل ساكت طول السنين اللي فاتت.. بدل ما يتفضح قدام الناس إنه عنده ابن في الحرام..

فقال حازم بثقة:

ـ وطبعًا لما أبوكي اتداين مبقاش بيبعتله فلوس فقال يجيلك إنتي.. عامة هو أجبن من إنه يعملك حاجة، ولو كان عايز يعمل حاجة كان عملها.. أصل مفيش حد هيعض الإيد اللي بتديله فلوس..

اقترب مني وقال بصوت حنون «ماتخافيش، إحنا في ضهرك». ثم صمت للحظة وقال «هي مشكلة واحدة بس». فنظرت له وأومأت برأسي إنني أستمع له «هي ساشا جوة بتعمل بي بي؟ أنا شامم ريحة معفنة».

انتبهت للحظة ثم نهضت مسرعة «يالهوي دي في أوضة النوم..» ثم صرخت «إنتي يا زفتة بي بي هنا نوووو..» وسط ضحكاتهم العالية..

أحيانًا يتعجبون من معاملتي لساشا، أذكر أنني مرة كنت أتحدث مع حازم على الهاتف ولم أنتبه أنني لم أغلق الخط بعد انتهاء المكالمة، فسمعني وأنا اتحدث معها حتى ظن أنني لم أكن وحدي بالمنزل.. وظل يسخر مني أسبوعًا كاملًا..

وفي حقيقة الأمر، أنا أشفق عليهما.. فمن لم يقتنِ حيوانًا أليفًا.. وبالأخص كلبًا.. فاتته معانٍ كثيرة..

فهي لم تكن حيوانًا نربيه.. بل كانت الفرد الثالث لعائلتي الصغيرة، فردًا يحمينا من شرور من يظن أن اقتحام البيت أمرًا سهلًا.. يحمينا أثناء التجول ليلًا في الطرقات.. ويغمرنا لمشاعر الحب الدافئة دون مقابل..

فردًا.. يحبنا دون كلل.. اختار أن يكون معنا وألا يتخلى عنا..

مهما كلفه الأمر..

* * *

قاطع لون وشاحها الأخضر حبل أفكاري.. لمحتها قادمة تهرول من بعيد.. وقفت في مكاني لكي لا يكشف أمرنا وسأشرح لها طوال الطريق سبب ردة فعلي تلك.. لمحتني فضحكت.. بدت كمن تاه على جزيرة في وسط المحيط ولمح في ثنايا المياه قاربًا قادمًا لإنقاذه.. لوحت لها في اشتياق، أخيرًا تقف أمامي..

بدوت كطفلة تنتظر وصول أمها لكي تأخذها بعد انتهاء أول يوم دراسي لها.. تلك اللهفة الممزوجة بالأمل..

اقتربت من البوابة إلى أن لمحت الحارس، فتوقفت للحظة وبدا على ملامحها التوتر.. التفتت لي كمن يسألني عن الفعل الصواب.. رأيت ذلك في عينيها.. فلدينا تلك العادة من الحديث عن طريق الأعين، قد يكون تخاطر أو توارد ذهني.. أو ربما لشدة قربي منها.. ولكننا كنا بالقدرة الكافية التي تجعلنا نجري حديثًا كاملًا دون التفوه بكلمة واحدة.. فنظرت لها بعين حنونة تقول لها اطمئني.. لقد أمنت لك كل شيء كي تعبري تلك البوابة بسلام.. وتقفزي بين ذراعي مجددُا.. فالتفتت للحارس الذي أشار بيده بمعنى أكملي سيرك، ثم نظر لي مبتسمًا في فخر كمن فعل فعلة خير.. أكره أنني كذبت عليه.. ولكنه خير في الأساس.

التفتت لي فريدة ثم أقبلت تهرول.. فتحت ذراعاي وأنا أقف أمام السيارة..

شعرت وكأن الروح تدب في جسدي مجددًا.. بدوت كمن توقف قلبه عن النبض فتم إسعافه بصدمات الكهرباء.. رؤيتها كانت تلك الصدمة الأخيرة التي ارتطمت بصدري لتعيدني إلى الحياة مرة أخرى..

ولكن سرعان ما تم إعلان وفاتي..

فما إن هممت بالنزول من على الرصيف..

هبطت يد على كتفها فجأة، فالتفتت له لنرى رجلًا ضخمًا، بدا كمن يؤدي أمرًا عسكريًا دون فهم.. «إيه اللي طلعك من هنا.. اتفضلي معايا على العربية.. باباكي مستنيكي في البيت».

تراجعت خطوات إلى الوراء.. غير مدركة ما يحدث، أرى شخصًا غريبًا عني يسلب مني روحي ويقتلع قلبي من أحشائي ليذهب به بعيدًا تاركًا جسدي ينتظر الدفن تحت الأنقاض.. وددت أن أهجم عليه وأقفز لأصفعه بقوة تكسر صف أسنانه ليسقط متهاويًا على الأرض.. ولكني لن أستطيع.. لن أخوض تلك المجازفة البلهاء، فهيكل جسده كافٍ ليحملنا ويكمل في سيره بكل سهولة..

نظرت إلى فريدة التي أشاحت بنظرها عني لكي لا يلتفت لي الرجل الضخم ويلاحظ وجودي..

ادعت أنها وحيدة.. فجذبها من حقيبتها إلى داخل سيارة، كانت تقف مسبقًا أمام البوابة مباشرة.. ولو كنت أعلم مبكرًا، لكن اختلقت قصة واهية لكي يرحلوا.. ولكن هذه ترهات في عقلي فقط..

فلقد اتضحت الصورة الآن، لم يترك رجلًا واحدًا عند البوابة الرئيسية.. بل عند البوابة الخلفية أيضًا تحسبًا لفعلة كالتي حدثت الآن..

وقفت أشاهد ما يحدث وكأنني في المسرح أمام مشهد سيريالي، جلسوا جميعًا في السيارة التي انطلقت مسرعة..

لألمح فريدة تنظر لي من النافذة.. باكية في صمت.. وعيناها تتوسل لي بألا أتركها..

وقفت أشاهد السيارة حتى تلاشت.. وتلاشى معها آخر أمل لدي في لم شملي بها مجددًا..

فتحت باب سيارتي.. جلست ثم صفعته بقوة ورائي كادت أن تهشم زجاج النافذة.. جلست أبكي حالي.. أفكر فيما سوف يحدث لها عند علم أبي بذلك الموقف.. أشعر بالسخط والعجز..

أكره ذلك العجز..

نظرت لدنيا ثم دفنت رأسي بين ذراعيها وأنا أجهش بالبكاء «كانت قدامي خلاص.. كنا هنروح سوا». فربتت دنيا على ظهري.. «إهدي طيب، هنلاقي حل أكيد.. على الأقل شوفتيها واطمنتي عليها آهه.. إهدي بس».

رفعت رأسي.. ومسحت وجهي بكفي، فمنذ وفاة جدتي وأنا لا أسمح لنفسي بالبكاء لمدة تزيد عن دقيقتين.. حتى اتهمني كل من اقترب مني بجمود المشاعر.. فما زلت حتى الآن لم أبكِ وفاتها، فكيف لي البكاء على شيء آخر بعد مماتها؟..

أشعلت سيجارة.. ولكن من توتري، طار الجزء المشتعل ليستقر على سترتي الصوفية.. انتفضت وحاولت إخمادها بسرعة.. حتى توقفت للحظة.. وأنا أنظر إلى تلك السترة التي أرتديها اليوم.. فلقد حاكتها جدتي..

تنحنحت في جلستي واعتدلت.. أدرت محرك السيارة وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي قائلة بصوت مرتعش:

ـ هوصلك البيت..

لتجيبني دنيا بامتعاض:

ـ لا طبعًا مش هسيبك كدة..

فقاطعتها قائلة في حزم:

- إسمعي اللي بقولك عليه.. هبقى كويسة، هوصلك ونتقابل بلليل..

فأومأت برأسها في استسلام.. فآخر شيء أريده الآن هو الجدال في رغبة لدي.. حتى وإن كانت تبدو غير منطقية.

ظللت طوال الطريق صامتة وبداخلي الكثير من الأحاسيس المتناقضة.. فرحت برؤيتها ولكني قلقة عليها.. ساخطة بسبب أبي ولكن جزءًا صغيرًا بداخلي يقول.. هذه صغيرتك، تذكري وعدك لها بأنك لن تسمحي لشيء أن يؤذيها.. حتى وإن كان أقرب الناس لنا.. وأنا لا أخنث بوعدي مطلقًا..

قمت بإيصال دنيا إلى منزلها، لوحت لي من خلف النافذة «خاللي بالك على نفسك»..
فأومأت برأسي بنعم.. ثم انطلقت مسرعة..

لا أعلم وجهتي.. ولا أدري إلى أين سيأخذني الطريق.. فكل ما كان يجول ببالي شيء واحد..

فريدة..

وعدت نفسي بألا أبكي مهما كلفني الأمر وها أنا أبكي وبحرقة.. وعدت فريدة بألا أتركها مهما حدث وها أنا بعيدة عنها..

وعدت نفسي بأشياء كثيرة.. أدركت الآن أنني لن أستطيع أن أفي بها.. فاستسلمت لتلك الحالة من اليأس..

حتى وجدتني أمام ذلك المكان، ولا أدري كيف قدت تلك المسافة، شعرت أنني غبت عن الوعي، لأفيق وأجد نفسي هنا..

وكأنني قد دخلت آلة ما انتقالية في الزمن.. لأجدني أستكين في ذلك الشارع..

تلك الضالة التي ظللت أهرب منها طوال حياتي خوفًا من أن أجدها..

ذلك البيت.. ذلك المكان الذي ذقت فيه طعام الأمان.. نشأت لأصبح..

ما أنا عليه الآن..

* * *

الفصل الرابع عشر

لم أدرِ بالكون الذي يدور حولي إلا وأنا انظر إلى الأعلى من خلف نافذة سيارتي لأتفقد ذلك المبنى.. لم يتغير به شيء.

ترجلت وتقدمت بخطوات متثاقلة نحو البوابة الرئيسية، لا أدري لماذا جئت إلى ذلك المكان، ولكني شعرت بشيء ما بداخلي يحركني تجاهه..

نظرت إلى ساعة يدي لأدرك أن الآن ميعاد خروج المصلين بعد أداء صلاة الجمعة.. فطرأت لي فكرة أعلم جيدًا أنها سخيفة، ولكنها الحل الوحيد للدخول إلى المنزل.. مررت الطريق لأقف منتظرة المالك الأصلي للبناية بجوار البوابة، حتمًا إنه سيرجع لبيته بعد الصلاة، فعمره الآن حسب ما أتذكر يقارب السبعين عامًا.. أي سوى معاشه وينعم بالحياة حول أحفاده في منزله.. مثلما كان يفعل جدي دومًا.. يستيقظ فجرًا لقراءة الجريدة ثم يذهب للصلاة ويعود حاملًا لأنواع كثيرة من الفاكهة منتظرًا مجيئنا جميعًا لبيته..

وقفت ألمح المارة.. أكاد أتذكر ملامحه.. كان طويل القامة، ملامحه حادة.. وأهابه منذ الصغر دون أي سبب وجيه.. وبعد مرور الزمن أعتقد ان ملامحه لن تتغير، وسيبدو أقصر قامة بقليل.. فلدي تلك النظرية أن الإنسان كلما كبر في العمر، يتقلص جسده حتى يعود إلى بدايته.. طفل صغير مجددًا.. في الهيئة وفي الطباع.

ظلت عيناي ترقب القادمين على أول الطريق ولكن بلا جدوى..

أخرجت هاتفي لأتصل بحازم.. أكره الوحدة وأخاف الخيارات دون الاستشارة.. حدثته طويلا على الهاتف وسردت له تفاصيل مشاعري ليدرك أنني الآن أقف منتظرة أن يحدوث شيئًا نسبة نجاحه لا تتعدى الواحد بالمئة..

ـ هو أنا كدة صح؟ مش عارفة.. أنا قلقانة.. إفرض معرفنيش، هيبقى منظري خرا أوي..

قلتها بصوت متوتر، لأسمع صوت ضحكات حازم على الهاتف:

ـ إنت بتضحك؟ أنا بجد متوترة.. أنا مش عارفة هادخل أقوله إيه..

ليجيبني بتهكم:

ـ لأ أصلك عاملة زي العيل اللي داخل امتحان..

ثم صمت للحظة بينما وقفت أنا ألمح المارة وأترقب مجيئه، ليقول بصوت جاد:

ـ طب بصي هقولك، تعالي نمثل كأن أنا هو، ونرتب سوا هتقوليله إيه؟ أو حاجة أحلى.. متحوريش يا نالا في كلمة.. قولي اللي انتي حساه وإيه السبب اللي خلاكي تروحي..

فأجبته بصوت يأس متردد:

ـ أنا خايفة أكون بعمل حاجة غلط وهعمل مشاكل كدة.. أمشي؟ أنا همشي طيب.. أنا أصلًا مطبقة ومش نايمة كويس..

ليرد حازم بصوت يطمئنني:

ـ إمشي ورا إحساسك يا نالا.. دايمًا الإحساس الأول، بيطلع هو الصح..

قاطع حديثنا وجه مألوف.. أعرفه جيدًا..

ـ بقولك إيه.. حازم.. حازم.. الحارس بتاع العمارة، عم شعبان.. معدي قدامي.. أروح أسأله؟ ولا مش هيعرفني؟

لم أكمل الجملة وكأن عم شعبان كان الطرف الثالث في الحديث ليقبل علي ويرحب بي بحرارة.. ففرحت بشدة.. شعرت وكأن السماء ترسل لي بادرة أمل تشير أنني أفعل الصواب وألا أيأس.

ـ إنت لسة فاكرني؟

ليضحك بشدة ثم يقول:

ـ طبعًا.. حضرتك الآنسة نالا.. حفيدة الحاجة سميرة الله يرحمها.. إزاي أنساكي..

تحدثنا قليلًا حديثًا سطحيًا.. وعندما هم بالرحيل.. كان حازم ما زال معي على الهاتف، فقلت له بصوت منخفض:

ـ حازم، أسأله الراجل فين؟

ليجيبني حازم بحماس:

ـ طبعًا.. أكيد عارف هو فين.. ياللا ياللا..

استجمعت قواي مجددًا وأخذت نفسًا عميقًا، فناديت عليه ليلتفت لي مجددًا ثم قلت:

ـ بقولك إيه.. هو الحج صاحب العمارة لسة في الصلاة؟ أصل أنا كنت عايزاه في حاجة شخصية شوية.. وواقفة مستنياه بقالي كتير..

فقال لي عم شعبان:

ـ تلاقيه راح مشوار.. طب يا آنسة بدل ما تقفي، أدخلي للحاجة.. هما في الدور الأرضي الشقة اللي على الشمال..

فاقتربت منه وقلت بصوت منخفض خوفًا من أن تكون تلك الشرفة هي شرفة بيتهم، فلدي عادة غريبة في الخلط بين الشرفات حتي وإن كنت أعلم مكان الشقة جيدًا..

ـ لأ.. هتكسف كدة.. من غير ميعاد وفي يوم إجازة..

ليقول وهو يبتسم، ابتسامة جعلتني أتخذ القرار:

ـ لا مفيهاش حاجة.. الحاجة طيبة ودايمًا فاتحة بابها للكل..

أومأت برأسي ثم ذهب يكمل سيره بعيدًا عني.. لأقول لحازم:

ـ إنت لسة معايا صح؟ سمعته؟ أنا خايفة.. هروحلها إزاي فجأة كدة.. يالهوي لأ.

ضحك حازم مجددًا ثم قال بصوت هادئ:

ـ بصي، طالما قطعتي الشوط ده كله.. حرام تمشي وتسيبيه.. هاتي آخر الحاجة يا نالا عشان متندميش بعد كدة..

لهذا السبب فقط اتصلت بحازم في يوم كهذا.. أعلم أنه يجب أن أسير وراء إحساسي الداخلي.. ولكنه شعور رائع أن تجد من يشاركك هذا الإحساس.. بل ويدب الحماس بداخلك لكي تكمل ما بدأته إن مررت بلحظة شكوك وظنون في اختيارك..

ـ روحي ياللا.. أنا هقفل وهقعد أستناكي. لو في حاجة إبعتيلي أو اتصلي..

أغلقت الهاتف وتوجهت نحو البوابة مباشرة.. لا أفكر ولن أدع لعقلي أن يعبث بي.. أو لحظة شك أن تتسلل بداخلي فأتراجع..

سأنهي ما جئت بشأنه..

ما إن دخلت المبني حتى سرت قشعريرة في جسدي..

وصلت إلى المنزل، ووقفت أمام الباب لألتقط أنفاسي، ضغطت الجرس لتفتح لي سيدة في عقدها السادس.. وقد بدا على وجهها التعجب قائلة:

ـ أيوة إتفضلي..

فأجبتها على استحياء:

ـ أنا أسفة الأول إني جاية من غير ميعاد..

أومأت برأسها لأكمل كلامي.. شعرت بخجل شديد، ما الذي تفعلينه يا نالا..

ـ أنا فاكرة حضرتك.. حضرتك طنط صاحبة العمارة.. مش عارفة حضرتك هتفتكريني ولا لأ..

فنظرت لي في تمعن ثم قالت:

ـ مش واخدة بالي معلش..

لأجيبها والدموع في عيني:

ـ أنا نالا.. حفيدة الحجة سميرة..

تسمرت السيدة في مكانها ثم ضحكت فجأة وجذبتني بين ذراعيها.. قائلة بترحاب:

ـ الغالية بنت الغالية.. إنتي نالا؟ طبعًا فكراكي.. دانتي كبرتي قدامنا كلنا في العمارة دي.. ما شاء الله بقيتي عروسة..

ابتسمت في خجل ثم قلت:

ـ ربنا يخليكي يا طنط.. أنا مش هاخد من وقت حضرتك كتير.. أنا عارفة إن بعد وفاتها حضرتك خدتي الشقة تاني والمفتاح مع حضرتك صح؟

تبدلت ملامحها لتصبح أكثر جدية ثم قالت:

ـ آه معايا.. خير يا حبيبتي، حصل حاجة؟ مامتك كويسة؟ باباكي عمل حاجة تانية فيها؟ أنا فاكرة جدتك كانت بتقعد تشتكيلي منه بالساعات.. ياللا ربنا يسامحه بقي..

ابتسمت في محاولة مني لإخفاء كل ما أشعر به.. «كلنا كويسين الحمد لله يا طنط وهسلملك على ماما كمان».. اليوم هو يوم الادعاء العالمي في حياتي.. ولن أكترث.. «طيب يا حبيبتي هادخل أجيبلك المفتاح».. ثم اختفت السيدة داخل الشقة قليلًا لتتركني أقف هائمة علي وجهي، أضع تركيزي نصب هدف واحد فقط.. أن أصعد ذلك الدرج لأرتاح..

رجعت حاملة إياه.. ثم نظرت لي مباشرة وقالت بجدية:

ـ إنتي عايزاه ليه طيب؟

توترت للحظة لم أتمالك أعصابي بها، ففلتت مني دمعة علي وجنتي وقلت بصوت متحشرج:

ـ هي بس وحشتني أوي.. عايزة احس بيها تاني..

لم تجبني، اكتفت فقط بابتسامة شفقة، ربتت على كتفي ثم أعطتني المفتاح.. شكرتها ثم صعدت سريعًا إلى الطابق الرابع..

لم تحملني قدماي.. شعرت وكأنني أطير.. ما إن أصعد درجة حتى ألمح صورة لي في صغري وأنا ألعب مع أولاد الجيران على ذلك السور.. وصورة لي أخرى وأنا أهرول سريعًا لألحق بباص المدرسة بجوار جدي.. ثم أصعد قليلًا لأرى صورتي وأنا أجلس على الأرض

باكية هاربة من جنون أمي بالأعلى وجدتي تهبط مقبلة علي لتضمني بين ذراعيها.. ثم صورة لي وأنا أستند على السور مرتدية لباسًا أسود أنتظر انتهاء العزاء..

عجيب ذلك المكان، مجموعة من الدرج القديمة المتآكلة نصفها.. يبعث بداخلي روح الطفولة التي أفتقدها..

صعدت آخر درجة في الدرج، لألتفت يميني.. وأري باب المنزل.. باب بني اللون عتيق، مزين بلافتة صغيرة تحمل اسم جدي..

أخذت نفسًا عميقصا.. فلا أدري ماذا سأجد خلف هذا الباب، لم تطأ قدماي ذلك المنزل منذ الوفاة، أي قرابة ثلاث سنوات.. ولم يطرق أحد هذا الباب من بعدها سوى أمي وزهرة فقط..

أدخلت المفتاح ولكن قاومني الباب قليلًا، فلم يلمسه احد منذ زمن بعيد..

فتحت الباب..

لأشعر أنني أشم رائحتها.. وكأنها مقبلة علي..

تضع قبلة على وجنتي..

كعادتها..

فلم تكن جدتي فقط، بل كانت أمي..

وأكثر..

* * *

«ها طلعتي ولا لسة؟»

قالتها جدتي وهي تقف عند باب غرفة شقة المصيف في الإسكندرية.. لطالما ذهبت معها وحدي أنا وجدي طوال أشهر الصيف.. فذلك ما نشأت عليه وتعودت على فعله.. لقد ولدتني أمي في سن صغير كانت قد استلمت عملها للتو.. فاضطرت لتركي عند جدتي يوميًا أثناء ساعات العمل، فوضعت جدتي أولى بذور النشأة بداخلي، كبرت لأناديها بأمي.. التحقت بمدرسة تبعد عن بيتها قرابة عشر دقائق ليقوم جدي بتوصيلي يوميًا.. حتي ظنت المعلمة أنه ابي.. وأنني جئت غلطة بعنوان «طيش شباب».. مضت طفولتي وأنا أتنقل بين بيتي وبين بيتها.. حتي استقرت معظم أشيائي عندها.. فكل ذكرياتي بجوارها، وكل العادات التي ترعرعت عليها كان الأساس بهم يرجع لها، كوب الشاي بلبن عندما أستيقظ.. المكالمات الصباحية لجميع المقربين لي.. الجلسة سويًا أمام التلفاز.. حب غسيل الصحون.. اللب والسوداني وقت التسامر.. المانجو وقت الفجر.. بل والشجار بصوت عالٍ والتوعد ثم التسامح بعدها بدقيقة..

مرت السنوات لتصبح العادة الأقرب لقلبي في فترة عطلة الصيف هي السفر معها إلى منزلنا في الإسكندرية.. منزل يتوسط مبنيين، نعرف جميع من يقطن بهما جيدًا.. فالجيران أصدقاء جدتي وجدي منذ زمن بعيد.. أولادهم أصدقاء قدامى لي، نلهو دائمًا في تلك الحديقة القابعة بين المباني، ليصادف أن تلك العطلة أكون بانتظار إعلان نتيجة الصف الدراسي الثالث من الثانوية العامة..

وحدي مع جدتي.. في حالة من الترقب..

ولا يوجد من يفسد علي الفرحة مجددًا..

لسة.. بحاول أجيبها آهه..

قلتها وأنا أجلس على الفراش، يدي ترتجف وأنا اضغط رقم الجلوس على جهاز الحاسوب لأعرف النتيجة.. ولكن بلا جدوى فسرعة الإنترنت تقف بيني وبينها.. حتى اتصل بي أحد

الأصدقاء معلنًا أنه يستطيع معرفة نتيجتي، فأمليته رقمي.. ليرن هاتفي مجددًا وأري رقمه يظهر على الشاشة..

على الرغم من توتري.. وارتجاف يديّ وسماع صوت نبضات قلبي العالية في أذني، رؤيتي المهزوزة.. استطعت أن أكتب وراءه.. «ها.. العربي.. ناقصة نص درجة». رفعت رأسي لأنظر إلى جدتي التي تسمرت مكانها وبدأت في النحيب وسط دعائها بصوت عالٍ «يا رب...» التفت مرة أخرى إلى الورقة، «ها، كمل.. الإنجليزي، الدرجة النهائية..» نظرت إليها مجددًا، لأرى دموع الفرحة تهبط على وجنتيها وهي تهلل «أحمدك يا رب». صمت قليلًا وظللت أكتب وراءه جميع الدرجات.. ثم قلت بصوت محتقن:

ـ إحسب كدة كام في المية.. مش عارفة أحسب..

انتظرته قليلًا.. ثم عاود الحديث بقول النتيجة... لأغلق الهاتف دون أن أتفوه بكلمة أخرى.. رفعت رأسي.. نظرت لها مباشرة والدموع تنهمر دون بكاء.. «كام جيبتي كام؟» قالتها وهي تصرخ غير قادرة على الصبر..

٩٦ ٪... أنا نجحت.. جبت ٩٦٪..

نظرت لي وقد اعتلت الصدمة وجهها كمن يعاود سماع الجملة مرة أخرى في عقلها.. لتنفجر بصوت عالٍ قائلة:

ـ نالا نجحت.. نالا نجحت... يا عزت.. نالا نجحت..

ظلت تركض في أرجاء المنزل، تارة تقبلني وتارة تصرخ وهي تبكي، «نالا نجحت.. بنتي الصغيرة نجحت»، إلى أن وصل بها الأمر إلى الخروج للشرفة وتصرخ تنادي به الجيران:

«بنتك عملت إيه؟؟ نالا عندي جابت ٩٦٪.. باركولي». ثم أطلقت زغرودة هزت أرجاء الحي..

وأنا اقف خلفها على باب الشرفة.. أبكي.. وأشاهدها.. كطفلة، قد تحقق حلم حياتها..

بأن ترى أمها..

فخورة بها إلى هذا الحد..

«ياللا يا نالا، هننام عشان بكرة المدرسة.. قبل ما بننام بنعمل إيه؟»

قالتها وهي نصف جالسة بجواري على فراشها لأرد أنا في حماس..

ـ بنقرا الفاتحة والمعوذتين..

* * *

«بت يا نالا.. البت صاحبتك بنت الدكتورة دي أنا مش برتاحلها»..

التفت لها وأنا أجلس على المنضدة أكمل واجباتي المنزلية..

ـ ليه بس؟

لتلتفت لي وهي تقول بصوت حذر:

ـ بتغير منك ومش بتحبلك الخير.. إسمعي مني أنا.. رأيي هيطلع صح في الآخر..

* * *

«معلش إستحملي أمك.. متزعليش منها هي شايلة كتير برضه».

قالتها وهي تضمني بقوة وأنا أبكي بحرقة بين ذراعيها.. لأقول باكية:

ـ أيوة بتضربني أنا ليه، هي تتخانق مع بابا وتيجي تضربني أنا ليه؟

لتضمني أكثر.. فأشعر بقطرات من دموعها تهبط على وجهي قائلة بصوت حنون:

ـ أنا معاكي آهه.. وبحبك..

«متدعيلي دعوتين حلوين كدة والنبي قبل ما أنزل الشغل ده»..

قلتها وأنا أجلس بجوارها بينما هي منهمكة بحقنة الأنسولين، لتلفت لي قائلة بصوت حنون:

ـ ربنا يحبب فيكي خلقه.. كمان وكمان..

* * *

«كنت واثقة والله إني هلاقيكي صاحية».

قلتها وأنا أقف نصف نائمة أمامها.. ألمح ساعة الحائط التي تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل.. لتجيبني:

ـ أيوة، قومي بقي ياللا إغسلي مانجيتين وتعالي نضربهم سوا.

ابتسمت وقد أشرت إلى الساعة في محاولة مني لأقول إن الوقت متأخر حتى قالت:

ـ عارفة إننا الفجر، هبقيى أشرب مية كتير عشان الضغط.

* * *

وقفت أمام تلك الساعة التي تكسوها طبقات من الأتربة حتى اختفى لونها الأصلي.. بدت بالية ككل شيء حولها.. توقفت عن الدوران منذ ثلاث سنوات مع توقف نبضات قلب جدتي..

توقفت معلنة أن كل شيء قد انتهى، فما تبقى قد كسر بقلبي وهشم روحي.. لم يعد ذلك البيت مثل الماضي.. بل أصبح مجرد مكان واسع يضم الكثير من الأثاث الخشبي الباهت

اللون، والضيف الحالي الذي يحتل المنزل هو كومة من الغبار..

أخذت أتجول في المنزل.. أتأمل تلك الكراسي التي اعتدنا دومًا على الجلوس عليها جميعًا. لطالما جمعتنا تلك الغرفة سويًا تحت سقف واحد.. وكان هذا المنزل بمثابة الرجل الذي يلم شمل العائلة دومًا.. في العطلات، في الأعياد.. في الجنازات.. في المناسبات.. في الولائم الكبيرة.. بل وفي لحظات فراق شخص غادر الدنيا وتركنا..

كان هذا المنزل هو المحطة الرئيسية التي نرتادها يوميًا.. ونذهب إلى منازلنا لكن نعود إليه مجددًا.. بلا ميعاد ولا استئذان، كان الباب مفتوحًا لجميع أفراد العائلة.. لنشعر بدفء تجمعنا سويًا..

كان هذا البيت هو الفرصة الأخيرة لنجلس سويًا، قبل أن تتفرق أفراد العائلة..

ولا أدري لماذا أجلت هذا اللقاء، لماذا كنت أهرب من تلك الزيارة..

وأنا أعلم جيدًا.. أن قلبي سيرتاح ولو قليلًا..

اتجهت إلى غرفتها مباشرة.. فتحت الباب رأيت فراشها محملًا بالغبار ولكن كان كل شيء في مكانه الأصلي، الغرفة لم تلمس منذ أن كانت تنام بها..

اقتربت لأرى انعكاسي في مرآة الدولاب.. كان دولابًا قديمًا جدًا.. بني اللون، ضخم الهيئة.. صلب وقوي، يحمل الكثير من المعاني بداخلي وليس الملابس فقط.. فمنذ أن كنت طفلة صغيرة.. اعتدت على رؤية انعكاسي به عندما أستيقظ صباحًا.. وأن أجلس بجوارها أساعدها عندما تنتهي من أكوام الملابس وتهندمها بداخله.

تأملت ملامح وجهي.. لقد هرمت.. لم أعد تلك الطفلة التي هزت صوت ضحكاتها أرجاء هذا المنزل.. بل عجوز قد عفى عليها الزمن رجعت إلى موطنها الأصلي بعد حروب دامت لسنوات.. لتشعر بالقليل من الحنين إلى الماضي.. لتشعر بموطن نشأتها..

والقليل من طفولتها..

لربما تدب الروح فيها مجددًا..

لقد عدت في الزمن إلى الوراء.. لكي أعرف مستقبلي..

التفت إلى الفراش.. تخيلتها نائمة وتنظر لي بعين منتفخة تأمل أن ترتاح قليلًا.. «إطفي النور ياللا خلينا ننام..».. لأجد نفسي أقول بصوت عالٍ وسط الغرفة..

«وحشتيني أوي.. وحشتيني..

وجودك كان هيغير حاجات كتير أوي..

على الأقل كنت هجري في حضنك واعيط لحد مرتاح زي زمان وانتي بتطبطي عليا..

الحياة صعبة من غيرك..

محدش حاسس بيا..

وحشتيني».

لأسمع صدى صوتي في الغرفة.. ولكن بلا إجابة..

وددت لو أخبرتني ما هو الصواب؟ ماذا أفعل..؟ لم أنتظر منها حلًا.. ولكن على الأقل.. ربتي بيدك على قلبي ليرتاح قليلًا، فقد سأم الغوص في أعباء الحياة وتلقي الصدمات الواحدة تلو الأخرى..

أفتقد فريدة وبشدة.. لا أعلم شيئًا عن أمي سوى تلك المواجهة العنيفة.. وأبي.. فليسامحه اللـه.. على كل شيء..

ولا أدري لماذا وقفت أنتظر إجابة منها، بل سأسمع صوتها لأطمئن قليلًا.. جزء صغير بداخلي ما زال غير مستوعب حقيقة أنها رحلت.. فأصبر نفسي أو أوهمها بأنها سافرت الإسكندرية مثلما كانت تفعل دومًا.. وأنها ستعود حتمًا لا محالة..

خرجت من غرفتها لأدخل الغرفة الثانية التي تقع على شمالي.. لقد كانت قديمًا غرفة زهرة وامي قبل زيجاتهم، أقبلت على سور النافذة واستندت عليه، حتى تخيلت صوتها وهو تقف أمامه ممسكة بالغسيل «ناوليني المشابك ياللا خلينا نخلص الغسيل ده كله». فألتفت لأجد تلك السلة بنية اللون ما زالت قابعة مكانها.. تحسستها، كانت يومًا هي مهمتي الأساسية كل صباح.. أن أقف بجوارها أمام تلك النافذة وهي تضع الملابس بالخارج في الهواء الطلق لكي تجف..

أتذكر أنني في مرة لم أنهض ولم تتحرك لي يد في يوم.. لتقف أمامي تنهرني «قومي عشان متجبيش لأمك الشتيمة لما تتجوزي.. قومي ساعديني» ولكني التزمت بالجلوس أمام التلفاز ولا أدري لماذا كل هذا البرود..

فقط لو كنت أعلم..

أنني سأشتاق لتلك المهام..

حتى وإن بدت سخيفة وصغيرة..

كان جسدي ينتفض من على الكرسي وأحوم حولها..

ولكني الآن أقف أمام النافذة، أتمنى لو الزمن يعود بي للوراء.. لأتجول خلفها دون كلل..

خرجت من الغرفة لأذهب إلى غرفة المعيشة..

وقفت في منتصفها.. الأثاث كما هو لم يتغير.. بدا وأنه قد صمد تلك السنوات تحسبًا ليوم كهذا.. ليكون مستعدًا.. مرحبا بي مجددًا..

كانت الغرفة مربعة الشكل.. بها مرآة طويلة تكسو مساحة كبيرة من الجدار.. ليقف أمامها طقم مكون من كنبة وكرسيين.. تلك الكنبة التي كانت فراشي لكثير من الليالي.. ذلك الكرسي الذي اعتاد جدي الجلوس عليه ليقرأ الجريدة أو يشاهد الأخبار على التلفاز وبجانبه كوب من الشاي بلبن والقليل من البقسماط.. كان جدي يعتقد أن هذا هو كرسيه المفضل وغير مسموح لأحد أن يجلس عليه.. ولكن كنا نسبقه على كل حال.. وكان يلتزم بالصمت..

أعتقد أنه كان يكفيه وجودنا حوله.. فقط..

أقبلت على الكرسي الآخر، كان الكرسي الملقب باسمها وغير مسموح لأحد بالجلوس عليه سواها.. كان العرش الذي تربعت عليه جدتي طوال الأعوام الماضية وهي تستقبلنا بصدر رحب..

اقتربت منه لألمسه.. وضعت يدي عليه وشعرت أن رائحتها تطوف حولي في الغرفة..

أجزم أنني لو التفت سأراها تقف كعادته.. تقول محذرة.. «بت.. أوعي تقعدي على الكرسي بتاعي أنا بقولك آهه.. روحي إقعدي على كرسي جدك ياللا..» لنضحك سويًا وسط تأفف جدي من مزاحنا..

أدرت جسدي.. انحيت لأجلس عليه..

شعرت بالسكينة تسري في روحي لتستقر في جسدي معلنة حالة من السلام النفسي..

وضعت يدي على مسنديه.. تمامًا مثلما كانت تفعل دومًا..

لأرفع رأسي وأنظر إلي السقف.. أغمض عيني.. وأتخيل صورتها.. تقف أمامي ضاحكة.. فلقد كانت صاحبة الوجه الأبيض البشوش.. الذي يغرم به كل من يراه لأول وهلة..

كانت روحها كأكسير سحري. يصيب كل من اقترب منها.. فيشعر بالطمأنينة.

أخذت نفسًا عميقًا.. ثم وجدتني أنادي اسمها مرارًا وتكرارًا.. حتى شعرت بنسمات باردة تلفح وجهي، انتفض جسدي فجأة.. لأنظر حولي في ترقب.. ولكني هدأت من روعي عندما ردَدت بداخلي إنني لن أخاف فتلك روحها.. تسبح في المكان..

أو ربما عقلي يعبث بي مجددًا..

جعلت ظهري يستكين إلى الخلف مرة أخرى.. وبقيت جالسة.. أتفقد كل شيء حولي..

أخرجت هاتفي لألتقط صورة سيلفي لي على الكرسي..

ثم قمت بإرسالها لحازم مرفقة برسالة «ده كان مكانها دايمًا». نظرت إلى الصورة مرة أخرى وأنا أبتسم وعيني ترغرغ بالدموع.. أغلقت الهاتف.. وضعته بجواري.. ثم اأحت رأسي قليلًا..

لألمح صورة والد جدي معلقة على الحائط في إطار نحاسي اللون، كان يرتدي جلبابًا يظهر أنه كان له مكانة مرموقة في البلد، فلقد كان العمدة.. ملامحه بدت وكأنني أرى صورة طبق الأصل من جدي..

وما إن تمعنت في تفاصيل ذلك الإطار.. إلى أن اصطدمت بي فكرة عبقرية..

لطالما أدركت حقيقة أنني عندما أرتاح وأشعر بالأمان ولو قليلًا.. أفكر جيدًا..

نهضت مسرعة وأقبلت على باب المنزل.. وقبل أن أغلقه.. التفت لأبتسم وكأنني أشكر الجد والجدة.. على بقائهم بجواري..

حتى وإن لم يكونوا في عالمي حقًا.. بل في خيالي..

ارتطم الباب بقوة ورائي.. أخرجت هاتفي وأنا أهرول على الدرج.. لأضغط على رقم جمال:

- جمال إنت فين.. عايزة أشوفك ضروري.

* * *

الفصل الخامس عشر

«يعني تقريبًا أنا كدة حكيت لحضرتك معظم اللي حصل»..

أنهيت بتلك الجملة حديثي الذي امتد قرابة الساعتين.. كنت قد اتصلت بجمال لأقابله وأطلب منه في استحياء أن أرى والده ونجلس سويًا نتحدث.. لقد كان والده رجلًا ذا خلفية عسكرية.. يقال إنه شارك في حرب أكتوبر، لديه ذكاء حاد ومستوى عالٍ في علم الفراسة.. يستطيع ان يدرس شخصية من يجلس أمامه حتى وإن ظلَّ صامتًا طوال الجلسة، يعرف بالعدل في مكيال الموازين.. غير أن لديه رباطة جأش تجعلك تخر أمامه وتفقد جميع أسلحتك الدفاعية.. عيناه صارمة تظهران أن لديه سرعة بديهة قوية ويهابه كل من اقترب منه.. ولكن قلبه حنون متفهم، يحتوي مشاعرك ثم يهديك إلى الصواب في حكمة.. وقد اقترب عمره من السبعين عامًا، فعمره قد تخطى عمر والدي بعشر سنوات.. وذلك كفيل ليكون هو مربط الجلسة، وقائدها..

لقد كان والد جمال هو الحل الأمثل.. من يستطيع التحدث مع والدي بحكمة وفي نفس الوقت يرسم له حدودًا لن يتخطاها.. فعلى الرغم من فعلة أبي إلا أنه يقدس ويحترم من يكبره سنًا..

أومأ والد جمال برأسه بمعني أنه قد تفهم الوضع وقال بصوت حازم:

ـ وانا مطلوب مني إيه؟

تنتحت في جلستي قليلًا وابتعلت ريقي لأقول في استحياء:

ـ أنا مش طالبة من حضرتك غير وجودك معايا في البيت، أنا محتاجة يكون ليا كبير يعرف يتكلم معاه..

صمت قليلًا ثم أكملت بصوت مهزوز:

ـ أنا عارفة إن طلبي غريب، بس أنا مفيش في إيديا حاجة تانية أعملها خلاص..

ليكمل جمال حديثي قائلًا:

ـ أنا شاهد يا بابا على كل الكلام ده.. وزي ما حكيت لحضرتك كدة، مفيش حل تاني..

لأقاطع جمال قائلةً:

ـ غير إن جدودي الأربعة اتوفوا.. وباقي العيلة محدش عايز يتدخل.. كلهم بيخافوا منه..

فأجابني والد جمال في تعجب:

ـ وبقالكم قد إيه ع الحال ده ومحدش بيتكلم؟

صمت قليلًا أعد الشهور في بالي.. فعندما تكون في وضع مرتاح، لا تحتاج إلى حساب الوقت الذي تمضيه، بل تدع الأيام تمر في سلام.

حوالي ٤ شهور..

ثم أكملت بصوت مهزوز:

ـ حضرتك هتساعدني؟

تنهد ثم قال:

ـ بس يابنتي أنا إزاي هتدخل ما بين واحدة وأبوها.. محدش هيقبل بده..

صمتت للحظة ثم قلت:

ـ إحنا حياتنا كلها مش منطقية أصلا عشان الحل يكون منطقي.. وانا فعلا مليش غير حضرتك دلوقتي بعد ربنا اللي ممكن يخلصنا من اللي احنا فيه ده..

نظر لي والد جمال بتمعن، عدل من جلسته ثم وافق على طلبي، فاتصلت بحازم على الفور لكي أزف له الخبر السعيد وأتفق معه على الميعاد.. فقد توصلنا إلى أن أنسب حل هو أن نذهب اليوم إلى منزل والدي لجلب فريدة.. بعد أن يتحدث كل من حازم ووالد جمال معه.. في كافة الأمور.. ليكونوا رادعًا له.. ولبطش زوجته..

أحتمي بهم.. منهم.

وصلنا جميعًا عند منزل والدي.. أنا وحازم في سيارته.. فأعصابي لم تتحمل القيادة.. وجمال ووالده في السيارة الأخرى..

لوحت لهم من النافذة لكي يتوقفوا.. بينما توقف حازم بالسيارة وأطفأ المحرك ثم التفت لي وقال:

ـ إنتي كويسة؟

أومأت برأسي بلا.. ثم وضعت يدي على صدري في محاولة مني لتهدئتي وأجبته قائلة:

ـ مرعوبة من رد فعله.. ربنا يستر.

ربت حازم على يدي الأخرى التي استقرت على يده دون إدراك مني.

ـ متخافيش.. إحنا معاكي..

التفت لأجد جمال يقف أمامي في انتظاري وخلفه والده مقبلًا علينا، فترجلت وتوقفت أمامهم أحاول أن ألتقط أنفاسي.. ثم قلت:

ـ الشقة في الدور الأول.. عربيته راكنة فهو أكيد فوق.. واحتمال مراته كمان..

ليقول لي والد جمال وهو متجه إلى البوابة:

ـ طيب ياللا.. علي بركة الله

صعدنا إلي البيت، أنفاسي متقطعة، أحاول أن أشهق ليمتلئ صدري بالهواء الكافي ولكن كل ما شعرت به أن جسدي مثلج.. وجهي شاحب اللون وأطرافي لم أعد أشعر بها..

فعلى الرغم من أن الدرج طابق واحد فقط، إلا أنني شعرت بأنني أصعد أطول درج مررت به في حياتي..

حتى وصلنا إلى باب المنزل.. وما إن وصلت أصابعي إلى جرس الباب في حركة بتلقائية مني تعودت على فعلها منذ سنوات.. فلم أتكبد عناء النظر.. شعرت بأسلاك تحت يدي، جرس المنزل قد اقتلع من مكانه.. تملكني شعور الخوف من المجهول.. فأما هي مصادفة عجيبة وقد يكون تعطل عن العمل وقد تكاسل عن تصليحه كعادته.. أو سبب آخر أقوى تجده فقط في أحد الأفلام الهندية..

طرقت الباب على كل حال ثلاث مرات.. ثم رجعت خطوات إلي الخلف.. ولا أعلم لماذا فعلت ذلك.. ولكني شعرت أنني أنتمي لتلك الجهة الواقفة خلفي.. حازم.. جمال ووالده.. شعرت وكأن جسدي يتحرك من تلقاء نفسه محتميًا بهم..

سمعت صوت خطوات بالداخل قد توقفت خلف الباب مباشرة.. فأدركت عندما اسودت العين السحرية في الباب أنه يتفقد الطارق.. ليفتح الباب فجأة..

جسدي ارتعد للحظة عندما رأيته.. فما زلت أهابه.. تيقنت أنها غريزة قد خلقت بداخلي.. مهما احتقرت أفعاله.. سأظل أهابه للوهلة الأولى..

ـ مساء الخير.. كنا حابين نتكلم مع حضرتك شوية..

قالها والد جمال بصوت جاد يميل إلى الخشونة الزائدة في النبرة معلنًا أن الحديث سيكون طويلًا.. فأشار له أبي بالدخول..

دخلت وشعرت بثقل على صدري وكأن الهواء تلاشى من حولي.. أدركت الآن إحساس من يغرق، يغوص في السواد الحالك في أعماق المحيط، يحاول جاهدًا أن يصمد إلي أن تمرد عليه صدره فشهق محاولة التنفس.. وسقط في الاعماق أكثر يختنق ويتوسل لقطرات المياه من حوله أن تتحول إلى هواء..

السفرة اختفت.. التلفاز الكبير اختفى.. الأطر الموقعة غالية الطراز اختفت.. ويبدو أن كل شيء ثمين تلاشى.. فأدركت الآن سبب تلك المكالمات الهاتفية المتواصلة لي من البنوك.. أدركت حقيقة أنه ما زال مديونًا إلى الحد الذي جعله ينتهي من كل أملاكه وميراثه فبدأ بتوزيع قطعة تلو الأخرى من المنزل الذي زيناه بتفاصيل عائلتنا على مدار سنوات حياتنا..

شعرت الآن بأن تلك الجدران ليست سوى منزل أخر في منطقة مدينة نصر.. ليس أكثر من هذا..

لم أشعر بالانتماء إلى هذا المنزل.. فالروح التي غمرته قد اختفت..

وحلت الآن لعنة زوجته عليه..

حتى القطع الصغيرة والتفاصيل التي امتلأت الشقة بها.. قد اختفت..

لم يعد بيتي.

«اتفضلوا».

قالها أبي مشيرًا إلى الصالون.. فجلس والد جمال أمامه على الكرسي وبجواره جمال.. بينما جلست أنا وحازم على الكنبة وجلس أبي على الكرسي أمامنا مباشرة..

ـ طبعًا الأصول بتقول إننا ناخد ميعاد قبل منيجي، بس معلش أعذرنا.

قالها والد جمال ليجيبه أبي بكل برود منتظرًا ما سيحدث:

ـ لا أبدًا.. إتفضل.

ثم نظر لي نظرة شزر وقال.. «قومي إعمليلنا قهوة». لأبادله تلك النظرة..

ـ شكرًا مش محتاجين.. إحنا جايين نتكلم في موضوع معاك كدة وماشيين على طول..

لقد أنقذني والد جمال عندما قاطع أبي.. وبدأوا بالحديث.. وشردت بدوري في الطرقة المؤدية لغرفة نومنا.. فكلما تغوص بنظرك إلى الداخل.. يشتدد السواد حتى تصبح الرؤية شبه منعدمة في آخره.. فنهضت في عجالة.

ـ طيب عن إذنكم ثواني..

أسرعت بالتوجه إلى غرفتنا القديمة.. حتمًا سأجد فريدة بالداخل.. فتحت الباب بقوة حتى ارتطم بالحامل خلفه.. لأرى فريدة تجلس على الفراش وفي يدها قلم وورقة تحاول أن ترسم قليلًا.. في ملل ويأس.. وحولها أطباق بها بواقي طعام من الواضح أنه لا يصلح كغذاء للبشر ولا حتى لساشا.. ترتدي منامتها التي كبرت عليها بعدة أعوام.. تجلس في غرفة متسخة للغاية ذات رائحة عطنة تدل على أن الهواء لم يدخلها منذ أشهر عديدة..

رفعت رأسها وأنا أقف أمامها.. وثبت لتستقر بين ذراعي.. قائلة:

ـ وحشتيني.. وحشتيني أوي يا نالا..

رفعت رأسها فجأة وقالت بعد أن تبدلت ملامح وجهها لتصبح أكثر خوفًا:

ـ إيه ده.. إنتي دخلتي إزاي.. إنتي جيتي إزاي؟

ابتسمت وأجبتها وأنا أرفع خصلة من شعرها قد وقعت على عينيها وقلت:

ـ لمي حاجتك كلها ياللا.. والبسي وخليكي جاهزة، أنا مش جاية لوحدي.. وهروح برضه مش لوحدي. هنروح سوا.. بس قولي يارب..

لم تكمل فريدة الإنصات إلى حديثي بل قفزت على الفور وظلت تركض في أنحاء الغرفة محاولة أن تجد حقيبة كبيرة.. فقلت بتعجب:

ـ هي مراته فين صحيح؟

قالت فريدة باستهزاء وهي تضع ملابسها في الحقيبة:

ـ لا حضرتك ده ميعاد خروجها.. وبترجع على الفجر..

وقفت في مكانها ثم التفتت لي وقالت باستنكار:

ـ أصلها بتخرج مع صحابها..

لأنظر لها بدوري ونضحك سويًا ضحكة شريرة.. «أنا هطلع وانتي خليكي هنا». غادرت الغرفة لأجدهم في منتصف الحديث، فعدت لجلستي السابقة.. بجوار حازم..

ـ واضح من اللي سمعته من حضرتك إن فيه لبس كبير حاصل.. أنا مطردتش حد من البيت ولا حابس حد.. اللي عايز يجي يتفضل..

قالها ابي باستنكار محاولًا أن يخفي توتره ثم أكمل حديثه قائلًا:

ـ يعني هطردها وبعدها أحبسها؟ طب ده كلام يتصدق؟...

ساد الصمت قليلًا ليقاطعه والد جمال:

ـ طيب جميل.. إحنا مش جايين نتكلم في اللي فات، إحنا في اللي هيحصل..

انتبه أبي له واعتدل في جلسته ثم أشعل سيجارة كادت أن تقع من بين أصابعه ولكنه التقطها سريعًا ثم قال:

ـ اللي هيحصل إن نالا هتدخل جوة دلوقتي تنام جنب فريدة عشان الوقت اتأخر وبكرة نبقى نشوف هنعمل إيه.

كانت تلك هي طريقته السحرية التي اتبعها مع جميع أفراد العائلة، طمأنتهم ببعض كلمات توحي بأنك أدركت خطأك ولن تعاود الكرة.. وأن البنات قد افتعلوا الجدال ولكنك تحاول جاهدًا أن تصلح الأمور.. حدثهم بأقاويل كاذبة وراوغ في الحديث.. أطل في حديثك حتى يتوهوا عن غايتهم الرئيسية.. تحايل عليهم حتى يملوا من الحديث معك ويصابوا بالضجر.. حتى ينفد صبرهم فيغادرون وبداخلهم إحساس الاكتفاء أنهم بذلوا كل ما في وسعهم.. نشوة الانتصار أنهم أصلحوا كل شيء..

نشوة انتصار كاذب..

ـ بص حضرتك.. أنا جاي هنا عشان أتكلم بالنيابة عن نالا وفريدة كمان، هما مش مرتاحين هنا في البيت وحابين يمشوا.. واللي نعرفه إن فريدة محبوسة هنا وحضرتك مش حابب إنها تمشي.. مفيش داعي لجدال طويل..

كانت لجملة والد جمال وقع طيب على مسامعي.. هبطت على قلبي أراحته، فلقد تحدث أخيرًا بما يجول في خاطري..

تبدلت ملامح وجه أبي ليصبح أكثر حمرة.. اعتدل في جلسته وأحنى ظهره إلى الأمام ثم قال بصوت عالٍ:

ـ دول عيالي أنا.. محدش ليه كلمة عليهم.. وأنا اللي أقول يعملوا إيه وميعملوش إيه..

شعرت بأن التوتر قد زاد وكأن المحيط يضيق علي.. أنفاسي تعلو.. كل ما أفكر به، إلى ماذا ستؤول تلك الجلسة..

دعوت السماء ألا ييأس والد جمال، أو لا يخضع لوعود نعلم تمامًا أنها ستتلاشى بعد ذهابهم بعيدًا..

رسمت أفضل سيناريو وهو أن يوافق ويستسلم.. آخذ فريدة لننام اليوم في فراشنا في بيتنا الصغير وقلوبنا مطمئنة..

ـ وهيفضلوا عيالك.. بس اللي انت عامله فيهم دا حرام.. إنت مش مقدر النعمة اللي في إيديك، اتجوزت وخلفت ليه من الأول؟

قال والد جمال تلك الجملة بصوت جاد، لتتبدل ملامح وجه أبي ويصبح صادمًا ويقول بصوت منخفض:

ـ عملت إيه؟ أنا معملتش حاجة..

سمعت تلك الجملة كثيرًا.. وددت لو أصرخ في وجهه.. لقد فعلت الكثير..

لقد فعلت الكثير يا أبي..

ـ آهي عندك آهي إسألها..

فالتفتوا لي جميعًا.. حاولت أن أبتلع ريقي، أكتم غيظًا وسخطًا لو ملأ العالم، أريد أن اصرخ.. أريد أن أنفجر بجميع الندبات التي استولت على روحي.. أريد أن أخذ بثأر أمي منه.. أريد أن أبوح بكل شيء.. فأكمل أبي حديثه قائلًا باستنكار:

ـ أهي ساكتة.. عشان معندهاش حاجة تقولها..

قالها باستهزاء رافعًا منخاره في السماء.. ليجيبه حازم:

ـ إحنا مش جايين نتخانق، إحنا جايين نصلح.. يمكن نالا مش قادرة تتكلم زي زمان.. بس..

قاطعه أبي قائلًا بصوت من استعاد الثقة بنفسه:

ـ أعتقد يا فندم إن أنا حر في عيالي، أربيهم زي مانا عايز.. أنا أبوهم وحر فيهم..

من ذلك الأحمق الذي أوهم الجميع أن الأب له مطلق الحرية في اختيار وتحديد راحة أولاده.. فكم من آباء يحملون ذلك اللقب ولكنهم لا يستحقونه..

كان هو أولهم.. وعن جدارة..

شعرت بأنفاسي تعلو.. دومًا عندما أخوض أي جدال لا أستطيع أن يكمل الآخر حديثه إذا قال أي شيء مخالفًا لتفكيري، أنطلق بمقاطعته.. حاولت أن أترك تلك العادة السيئة التي اشتكى منها أحمد دومًا.. ولكني لم أستطع..

فعقلي مبرمج.. عند سماع أي ترهات تقال. يجب أن أرد.

جلست أتذكر كل شيء.. اتذكر لماذا أحتقره إلى هذا الحد.. لماذا وددت أن أصفعه.. تذكرت كل شيء..

أنفاسي تعلو أكثر فأكثر.. لن أستطيع كتمان شعوري أكثر من ذلك..

لا بد أن ترى الحقيقة النور..

سئمت من شعار «بنت عاقة»..

لا بد أن أبوح بكل شيء، مهما كلفني الأمر..

رفعت رأسي ونظرت له مباشرة.. ارتسمت على وجهي ابتسامة والدموع تنهمر على وجتني.. ثم قلت بصوت منكسر:

أنا سكت كتير...

أنا عايزة أتكلم..

* * *

«سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة.. سنة حلوة يا جميل».

تردد صدى تلك النغمة في أذني.. اليوم هو عيد مولدي.. يوم دخولي إلى عالم العشرينيات، أخيرًا سأكون شابة ناضجة، أخيرًا سألحق بمن قابلتهم في العشرينيات من عمرهم ونظرت لهم نظرة تحمل كل معاني الاحترام.. أخيرًا فلتت قدماي من كابوس المراهقة، على الرغم من أنني أتممت العشرين عامًا.. إلا أنني كان بداخلي هاجس دفين يقول لي دومًا.. إنني أكبر من ذلك بكثير.. وكلما مر علي الزمن ازددت تمسكًا بذلك المبدأ.. لقد نضجت مبكرًا.. فلم أعد أهتم بكل أمور المراهقات مثلما تفعل صديقتي مروة، لم تعد تستهويني الأمور السطحية عن الحياة، لم أشعر بالاندماج مع أصدقائي وكأنني نفس الشخص ولكنني رجعت لهم بآلة زمنية وعمري الآن أربعون عامًا..

شعرت بأنني روح عجوز محتبسة في جسد شابة ينظر له بعين لوامة دومًا.. فما زلت صغيرة..

تردد صدى تلك النغمة وأنا جالسة نصف نائمة في فراشي.. أتفقد هاتفي لأستقبل رسائل تهنئة بعيد مولدي على الفيسبوك وأفرح بها.. فكيف تلك الكلمات المكتوبة من وراء شاشة أن تكون كفيلة بإسعادي هكذا.. حتى وأنني متيقنة من أن معظمها قد كتب كتأدية الواجب.. ولكن يكفيني كم الرسائل والصور من أصدقائي.. فلقد دخلت عالم التعليم الجامعي منذ سنتين وقد كبرت دائرة أصدقائي..

ظللت أتنحنح قليلًا في نومتي فلم أرتح، فقررت ترك الهاتف قليلًا ومحاولة النوم.. وضعته بجانبي لأنام على بطني.. حسنًا هكذا مريح أكثر..

التفت لفريدة النائمة بعمق بجواري.. أعشقها حقًا.

فلقد رتبت اليوم حفلًا مفاجئًا لي تضمن جميع أصدقائي القدامى وجميع من تعرفت عليهم مؤخرًا..

بما فيهم.. أحمد.

بذلت فريدة مجهودًا كبيرًا في ترتيب كافة تفاصيل اليوم.. من حجز في كافيه للتحدث مع أصدقائي جميعًا.. لشراء التورتة.. والمجهود الأعظم الذي بذل في وجهه نظري.. أنها استطاعت أن تخفي كل ذلك عني، على الرغم من كشفي لكذبها بمجرد أن أنظر لها نظرة واحدة..

قاطعني صوت باب غرفتي وهو يُفتح.. لا بد أن أشتري زيتًا لأقضي على ذلك الصرير المزعج..

لدي تلك العادة السرية.. أدعي أنني أغط في نوم عميق ما إن يدخل أحد وأنا في الفراش.. ولا أدري مين أين جاءت تلك العادة.. هل لأنني اعتدت كثيرًا في صغري التظاهر بالنوم أثناء زيارتنا لجدتي لكي أقضي الليلة معها.. أم لأنني دومًا تمنيت أن يكون لي قوة خارقة تجعلني أستطيع أن أرى أفعال الآخرين وأنا غائبة لكي أشبع فضولي؟

ربما الاثنين معًا..

بالتأكيد هذا أبي.. فمنذ أن انفصل عن والدتي ونحن نعيش معه في بيتنا الذي ترعرعنا به، وقد رحلت أمي عنه.. ونظرًا لتهديداته الكثيرة لنا.. توعد لنا بأننا إذ اخترنا العيش معها فلن يعطينا مليمًا واحدًا.. وبالطبع لن تقدر أمي على تكاليف جامعتي أو مدرسة فريدة.. أو حتى

مصاريفنا الشخصية.. فوقع الاختيار على العيش معه مجبورين.. وأحيانا مخيرين.. فأمي بذاتها كرهت تحمل المسؤولية.. عندما قررت الانفصال عنه منذ عامين قررت أيضًا أنها لن تتكفل بنا مجددًا.. أتذكر اللحظة التي بكيت فيها لدي سماعي لتلك الجملة.. كيف لأمي أن تعيش دوننا وبتلك السهولة؟ وبقي الحال هكذا..

صوت خطوات أبي تقترب.. سأغمض عيني كأنني نائمة، وبالتأكيد قد نسي شيئًا في غرفتنا فعاد ليأخذه..

على الرغم من جفاء العلاقة بينا منذ رحيل أمي وكأنه يتذكرها كلما رآنا أمامه.. فيبدأ بالشجار وقول الكلام المفترض توجيهه لها.. إلا أن صوتًا خافتًا بداخلي كان يتمنى شيئًا واحدًا.. أن يخذلني تلك المرة.. أن تتحرك به غريزة الأبوة لو للحظة ويغمرني الحنان الذي أفتقده.. فاليوم عيد ميلادي.. فلم يبقَ غيره لنا.. أو على الأقل لا نعيش سوى معه..

انتظرت أن يقبلني على جبيني ويقول لي أحبك يا ابنتي.. لطالما انتظرت تلك اللحظة بين البنت وأبيها.. لحظة من الحب الصافي غير المشروط.. لحظة إدراك أن أول حب في حياة الفتاة هو أبيها.. وأول قدوة في حياتها هو أبيها.. ذلك الأب الذي سيأخذني بين ذراعيه ويطمئن قلبي بأن كل شيء سيكون على ما يرام..

أهرب دومًا من حقيقة أنني كلما نجحت وتعبت في ذلك النجاح.. ليس لإثبات نفسي فقط.. على الرغم من أنني أنكر تلك الحقيقة وبشدة أمام الآخرين حتى فريدة.. إلا أنني تمنيت أن ألمح في عينيه نظرة فخر بي..

فأبي يعد شخصًا جامدًا في المشاعر، لا يظهرها تمامًا.. لا يستطيع البوح بمشاعره، فلا أعلم أتلك خصلة سيئة به أم ذنب المجتمع الذي أوهم الرجال أنهم يجب أن يكونوا مثل الأصنام.. بلا مشاعر.. وأن توتر يبدأ بالصراخ ليغطي على خوفه.. ولكنني أعلم أن بداخله قلبًا صافيًا.. لينا.. سينهمر علي بمشاعر تجعلني أشعر أنني محظوظة بسبب امتلاكي هذا الأب..

دفنت رأسي أكثر في الوسادة.. وعقلي سابحًا في أفكار وردية عنه.. ألتمس له الآلاف من الأعذار عن كونه ليس الأب المثالي وأصبر نفسي فأنني على الأقل أعيش بجواره.. أصبر نفسي بأن أفعاله مجرد ردود أفعال لا نية سيئة منه..

شعرت بيده تمتد لتلامس ظهري.. حسنًا.. سيربت علي حتى أطمئن..

اطمئني يا نالا.. والدك هنا بجوارك..

حاولت أن أخفي ابتسامتي خلف الوسادة.. فلقد ارتاح قلبي وكأن السماء قد لبت نداءه..

حتى شعرت بملابسي ترتفع إلى الأعلى..

ببطء..

للوهلة الأولى، شعرت بأن شيئًا ليس على ما يرام يحدث.. لا أدري لماذا بث الرعب في قلبي، على الرغم من كونه أبي.. ولكني عاودت الهدوء.. لربما سيربت على ظهري قليلًا.. أخيرًا قد أدرك أنني أعاني من أوجاع مستمرة.. وجاء ليدللني قليلًا.. بعد يوم شاق..

اختلقت له العذر..

أصبح ظهري عاريًا تمامًا..

التمست له العذر..

بدأت يده تلامس جسدي في شهوانية..

لم أستوعب ما يحدث.. ظننت أنني في كابوس ويجب على أن أفيق.. شل جسدي تماما عن الحركة.

أخذت يديه تفرك في جسدي.. أسرع فأسرع..

لست نائمة وليس حلمًا قبيحًا.. أنا مستيقظة.. أعي ما يحدث ولكن عقلي رافض أن يصدق، كتمت أنفاسي..

عقلي يعبث بي.. لم أعرف ماذا أفعل.. أستدير وأصفعه.. أمام أكمل في تمثيلي بأنني نائمة..

لن أقو على النظر في عينيه في تلك الحالة..

ولن أستطيع مواجهته..

يده تهبط..

إلى الأسفل..

ماذا يحدث..

أصبحت عارية بالكامل.. من نصف ظهري إلى ركبتي..

أغلقت عيني وادعيت أنني ما زلت نائمة.. نائمة؟ تمنيت لو أنني ميتة..

تمنيت أن يكون مجرد كابوس قذر وسوف أستيقظ منه الآن..

ولكنني علمت أنها حقيقة عندما لامست شفتاه ظهري.. شعرت بنفسه.. على جسدي وكأنها نار تحرقه.. تشوه معالم الأنوثة به.. وتملؤه بندبات لن تشفى.. مهما حدث..

أخذ يقبل ظهري وصولًا إلى الأسفل.. ويداه تعصران جسدي..

جسد ابنته..

ظللت ثابتة، حابسة دموعي وصراخي.. لماذا؟ ظننت أنه ربما الاحتياج اللعين الذي يصاب به الرجل بعد طلاقه وانقطاعه عن الجنس، تلك الطاقة المكبوتة، تلك الرغبة اللعينة..

ولكن حلها كان سهلًا أمامه.. زواجًا آخر.. أو حتى أنثي يفرغ معها طاقته مقابل مبلغ مادي..

لماذا ابنتك؟ تركت نساء العالم لتفرغ طاقتك في ابنتك؟ أي مرض هذا؟ وأي وحشية هذه؟

أو ربما لأنني ألبس ما يشاء لي في منزلي.. حتى وإن كان قصيرًا؟ هل هذا هو السبب؟ لا.. بالتأكيد لا.. هذا أبي.. أنا من صلبه وهو من أنجبني.. مستحيل.

لعنت كوني أنثى في تلك اللحظة.. ولعنت جميع الآباء..

أريد أن أنتفض سريعًا ولكني أدركت أن يده ستنهال على وجهي بلطمة قوية.. ولن يصدقني أحد..

لن يصدقني أحد..

قطع أفكارى صوت تنهيدة فلتت منه.. فسرى في جسدي قشعريرة لم أعهد لها مثيلًا.. فبقيت كجثة هامدة.. كغزال تنظر إلى السماء بعد أن كانت وليمة لأسد متهيج من الجوع..

أثرت الصمت على الالتفاف له.. لن أقو على رؤيته هكذا.. لن أنسى تلك الصورة مهما حدث.. فأنا يكفيني بشاعة ما أشعر به.

ولن أبوح فلن يصدقني أحد..

لا أعلم صمتي سببه الخوف منه أم الخوف عليه..

كل ما أعلمه..

أن جزءًا مني قد مات الآن..

تنحنحت فريدة في نومها قليلًا.. فذعر وظن أنها استيقظت.. ليفر هاربًا خارج الغرفة..

تاركًا وراءه روحًا ماتت..

جسدًا قد شوه..

عينين لن تنام ليلًا..

ألـمًا لن أشفى منه..

أبدًا..

* * *

الفصل السادس عشر

كَسَهمٍ انطلق من الرمح يصعب عليه العودة..

ـ أنا سكت كتير..

أنا عايزة أتكلم..

التفتوا لي جميعهم.. وعلى وجوههم علامات التعجب والدهشة.. فلقد حذروني مرارًا طوال الطريق أن ألتزم الصمت إذا كنت سأحضر تلك الجلسة.. وأن أدع الفرصة في الحديث لوالد جمال احترامًا لوجوده ولحازم أيضًا بما أنها جلسة رجال..

ولكني المعنية.. وهذا شأني.. لن أصمت..

تغيرت ملامح والد جمال ليبدو الندم على وجهه لموافقتي.. بينما التفت لي حازم وقد أشار بيده خلسة بمعني ألا أتحدث بعد أن نظر لي نظرة تدل على وجوب صمتي الآن..

فلقد سرت تلك الإشاعة السخيفة عني أنني عندما أكون تحت وضع ضاغط ومتوترة، يبدأ فمي في قول ترهات ليست في محلها..

ـ أنا مش هتكلم ف اللي حصلنا..

ثم صمت للحظة وأشحت بنظري تجاه أبي لأقول بصوت محذر:

ـ أو اللي حصلي..

أنا عايزة أتكلم في اللي جاي..

ليقول لي باستنكار:

ـ وإنتي حصلك إيه يعني؟ مانتي عايشة عيشة غيرك يحلموا بيها..

ابتلعت ريقي ثم وجهت له الكلام مباشرة قائلة:

ـ محدش يتمنى كل الأذى اللي انت عملته فيا.. ولا هيحب إنه يُنتهك بالمنظر ده.

فقاطعني والد جمال ليقول بصوت متردد:

ـ حصلك إيه يا بنتي.. إحكي.

فثار أبي وصرخ قائلًا:

ـ دي كدابة.. إنتي مريضة يابت إنتي، وكل حاجة بتقوليها كدب..

ظلت عينياي مثبتة على أبي لأكمل حديثي بصوت صارم:

ـ أنا لسة متكلمتش.. بس كان يوم عيد ميلاي.. فاكر؟ ولا تحب أحكي؟

ساد الصمت للحظات، لأقطعه قائلة:

ـ آهه أنا من اليوم ده.. وأنا معتبرة أبويا مات ومليش أب..

لفت نظري وأنا أتحدث اهتزاز رجله في توتر.. نادرًا ما يفعلها.. دومًا ما يكتم مشاعره ويسيطر على ألا تظهر..

أعتقد أن قواه في المقاومة قد خارت.. وأنه على وشك السباب في وجهي كي لا أبوح.. لمحت في عينيه نظرة توسل بألا أقول ما يجهله جميعهم وأهز مكانته.. فأكملت حديثي بصوت صارم:

ـ أنا وفريدة.. طلبنا بسيط جدًا..

ليقاطعني أبي بصوت عالٍ، في محاولة منه تبدو الأخيرة لكي يسترد قوته.. بدا كالضحية التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. فقال:

ـ طلب؟ طلبات إيه يا أم طلبات... خشي انجري جوة على أوضتك.

ليتدخل والد جمال قائلًا بصوت جاد:

ـ يمكن لو سمعناها نوصل لحل.. خليها تتكلم ولو قالت حاجة غلط أوعدك إن أنا اللي هقولها تدخل جوة..

ثم التفت لي قائلًا.. «كملي يا نالا.» لأومئ برأسي موافقة.. ابتسمت في خيالي ومنعتها عن الظهور على ملامحي، فلقد سمح أخيرًا شخص ما لي بالحديث.. ولقد كان اختياري له على صواب..

أو بالأحرى..

نفحات جدي وجدتي في بث ذلك الحل لي..

نظرت لأبي مجددًا مباشرة ثم قلت بصوت هادئ:

ـ إحنا كل اللي عايزينه إننا نعيش في سلام.. ربنا كرمك بزوجة وابن منها طول عمرك كنت بتحلم بيه.. يعني عيلة مش لوحدك..

غير طبعًا ابنك الأولاني اللي هيكون معاك لو احتجت حاجة..

بس ياريت تبقى تقوله يبعد عن طريقي أحسنله عشان أنا مبتهددش.. مش أنا اللي عملت الغلط فهتكسف منه قدام الناس وأخبيه لسنين.. ولا أنا اللي روحت أخلف من رقاصة

واضطريت أتجوز صالونات بعدها عشان أخبي العار ده..

صمت قليلًا ثم قلت بصوت أقوي.. لا أعلم من أين جاءت تلك الثقة.. أظن أنه كتمان السنوات قد بدأ في الظهور الآن..

- كل اللي إحنا محتاجينه إننا نركز في حياتنا.. ننجح في شغلنا.. نعيش في استقرار.. ننام واحنا مطمنين..

ليقاطعني بصوت مهزوز:

- وانتي مين اللي علمك لحد منجحتي وبقيتي بني أدمة؟؟ ما هو أنا وأمك..

لابتسم ثم أجيبه:

- وعمري ماقدر أنكر ده.. الفضل ليكم. بطريقة ما.. ليكم..

أنا مش بنت عاقة زي ما بيبان.. أنا واحدة عايزة تعيش مرتاحة ودي أبسط حاجة..

صمت قليلًا لأبتلع ريقي ثم قلت:

- ولو انتوا أحسن عيلة في الدنيا.. فحنا أوحش ولاد في الدنيا..

ولو انتوا أوحش عيلة في الدنيا.. فحنا عايزين نبعد عن أي أذى ممكن يحصل..

لمحت سريعًا حازم.. لا بد أن أرى الموافقة في عينيه لكي أتمسك برباطة جأشي.. لأرى على وجهه أعظم ابتسامة في العالم.. بينما جلس والد جمال يستمع لي باهتمام.. ويومئ برأسه كل حين بالموافقة.. حتى قاطعني قائلًا:

- وطبعًا إحنا مش بنقول إن فيه حد وحش.. إحنا بس عايزين نوصل لحل يرضي جميع الناس.. وفي الأول وفي الآخر هما عيالك..

رجعت بنظري مرة أخرى إلى والدي بعد أن أدركت جملة والد جمال «هما عيالك». التي جعلتني أستشيط غضبًا بطريقة فاجأتني.. لأقول في اندفاع:

ـ مع إننا في الحقيقة عيالك على الورق وبس..

كنت فين وأنا بفسخ خطوبتي وطلعان عيني؟ ولا كنت فين لما فريدة تعبت وجريت بيها ع المستشفى الفجر وكنت لوحدي ومحتاسة؟ طب كنت فين في أي نجاح لينا؟

أدركت حقيقة أني اندفعت على الرغم من وعدي لنفسي أنني لن أقع في ذلك الشرك.. فهدأت قليلًا ثم قلت بصوت منخفض:

ـ أنا عمري مهنسى أي حاجة حصلت.. فيه حاجات مع الوقت كدة.. وجعها بيقل آه، بس بتفضل سايبة علامة طول العمر..

لمحت فريدة تقف خلفه.. تستمع إلى حديثنا خلسة في ترقب، فقلت في ثقة:

ـ أنا هاخد فريدة معايا وانا ماشية.. إحنا عايزين نفتح صفحة جديدة..

هممت بالوقوف معلنًا أنني انتهيت من كلامي.. فلقد قد بدا على وجهه علامات الصدمة الممزوجة بالاستسلام.. لن يستطيع فعل أي شيء بتهور.. لن يستطيع صفعي أو جذبي من ملابسي بالقوة.. احترامًا لوجود والد جمال.. وهذا ما تمنيته..

وقد حدث..

لقد بحت بكل شيء..

وطبعًا حضرتك معاك رقمهم لو محتاج تتصل فأي وقت..

قالها والد جمال ويبدو عليه أنه ينهي الجلسة بحديث سطحي، لكني لن أسمح بأي كلام أنا أعلم تمامًا أنني غير مقتنعة به.. ولن ألتزم به..

لن أصمت..

لأ..

ـ أنا عشان ربنا.. هكون موجودة في حاجتين بس..

المرض والموت.. غير كدة.. خلينا بعيد أحسن..

التفت لألتقط حقيبتي ثم أشرت لفريدة بيدي بمعنى أنه قد حان وقت الذهاب.. ليقفوا جميعًا ويتصافحوا..

وأغادر أنا رافعة رأسي.. فلقد قلت كل ما كنت أنكر وجوده.. لقد وضعت عقلي في موضع التحدث.. لقد أفادتني سنوات الحياة معهم لأنال القليل من الحكمة ورباطة الجأش التي جعلتني أتحمل ذلك الموقف.. وأمضي في حياتي..

كل ما مررت به أحصد نتيجته الآن..

أقبلوا جميعًا على الباب مستعدين للذهاب.. وخلفهم أبي.. كان وجهه محتقنًا، صامتًا.. غير مبالٍ.. إلا بشيء واحد فقط..

ذلك السر..

عانقت فريدة التي اقتربت من الباب بدورها.. لأقول:

ـ جبتي كل حاجة؟

لتومئ برأسها بنعم.. فربت على ظهرها وأشرت بيدي لكي تمشي هي أولا.. ثم التفت له.. نظرت له مباشرة وقلت بصوت هادئ:

ـ جملة نفسي أقولهالك من زمان..

فاكر لما كنت صغيرة.. كان دايما العيلة بتسألني، نفسك تتجوزي واحد زي بابا؟ فاكر كنت بسكت إزاي.

لم يرد.. لقد اكتفى بالنظر لي، فقلت بصوت جاد:

ـ كنت برفع الحرج عنك.. بس الإجابة اللي كانت جوايا وكل ما بكبر كنت بكتشف إنها كانت أصح حاجة حسيت بيها..

صمت ثم اقتربت منه حتى كادت أجسادنا تلتصق.. لأقول بصوت حازم:

ـ مستحيل..

لم أنتظر منه إجابة.. ولم أبالِ أن أعرف ردة فعله..

صفعت الباب خلفي.. وهبطت السلم سريعًا..

كهبوط دموعي..

على وجنتي..

* * *

«يا عيال جيبتكلم عروسة جديدة»

ركض أبي ليختبئ من صراخ أمي في الغرفة في حماس مشتعل..

«كفاية لعب بقي.. هاتبوظ العيال كدة».

قالتها أمي بصوت عالٍ في استنكار.. بينما أسرعت أنا بغلق الباب خلفنا وفريدة عانقت أبي.. وقفنا أمام الفراش نضحك بشدة ونحن نتأمل الدمية الجديدة التي شاهدنا إعلانًا عنها على التلفاز منذ يومين..

* * *

«إنزلي ورايا.. عاملك مفاجأة»

قالها أبي وهو يهرول باتجاه الباب وعلى وجهه ابتسامة من اشترى للتو هدية.. ركض كالهادي الذي ينتظر متشوقًا ردة فعل المهدي إليه.. فلقد كنت أعاني من آثار اكتئاب حاد إثر وفاه جدتي.. توقفت وقلت له بتعجب:

ـ ده إيه ده!

وقف أبي مشيرًا إلى سيارة جديدة وهو يضحك:

ـ عربيتك.. مبروك عليكي..

* * *

«وهات شريط الكارتون ده كمان عشان نالا».

قالها أبي لصاحب متجر إيجار شرائط الفيديو، كانت عادة لدينا.. كل عطلة أسبوع نذهب سويًا.. أنا وأبي وأمي لذلك المتجر لكي نقف أمام أرفف كثيرة مزينة بشرائط عدة.. نختار فيلمين للكبار فقط.. وفيلمًا لي.

طفلة لم يتعد عمرها الخمس سنوات.. وقفت بجواره.. أبتسم وأنا رافعة رأسي له..

* * *

«دوري عليه.. والله ما هتلاقيه».

قالها أبي وهو يركض كالطفل في منتصف الصالة بعد أن خطف هاتفي من يدي مازحًا.. وقام بتخبئته، لأوبخه بمزاح قائلة:

ـ يا بابا ياللا بقى.. هو فين.. فريدة هاتي موبايلك هرن عليه.

ليجيبني بضحكة سخرية وهو ينطلق إلى الجانب الآخر من الصالة:

ـ عملته silent..

ثم انطلق في اتجاه الغرفة.. لأركض خلفه وأنا أضحك بشدة متوسلة إياه..

* * *

«أنا قاعد هنا بقى أما اشوف ولاد الكلب اللي شتموكي دول».

قالها بعد أن حدثته نالا عن مجموعة من الشباب قد تناوبوا بالسباب تحت صورة كنت قد وضعتها على صفحة الإنستجرام.

ـ خلاص يا بابا.. اللي حصل حصل..

ليلتفت لي قائلًا ممسكًا الهاتف:

ـ أنا هتصل بالمحامي أعملهم قواضي.. هاتي أساميهم..

* * *

جلست أنا وفريدة في سيارتي وقبل أن أدير محرك السيارة.. نظرت لها قائلة بصوت حنون:

ـ مش قلتلك طول مانا عايشة.. محدش هيجي جنبك..

دومًا ما تخفي فريدة حقيقة ما تشعر به، حتي لقبت بلقب ظالم أنها جامدة المشاعر.. مع أن الحقيقة هي العكس تمامًا..

فريدة تستطيع أن تترك انطباع أنها قوية.. صامدة ولن تنطلي عليها أي حيلة.. ولكن بداخلها طفلة صغيرة ما زالت تسعى في الكون الواسع راجية أن تجد الأمان.. وتستريح قليلًا..

هي فقط بارعة في عدم الإظهار.. تصاب بمرض الكتمان والكبت.. ولكن بداخلها، إما طفلة تصرخ.. أو بركان يثور.

أنا هموت واستحمي.. ما نروح لزهرة عشان أستحمي.

أجبتها وعلى وجهي ابتسامة صغيرة:

ـ ركبت السخان من يومين.. إستحمي براحتك..

لتقول بصوت ساخر:

ـ يارتني كنت مشيت من زمان ياختي..

لطالما كانت لدينا تلك الموهبة في تغيير الوقائع والمواقف.. كانت لدينا البراعة الكافية التي تجعلنا ننسى ما حدث للتو ونبدأ صفحة جديدة حتى وإن كنا نتألم.. نلتفت إلى الحاضر وندع جراحنا تلتئم في صمت.. لقد اعتدنا التمثيل على كل من حولنا، أخذنا عهدًا

سريًا بأننا لن نسمح لأحد أن يرمقنا نظرة شفقة.. لذلك، كانت لدينا تلك الموهبة في تغيير الحديث.. والتعامل.. وكأن شيئًا لم يكن..

أدرت محرك سيارتي.. ثم بدأت في الانطلاق..

ـ جميل أبو جمال أوي.. جميل كدة وكلامه حلو..

قالتها فريدة وهي تعبث بهاتفي كعادته.. لتعطيني إشارة غير مقصودة أنها ستتولى اختيار الأغاني التي تناسب حالتها المزاجية..

ـ أنا حضنته لما نزلنا.. مش شكرته وبس.. ولو عليا أكلمه أشكره كل يوم واللـه.. هو آه متكلمش كتير.. بس وجوده خلاني أقول اللي أنا عايزاه من غير ينزل بكف إيديه على وشي يخرسني.

فالتفتت لي فريدة وعلى وجهها علامات التعجب قائلة:

ـ هو إيه اللي حصل صحيح؟ قولتوا إيه؟ أنا جيت سمعت الكلام في نصه..

لأبتسم واقول:

ـ قدامنا طريق طويل.. هحكيلك أكيد.. بس أشم نفسي كدة..

أتعجب دومًا من هذا النوع من البشر القادر على الصمود أمام المعركة، ليخرج منها لديه الطاقة على الحديث عنها.. شعرت وكأنني في حاجة إلى نصف ساعة على الاقل لألملم شتات عقلي وأرتب الأحداث في عقلي.. وأعدل من الصيغة التي يجب أن تحكى بها.. أسترجع ما قيل وأتذكر ردود الأفعال.. فعند الحديث، أفضل أن أسرد كل ما حدث بأدق التفاصيل.. حتى وإن كانت تحركات بسيطة من يد الآخرين.. أحب أن أقص على الناس القصة كاملة دون نقصان.. وبما أنه يتطلب جهدًا ولو قليلًا.. أفضل الصمت لساعة قبل ان أبدأ في السرد..

ـ مش عايزة أعرف اللي حصلك الفترة اللي فاتت.. فترة وعدت خلاص.. ولا حابة تحكي؟

قلتها في إشارة مني بأنني أريد معرفة كل شيء، ولكني دومًا أقولها في هيئة سؤال متردد وأظل منتظرة الإجابة في ترقب، فهي ذلك الشخص الذي عندما تسأله السؤال بطريقة مباشرة عما حدث فلا يفضل الإجابة.. قائلًا سوف أتحدث فيما بعد في الوقت المناسب..

لدى فريدة قناعة غريبة أنها مهما تحدثت لن يفهمها أحد.. وأنها تفشل في كل مرة حاولت فيها أن تفسر حقيقة مشاعرها..

غير مدركة انني لا أحتاج لسماعها..

فعيناها كافية لي لأعرف كل شيء..

ـ بعدين بقى.. أنا بس محتاجة آخد شاور وآكل وآريح كدة شوية.. ساشا عاملة إيه صحيح؟

فلتت مني ضحكة.. ثم قلت بسخرية:

ـ بتفكريني ليه طيب؟ قاعدة متجننة من ساعة ما مشيتي وكل يوم تفضل مستنية جنب الباب لحد ماجي أنام فتفقد الأمل وتيجي تنام جنبي..

تبدلت ملامحها لتصبح أكثر هدوءًا:

ـ يا قلبي.. أنا راجعلها آهه..

التفتت فريدة إلى هاتفي، ألمح إصبعها يجري بين الأغاني في حيرة من أمره.. ليستقر على أغنيتنا المفضلة

Kelly Clarkson ـ Piece by piece

ـ إنتي عملتي إيه الفترة اللي فاتت.. حصل حاجة جديدة مع أحمد؟

التفت لها في سرعة لأرمقها نظرة صدق.. لأعاود النظر إلى الطريق مجددًا ثم أقول بصوت جاد:

ـ هتصدقيني لو قلتلك إني خفيت؟

عارفة إني مش هنسى.. وهفضل موجوعة.. بس وجعي منه خلاص راح.. اللي فاضل بس وجع إني كنت عروسة.. والتفاصيل دي كلها..

أومأت برأسها وظلت صامتة لأكمل حديثي:

ـ أنا عارفة إني مش هتجوز.. وابتديت أتقبل الفكرة دي خلاص..

حاسة إني من الناس اللي اتكتب عليها تعيش لوحدها وسط كام حد كويس كدة وخلاص..

سادت لحظة صمت فكسرتها بصوت مهزوز لإزالة التوتر قائلة:

ـ فاكس بقى الموضوع ده.. إنتي فايتك بلاوي والله.

انتفض جسدها لتميل علي وتقول بصوت خائف:

ـ فيه مصيبة حصلت؟

لأقاطعها قائلة بصوت هادئ:

ـ يا ماما لأ.. إهدي في إيه.. ربنا ما يجيب حاجة وحشة.

كنت هقولك إنه بعت فلوس العفش اللي اشترناه.. مبلغ محترم يعني هيسند شوية..

ولإن جاتلي مكالمة الصبح اعتبرتها علامة حلوة..

لتقول في فضول:

ـ مكالمة إيه؟

صمت للحظة لزيادة التشويق ثم قلت وأنا أضحك بجانب فمي:

ـ سفرية.. أنا وانتي.. وفيها مبلغ حلو كمان..

تغيرت ملامحها فجأة لتبدو كطفلة فرحة بالحلوى.. قائلة في حماس:

ـ بجد؟ اللـه.. طب ياللا عشان نلحق نظبط كل حاجة..

صمتت قليلًا كمن تذكر شيئًا، ثم أكملت حديثها بصوت جاد:

ـ إيه ده ثانية واحدة.. عملتي إيه في الشغل؟

ضغطت على المكابح.. لقد وصلنا المنزل أخيرًا.. أطفأت المحرك ثم التفت لها قائلة:

ـ مش وعدتيني إنك هتساعديني! ياللا عشان ورانا شغل كتير..

فتحت باب السيارة وما إن هممت بالنهوض حتى رجعت سريعًا وقلت لها:

ـ عايزة أقولك حاجة صحيح.. أنا غبية..

رمقتني نظرة تعجب ثم قالت بتهكم:

ـ إيه الجديد في كدة ما كلنا عارفين..

لم أعطها ردة الفعل المناسبة لذلك المزاح، فتغيرت ملامحها لأقول:

ـ غبية عشان افتكرت إنك مش عايزاني.. ومش عايزة تعيشي معايا..

بس اكتشفت..

إننا مهما حصل..

مينفعش نبعد عن بعض..

ومش هنسمح لأي حد.. مهما كان مين. إنه يدخل ما بينا ويفرقنا..

* * *

الفصل الأخير

مر أسبوع كامل على مجيء فريدة إلى المنزل.. قضي في شراء قطع أثاث جديدة للمنزل، فالحالة المادية قد استقرت نوعًا مًا بعد أن حصلت على موافقة العديد من الحملات الدعائية ووليتها جزءًا كبيرًا من اهتمامي واستطعت أن أتفرغ لها، وانغماسي في العمل.. ذلك الإعلان المنتظر تقديمه.. تلك الفرصة التي يجب علي اغتنامها..

ـ هتعملي إيه انهاردة؟

قلتها وأنا أهرول بين الصالة وغرفة النوم أحاول أن ألتقط حاجياتي استعدادًا للذهاب.. لتقول فريدة وهي تشاهد التلفاز:

ـ ولا حاجة.. قاعدة في البيت انهاردة، وساندرا احتمال تيجي تقعد معايا.. لسة مش عارفة..

التفتت لي لتكمل حديثها:

ـ إنتي نازلة خلاص؟

توقفت أمامه وأنا أتفقد ملابسي وقلت بصوت متوتر:

ـ آه، خلاص.. بقولك إيه شكلي حلو؟

تمعنت النظر من أول رأسي إلى قدمي ثم قالت:

ـ آه حلو.. بس غيري الشنطة.. خدي بتاعتي البني، هتلاقيها على السرير.

أسرعت بالذهاب إلى الفراش لألتقط حقيبتها وأنا أكمل حديثي بصوت عالٍ كي تسمعني:

ـ إدعيلي.. أنا قلقانة أوي، يا رب يعجبهم..

لتقول لي وأنا أقبل عليها مجددًا بصوت هادئ:

ـ هتعملي حلو متخافيش.. مش إنتي واثقة من فكرتك؟ يبقى حلوة..

وقفت أمام المرأة كي أعدل خصل شعري ثم قلت:

ـ ما هو أنا اللي قالقني إنها متدخلش دماغهم..

التفت لها ثم قلت بصوت منخفض:

ـ أنا عارفة إن دماغي دايمًا بتروح للحاجة اللي مش trend.. فخايفة يكونوا هما عايزين حاجة تقليدية كدة وخلاص..

قاطعتني قائلة:

ـ نالا، متفكريش كتير.. لو عايزين حاجة عادية مكنوش هيشوفوا حد جديد يعملها..

بدا حديثها منطقيًا للغاية، فأومأت برأسي وأكملت لملمة الأشياء داخل حقيبتي.. ثم وقفت في منتصف الغرفة ناظرة إليها لأقول:

ـ ها.. شكلي حلو؟

ضحكت فريدة بملل ثم قالت:

ـ يا ستي أيوة.. إنزلي ياللا وطمنيني عليكي كل شوية.

أخذت حقيبتي ثم انطلقت..

قدت مسرعة لألحق ميعادي.. فقد قال لي مديري في العمل الذي التحقت به فور تخرجي «عايزة الناس تحترمك في أي شغل.. روحي قبل الميعاد بربع ساعة».. فضغطت بقوة على دواسة السرعة.. أمامي فقط عشرين دقيقة لأصل.. أي قبل الميعاد المحدد بخمس دقائق..

طوال الطريق كنت أفكر وأتخيل ردود أفعالهم عندما أنتهي من الحديث عن فكرة الإعلان.. دومًا أتخيل ردود أفعال الاخرين حسب ما أشعر، لتأتي مكملة للخطة المحكمة في عقلي إلى اي درجة سأنجح.. ولكن لا أعلم لماذا لم تنجح تلك التخيلات معي الآن.. لماذا أتخيل وجوههم المحبطة.. واستماعي لحديث ممتلئ بكافة السقطات في فكرتي.. لأنظر إلى وجهي في مرآة المكتب وأجدني أرحل وأنا أجر أكوام من خيبات الأمل خلفي..

نفضت رأسي وكأنني أخرج تلك الأفكار السلبية منها.. توقفت في الإشارة المرورية فانتهزت الفرصة لكني ألمح عينيي في مرآة السيارة لأتحدث معي بصوت منخفض كي لا أخيف المارة حولي.. «إنتي قدها.. إجمدي.. دي فرصة عظيمة وهتفتحلك مجال شغل كتير.. إنتي قدها». ليقاطعني ضوء الإشارة الأخضر.

You have arrived

عندما أتوتر.. حتى وإن كنت ذاهبة إلي المنزل.. أفضل أن أقود وراء تطبيق الاتجاهات الخاص بهاتفي.. فعقلي يكون مشتتًا وآخر ما ينقصني أن يكون به جزء ولو صغير مشغولًا بتذكر الطريق.. أريده خاليًا تمامًا من أي عوامل لها تأثير على وظفيته..

التذكر..

قاطع أفكاري صوت هاتفي، التقطه من جيب البنطال بعد أن كنت هممت بالرحيل من السيارة لأجد فريدة تتصل.. سوف أتأخر ولكني لا أستطيع عدم الرد عليها.. غريزة الأمومة تتحرك بداخلي في تلك اللحظة، حتى وإن كنت غاضبة منها يجب أن أرد.. فلا أدري لربما هي في ضائقة وتحاول الاستنجاد بي..

ـ أيوة يا فريدة.. في إيه بسرعة أنا وصلت..

جاءني صوتها مهزوزًا للغاية لتقول:

ـ فيه حاجة حصلت لازم أقولك عليها عشان لو زهرة كلمتك..

قلت لها:

ـ قولي، إنجزي..

سمعت صوت أنفاسها الممزوج بالتردد:

ـ هقولك بس إسمعيني للآخر.. ماما لسة قافلة معايا دلوقتي..

في البداية ظننت أنني لم أسمع جيدًا، ولكني أدركت أنها الحقيقة فقلت بتعجب:

ـ ماما؟ ماما إزاي يعني؟ إيه حصل؟

صمتت قليلًا كمن يحاسب نفسه على تسرعه في الحديث ثم أكملت حديثها قائلة:

ـ كلمتني عشان تقولي إنها هاجرت مع جوزها ومش راجعة قبل خمس ست سنين.. فكانت بتقولي خلوا بالكم على نفسكم وكدة.

خرج صوتي حادًا لأقول:

ـ ولسة دلوقتي عارفة إن ليها عيال ويخلوا بالهم من نفسهم؟ بعدين كملي.. جابت سيرتي.؟

ترددت فريدة ثم قالت بصوت منخفض «بصراحة لأ»، لتكمل بصوت أعلى قائلة:

ـ أنا أصلًا عرفت الموضوع من زهرة.. هي كلمتها فجأة تصالحها وتقولها إنها مهاجرة، بعد كدة كلمتني بعدها بشوية.. عشان زهرة حكيتلها على كل اللي حصل لينا.. واتصدمت بقى..

كانت فاكرة إننا ولاد كلب وزبالة وأبوكي كان مفهمها كدة.. لحد ما زهرة قالتلها كل حاجة..

أخذت نفسًا عميقًا.. لمحت الساعة الداخلية للسيارة، لقد تأخرت عن ميعادي فقلت على عجالة:

ـ المعني الحقيقي ل it’s too late، ياما قولتلها متصدقيش كلمة منه ونا مش بكدب عليكي.. هي اختارت إنها تصدقه وتقلب علينا معاه.. براحتها..

غير معلش يعني..

توقفت عن الحديث بعد أن تحشرج صوتي ثم قلت:

ـ أنا مش هقدر أنسى احتياجي ليها وأنا بفسخ الخطوبة.. وأنا مافرقتش معاها.. ولا عبرتني..

فريدة، أنا لازم أقفل طيب عشان متأخرة..

ترجلت من سيارتي.. بعد أن التقطت حقيبتي لتستقر على ظهري.. رغم الآلام المبرحة التي أشعر بها من كثرة الوقت الذي أمضيته وأنا أجلس جلسة غير مريحة أمام جهاز الحاسوب.. أوصدت الباب.. وقفت قليلًا أشاهد نفسي على زجاج السيارة.. ابتسمت في ضيق..

فقد كان آخر شيء أود سماعه هو ذلك الخبر قبل موعد العمل.. الذي أعلم جيدًا أنني سأفكر فيه كثيرًا..

نظرت إلى الأعلى.. وانطلقت في اتجاه البوابة الرئيسية.. أسمع نبضات قلبي في أذني بصوت عالٍ معلنة قمة توتري.. كلما اقتربت من المصعد شعرت وكأنني أود أن تبتلعني الأرض لأجد نفسي في النصف الآخر من الكرة الأرضية.. أحتسي مشروبًا على الشاطئ وأنعم بدفء أشعة الشمس على جلدي..

ولكني الآن في طريقي إلى تحديد مصير مستقبلي..

* * *

جلست على الكرسي لأكون في مقدمة الطاولة.. خلفي شاشة كبيرة لعرض الفكرة بعد أن تم توصيلها بجهاز حاسوبي.. ويجلس أمامي ثلاثة أشخاص.. صاحب الشركة.. مدير التسويق للشركة.. ومدير العلاقات العامة..

كانوا ثلاثة رجال ينفردون بالزي الرسمي الفخم ليدل على أن لهم شأنًا كبيرًا.. علي الرغم من عملهم بجانب شباب قد تخرجوا من الجامعات للتو ليلتحقوا بالعمل في شركتهم.. إلا أنهم التزموا بزي رجال الأعمال.. لا أدري أذلك تقليدي وعادة يومية.. أم هو ترحيب بقدومي وذلك لعظمة وكبر أهمية ذلك الموعد..

أخذت عيناي تسبح.. احاول أن ألملم بعضًا من التفاصيل عن اتجاه تفكيرهم حتي وإن كانت من خلال طريقة جلستهم.. لأدرك الاتجاه الذي سأتكلم فيه.. ولكن توتري قد وقف بيني وبين التمعن في التفاصيل، فكل ما أسمعه هو صوت تكتكة القلم في يد صاحب الشركة.. وهمهمات الآخرين.. وهم ينظرون لي باستعلاء..

«صباح الخير».

قلتها وأنا أحاول أن أبتسم لأكسر توتر المجلس.. ولكني قد قوبلت بابتسامة صفراء من الكل ممزوجة بالصمت اللعين.. فتنحتحت قليلًا في جلستي.. خبات رأسي خلف جهاز الحاسوب وأنا أحاول أن أفتح الملف ولكن أصابعي كانت تتحرك بتوتر شديد.. أحاول أن أفكر في طريقة لبدء حديثي معهم.. فوجوههم تدل على رفض الفكرة أيا كان محتواها.. نظراتهم لي متعالية، قد ظهر واضحًا في صوت مدير التسويق للشركة.. عندما قال:

ـ الإعلان ده مهم جدًا.. واحنا مزنوقين في الوقت ومعتمدين عليكي، اتمنى نشوف حاجة out of the box انهاردة..

أدخلت جملته السرور إلى قلبي، فلقد كنت أخشى أن يكون تفكيرهم مائل إلى الناحية التقليدية.. رفعت رأسي فجأة لأنظر إليه وقلت بعد أن دب الحماس في صوتي مجددًا:

ـ هي فكرة مختلفة شوية..

رمقني مدير العلاقات العامة نظرة أدركت معناها جيدًا.. لقد مر علينا الكثير من مدعين أن أفكارهم جديدة ومختلفة وكانت في الأصل تراهات.. تمامًا مثل فكرتك اليوم... ولكني لم أكترث.. لقد وضعت ثقتي في السماء وأنها لن تخذلني.. فشعاري الدائم منذ طفولتي هو «لكل مجتهد نصيب».. فقلت وأنا أقف استعدادًا لبدء عرض الفكرة:

ـ الإعلان بتاعنا المفروض يسوق المنتج في إطار العيلة.. واللي مطلوب مننا إزاي نربط الإعلان بالمبدأ ده.. عشان اللي بيشوفه يحس إنه بينتمي ليه وإن البيت ناقص من غيره.. وكمان عشان نوصل لكل الأعمار في كل البيوت واللي بيتفرجوا علينا..

بدا على وجوههم الملل، فصمت للحظة ارتعد بها جسدي.. ليشير لي أحدهم بيده بمعني أن أكمل غير ناظر لي..

ابتعلت ريقي بصعوبة.. فمددت يدي لأرتشف القليل من كوب المياه أمامي.. أشعر أنني افقد الأمل.. تظاهرت بالحماس وقلت:

ـ عشان كدة.. البطل بتاعنا هيكون طفل.. بيستخدم المنتج بتاعنا وهنجيبه في كل مراحل عمره.. بس في كل مرحلة هيكون فيه حاجات حقيقة وكانت مشهورة.. يعني مثلًا..

قاطعني صاحب الشركة ليقول بصوت صارم بعد أن أسند ذراعيه على المكتب:

ـ ياريت ندخل في الموضوع علي طول ونشوف الـpresentation أحسن..

أومأت برأسي ثم نهضت لأقف مقابل شاشة العرض ويدي تمتد لتصل إلى سلسلة مفاتيح جهازي لكي أبدل الصفحات وأنا أشرح.. لأشعر بزغلغلة في عيني ونفسي يضيق.. تجاهلت

الأمر وصممت أن أكمل.. استجمعت قواي مجددًا والتفت لهم قائلة:

الفكرة بتاعتنا انهاردة بتتكلم عن المراحل العمرية.. بكل مميزاتها.. وهنعرض في كل واحدة فيهم حاجات كانت مشهورة.. يعني اللي كان مشهور في التسعينات والألفينات وهكذا لحد ما الشاب يكبر ويتجوز ويعمل عيلته هو كمان والمنتج مكمل معاه.. ودي الـ copy اللي هاتتقال في الاعلان..

التفت لشاشة العرض لكي أقرأ ما كتبت سابقًا وأنا أثق من ملامح وجههم ورائي.. أثق بأن صاحب الشركة شرد الآن في طريقة صناعة ذلك القلم الذي لم ينفك أن يتركه منذ أن بدأنا جلستنا.. ومدير التسويق يلعن قرار اختياري، فأنا أقول فكرة ساذجة مكررة بالنسبة لهم.. أو هكذا بدت.. أمام مدير العلاقات العامة فيجلس صامتًا شامتًا بسبب وقوع الاختيار علي بدلًا من ابنة أخته التي تعمل في نفس المجال..

«خليني ابتدي بالعنوان».

قلت تلك الجملة في محاولة مني لجذب انتباههم، ولكنها في الأصل محاولة مني لاسترداد تركيزي وأن أكف عن تلك الافتراضات السلبية..

ولكن لم لا.. فردود الأفعال واضحة وصريحة.. الرفض التام..

أخذت نفسًا عميقًا ثم بدأت في القراءة.. ومع كل سطر ألمحهم.. لم يعيروني الانتباه ولكني أكملت القراءة رغمًا عن حدة الوضع وقباحته.. ليقاطعني مدير العلاقات العامة بأول جملة له منذ أن جلسنا:

ـ مش حاسة إن الكلام مفتعل شوية؟

التفت له.. لأرى على وجهه أنه سيبدأ بإبراز نقاط الضعف في كتابتي ليثبت صحة قوله بأنني لا أصلح.. انتفض جسدي وشعرت بضعف في صوتي وأنا أجيبه.. «مش عارفة» ثم

قلت بتردد «حضرتك اللي تحكم مش أنا» والذي التفت بدوره لينظر إلى صاحب الشركة ويومئ برأسه بمعنى أنه يرفض.. ليسرق صاحب الشركة نظرة في ساعة يده في ملل واضح ووجه عابس.. ثم قال بصوت صارم:

ـ واضح إن الـ brief مكنش واضح ليكي، أو انتي مفهمتيش..

هم بالوقوف ثم لملم أشياءه وهو يقول بصوت يائس:

ـ وقتنا ضاع وكنا المفروض نسلم الفكرة دي انهاردة لصاحب المنتج.. وحضرتك ضيعتي الفرصة دي علينا وعليكي..

وقعت تلك الجملة كالصاعقة على مسامعي.. فآخر ما أريده أن تضيع مني تلك الفرصة.. شعرت وكأن روحًا جديدة تدب في جسدي.. روحًا حرة تريد أن تنطلق.. مغامرة ولن يوقفها شيء.. روحًا قد ذاقت من مرارة الحياة ما يكفيها لكي لا تعبأ بشيء الآن سوى أن تترك لسان حالها يتحدث بالنيابة عنها، فلقد صمتت لسنوات وقد فاض بها الكيل..

روحًا تتمنى لو أنها تستطيع أن تغير العالم.. بقوانينه بقواعده المفروضة علينا منذ آلاف السنين..

فلقد مرت بكل شيء شاذ جعلها تفقد الثقة في تلك القوانين، تسعى جاهدة لكسرها.. فلم تنل شيئًا من اتباعهم سوى خيبة الأمل والخذلان..

لقد رأيت في الحياة ما يكفيني لكي أقول بملء فمي..

تبًا للمسلمات..

فليذهب كل من قال يومًا إن هناك كتيب أساليب للحياة لا يجيب أن نحيد عنها..

أعلم جيدًا أنني أستحق تلك الفرصة.. وحتى إن كان لا.. فسأبذل كل ما في وسعي.. حتى وإن تسبب ذلك في طردي.. رفعت رأسي إلى الأعلى ثم قلت بصوت عالٍ:

ـ أنا نفسي الناس تفهم إن العيلة مش أب وأم بس..

التفتوا جميعًا لي وقد اعتلت الصدمة وجوههم.. لم أكترث.. سمحت لقلبي أن يتحدث..

العيلة حاجة أكبر من كدة بكتير.. مصطلح المجتمع حصره في شخصين.. وارد جدًا إنهم يكونوا فيهم بلاوي.. ومحدش هيقدر يلوم عليهم، ماحنا بشر وكلنا بنغلط.. بس وارد يكون فيه أمراض نفسية ولا تشوهات في طرق الرباية..

بمعنى أصح.. فيه ناس كتير أوي.. كلمة عيلة دي كتيرة عليهم..

لقد جذب حديثي انتباههم.. فقال لي صاحب الشركة باستعلاء:

ـ لأ.. الكلام ده عند مدام ريهام السعيد.. إحنا هنا بنعمل إعلان شكله حلو للمنتج وفيه فكرة خلاص..

تنهدت ثم ابتسمت بحزن.. لأقول:

ـ بس أنا لسة مكملتش.. حضرتك إسمعني الأول.. أو أنا ممكن أقولها بشكل تاني..

صمت قليلًا ثم اقتربت منهم.. وقلت بصوت أعلى:

ـ أنا عايزة الناس كلها تسمعني..

نظرت له مباشرة ثم قلت:

ـ حضرتك طول حياتك.. فيه أي صاحب موجود أو كان موجود حسيت إنه في يوم من الأيام أخ وأكتر؟

تردد للحظة ثم أومأ برأسه بنعم ليقول بصوت منخفض:

ـ آه أكيد عدى عليا..

تراجعت خطوات للخلف لأقف مقابلهم جميعًا ثم قلت وأنا أوجه لهم الحديث:

ـ مين قال إن العيلة لازم يكون ما بينهم صلة قرابة ولا دم وبس.. الصاحب.. ممكن يكون أحسن من ألف أهل..

* * *

عام ٢٠٢٣

«أمال ابنك فين؟»

قلتها لدنيا وهي تطهي الغداء في مطبخ منزلها.. لأقف بجوارها أناولها الطعام الذي تحتاجه قدر ما أستطيع.. فما زلت لم أتقن الطهي بعد.. لتجيبني وهي ممسكة بحزمة كرفس:

ـ في الحضانة لسة.. بعدين يا نالا.. اللي انتي مسكاهة دي الكسبرة يا ماما مش الكرفس.

قالتها وهي ترفع يدها إلى الأعلى، لأضحك بسخرية، لقد أنقذك اللـه مني يا أحمد..

قاطعنا صوت مفتاح باب المنزل.. «أهم وصلوا» قالتها دنيا وهي تنشف يدها بسرعة لاستقبال طفلها بين ذراعيها.. حتى دخل جمال مقبلًا علينا.. حاملًا ابنهم.. قبلها على وجنتها ثم صافحني ليقول:

إنتي سخنة يا نالا.. هتطبخي فعلًا؟ اطلب أكل من برة يعني؟

ضحكت وقلت له باستنكار:

ـ لأ طبعا.. إنت مجنون..

بادلني المزاح ثم التفت إلى دنيا قائلًا:

ـ أنا هدخل آخد دُش على متخلصي الغدا..

لأحمل أنا بدوري ابنهم.. أداعبه وأقبله في حنان..

* * *

«مين قال إن صحابي مينفعش يكونوا أهلي.. مينفعش أحس معاهم بالأمان ده.. إن هما يكونوا الضهر اللي بسند عليه وقت ما بقع وبترمي في حضنهم عشان يفرحوا بيا أول ما بنجح».

قلتها وأنا اشير بيدي إلى الأعلى كأنني أتخيل، ثم قلت بصوت منخفض:

ـ لأ دايمًا بيتقال اللي منك منك.. وإن الدم بيحن.. وإن مهما حصل دول أهلك ومحدش هيخاف عليك قدهم.. مع إن ممكن جدًا إن اللي مني، يكونوا سبب وجعي..

سبب خوفي المستمر من بكرة.. وخوفي إني ملاقيش الأمان تاني..

أثرت فضولهم لمعرفة نهاية حديثي إلى الحد الذي جعل انتباههم كله موجهًا إليّ.. دون الالتفات أو التململ..

صمت للحظة لأبتلع ريقي.. أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

ـ أو يمكن حظي يكون كويس.. وحد منهم يطلع فعلًا يستاهل كلمة عيلة..

ويفضل دايمًا معايا..

* * *

عام ٢٠٢٥

«كل حاجة جاهزة وفي مكانها؟ قولي آه والنبي».

قالتها فريدة بصوت متوتر للغاية.. لأنحني عليها وأقول بصوت هادئ:

ـ والله متخافيش.. كل حاجة تحفة وانا نزلت بنفسي واتأكدت كمان..

ابتسمت في آخر الجملة لتلتفت إلى المرآة قائلة بصوت مهزوز:

ـ شعري كدة حلو؟ حاسة إنه أوفر.. والمكياج أوفر برضه، أنا أصلًا مش بحبه..

وقفت خلفها وأسندت جسدي كله على الكرسي الذي تجلس عليه، نظرت إلى انعكاسها ف المرآة لأجيبها:

ـ كل حاجة مظبوطة وشكلك تحفة.. شوفتي الصورة اللي صورتهالك؟ دانا نزلتها ستوري بس.. جالي كمية ناس بتشعر في جمالك..

قاطعنا صوت زغرودة قادمة من بعيد.. فالتفت لها لأنظر لها مباشرة.. وأقول على عجالة:

ـ أنا مهما أوصفلك أنا فرحانة إزاي.. مش هتصدقي.. أنا طول عمري بشوفك بنتي مش أختي، فانهاردة هتلاقيني بعيط كتير..

صمت للحظة لآخذ نفسًا عميقًا.. أحاول ألا أبكي لكي لا يفسد تعب ملك في رسم عيني بالكحل.. ثم قلت بصوت متحشرج:

ـ هتمشي وتسيبيني خلاص.. بس لأول مرة مكنش زعلانة..

بالعكس.. مطمنة عليكي..

قاطعنا صوت الباب وهو يفتح لنرى ياسين قد جاء.. حاملًا في يده باقة من الزهور.. خلفه زهرة ودنيا ووالدته.

وقفت فريدة تنظر لهم في خجل..

وأقف أنا خلفها.. لأرى أجمل عروس قد رأتها عيني..

فريدة في فستانها الأبيض..

ابنتي تزف اليوم..

* * *

«ممكن وجود شخص واحد من أهلي يعوضني عن خسارتي ليهم كلهم.. يكون كفاية عندي إن هو في حياتي..

بستغرب الناس حقيقي اللي بتطلع تلاقي أبوهم مش كويس فتدعي إنها تموت ليل نهار.. مع إن من الناحية التانية ممكن يكون ربنا معوضهم بأم محدش يحلم بيها.. أو أخ.. أو أخت..

تبدلت ملامح وجه مدير العلاقات لتصبح أكثر استكانة وهدوءًا.. ظل يرمقني طوال حديثي بنظرات من انبهر بسماع خبر ترقيته في العمل.. تبادلت النظرات معه ليبتسم لي..

ثم أكملت حديثي قائلة بثقة:

ـ ولو مفيش حد خالص.. فهما أكتر ناس محظوظة في الدنيا..

بدا على وجوههم عدم الفهم.. فنظر لي صاحب الشركة بتعجب وقال:

ـ إزاي؟

ابتسمت.. ثم قلت:

ـ عشان عندهم فرصة إنهم يختاروا ناس يكونوا هما أهلهم..

* * *

عام ٢٠٢٣

«أخبار الشغل إيه؟»

قالها حازم وهو يبدأ بالارتشاف من كوب القهوة أمامه.. لأتنحنح أنا في جلستي وعلى وجهي ابتسامة انتصار.. فلقد ابتعت مؤخرًا كرسي لمكتبي صنع خصيصًا لأصحاب مرضى الظهر.. وبما أنني أمضي أوقات طويلة جالسة عليه.. أدير كافة أعمال شركتي الخاصة..

يجب لصاحب الشركة أن يستريح في جلسته أولا.. ليعمل عقله بإبداع على أكمل وجه..

والله ماشية الحمدلله.. الـــteam عندي حقق target أنا مكنتش متوقعاه، فرفع أرباح الشركة بنسبة عشرين في المية زيادة.. إدتلهم أسبوع إجازة..

ضحك حازم وقال ساخرًا مني:

ـ إنتي صاحبة الشركة إزاي..؟ يابنتي هايتدلعوا كدة..

اقتربت من مكتبي وقلت بصوت هادئ:

ـ يا حازم.. أنا وانت بنكره القوانين والقرف ده.. لو أنا خنقتهم مش هيشتغلوا عِدِل وانا اللي هشيل القرف..

اعتدلت في جلستي «عمومًا.. أنا كنت عايزة أقولك حاجة كدة»، فانتبه لي وأومأ برأسه في إشارة منه بأن أبدأ الحديث، فقلت:

ـ فاكر زمان وانا صغيرة لما كنت بقولك كنت بحب الكتابة؟

أومأ برأسه مجددًا منتظرًا الهدف من حديثي.. فقلت بحماس:

ـ أنا قررت أكتب كتاب..

تبدلت ملامح وجهه قائلًا «مبروك» فأجبته:

ـ الله يبارك فيك.. بس أخاف أكتب عنك يقولوا دي بتحبه..

صمت للحظة.. ثم قلت بصوت متعجب:

ـ هو انت إزاي محبتنيش يا حازم؟

ابتسم حازم، ارتشف القليل من القهوة ثم نظر لي مباشرة وقال:

ـ عشان أنا حبيتك حب مختلف عن كل الناس..

حسيت إنك مني..

بنتمي ليكي..

وإننا أهل..

* * *

«العيلة هما الناس اللي شافوا أقبح وأسوأ حاجة فيك.. وقرروا إنهم ميمشوش..

اختاروا إنهم يفضلوا موجودين والتزموا بكل الوعود.. محدش فيهم مشى ورا رغباته وقال ياللا نفسي.. لأ..

هما اللي وافقوا إنهم يكملوا معاك رحلة حياتك»..

توقفت قليلًا عن الحديث لكي أحصل على أي ردة فعل أو كلمة.. ولكن ظلت وجوههم ثابتة.. نظراتهم بدأت في التحول إلى إعجاب.. ولا أدري لماذا، فأنا أتحدث عن واقع نعيشه.. واقع كنت أنا بطلته..

العيلة هتبقى أخت متخلتش عنك.. أو صاحب جدع.. أو صاحبة في ضهري مهما حصل..

صمتت للحظة.. ثم أشحت بنظري إلى مدير العلاقات الذي أطال بالنظر مباشرة لي وقلت وأنا أبتسم:

ـ أو حد قرر إنه يختارك انت..

دونًا عن الناس كلها..

عشان تكون ليه أهل وبيت..

* * *

عام ٢٠٢١

«معلش اتأخرت عليكي».

قالها محمد وهو يجلس أمامي.. فلقد اتصل بي صباح أمس ليقول لي يجب أن يراني.. لأقول بصوت قلق:

ـ لأ عادي.. في إيه قلقتني؟

تفقد ساعة يده ثم قال:

ـ بصي.. أنا قدامي على الـ meeting بالظبط ربع ساعة.. فأنا مش هطول.. أنا بس فيه حاجة نفسي أقولها..

نظرت له غير فاهمة.. ثم أومأت برأسي لكي يكمل حديثه على كل حال:

ـ فاكرة أول مرة شفتك فيها؟ السنة اللي فاتت يوم مقابلة الشغل،

أنا عارف إن اليوم ده.. كنت داخل مش طايقك وبصراحة عشان كنت هموت واشرب سيجارة فكنت مخنوق من رغييك..

بس أنا اليوم ده.. معرفتش أشيل عينيا من عليكي.. حسيت بحاجة غريبة مش فاهمها..

ابتسمت في خجل.. ثم أكمل حديثه قائلًا بصدق:

ـ من ساعتها واحنا صحاب.. صحاب كويسين أوي كمان.. بس أنا بصراحة حاسس بأكتر من كدة..

شعرت برجفة تسري في جسدي كله معلنة استيقاظ مشاعر قد ركدت منذ فترة طويلة.. شعرت بأنفاسي تتسارع.. ورعشة في بطني.. لم يعلم قط حقيقة مشاعري تجاهه ولم أسمح لنفسي بالبوح..

فلقد كنت أخاف من مواجهة تلك المشاعر.. أخاف من وقوفي أمام نفسي لأسألها، أتلك مشاعر حقيقة؟ أم مجرد اشتياق لشعور معين.. لقد مر على بقائك في حياة العزوبية ما يكفي لكي يجعل تلك الأحاسيس أن تنضب.. أليس الأوان الآن لكي تفتحي تلك النافذة مجددًا..

ـ بصي أنا هتكلم بمنتهى الصراحة..

الصراحة، سلاح قد قررت أن أتسلح به مهما كلفني الأمر.. لأفاجأ بأن ذلك هو المبدأ الأساسي لدي محمد أيضًا.. فمنذ أن تعرفت عليه وسمحت له بالتقرب مني باسم الصديق، تعاهدنا على الصراحة المطلقة.. كعهدي مع حازم..

تنهد ثم نظر لي مباشرة قائلًا:

ـ نالا.. أنا بحبك..

* * *

نفسي الناس تفهم حقيقة كلمة العيلة..

الكلمة دي كبيرة أوي.. واللي يستحقها ناس قليلة..

مش شرط نكون قرايب..

المهم إن المشاعر الدافية والاحتواء والتفاهم..

موجودين..

انتهيت تلك الجملة وزفرت بعدها دمعة.. أعلم جيدًا أن حديثي هذا كله كان هباء وأنني تحدثت مع الأشخاص الخطأ.. ولكني شعرت بالراحة نوعًا ما.. فلقد تحدثت روحي.. وانطلق عقلي.. لقد قلت ما كنت أخشى مواجهته طوال السنين وأنا اركض وراء سراب.. رافضة أن أصدق رحيلهم عني، أنكر الخذلان الذي ذقت مرارته.. وأعيش يومي وبداخلي شعور قذر بإن حياتي تلك هي مجرد كابوس وسيمضي..

الآن وبعد أن سمعت أذني، حديثي.. الآن استوعبت حقيقة حياتي..

الآن أدركت كل ما مررت به.. تصالحت معه..

لأبدأ صفحة جديدة..

التفت لهم بعد أن أطلت النظر في شرود إلى جهازي الحاسوب.. لأنتفض سريعًا وأنا أغلقه وأضعه في الحقيبة:

ـ أنا أسفة ضيعت وقتكم بكلام كتير.. وانا..

ليقاطعني صوت تصفيق صاحب الشركة.. نظرت له لأرى بريقًا في عينيه.. ثم قال بحماس:

ـ برافو... الفكرة دي عبقرية... أنا عايزها.. عايز أنفذها.. هي محتاجة شوية تظبيط بس منك..

نهض من كرسيه إلى حد الاندفاع بينما وقفت أنا وعلى وجهي الصدمة.. غير قادرة على إدراك ما يحدث.. ثم وجه حديثه لهم قائلًا ومشيرًا بيده نحوي:

ـ هنقول للناس معنى كلمة العيلة.. هنطلع برة التابوو بتاع الأهل والكلام ده..

هنجيب أمثلة لناس كتير أوي.. أقولكم.. هنصور مع ناس حقيقية..

ثم التفت لي مجددًا وقال بصوت من يتفق على صفقة رابحة:

ـ أنا عايزك تبعتيلي الفكرة دي انهاردة بالتفصيل.. هنبعتها لصاحب المنتج.. وزودي إننا هنصور مع ناس حقيقية..

هتلمس ناس كتير..

اقترب مني ثم مد يده ليصافحني قائلًا وهو مبتسم:

ـ كلامك فكرني بناس كتير أوي في حياتي مكنتش واخد بالي منهم.. شكرًا..

دب الأمل في قلبي.. أدركت أن الحقيقة دومًا هي أقصر طريق إلى قلوب البشر..

والمدعي سيظل وحيدًا حتى يتعفن في وحدته..

أدركت أنني..

نجحت..

* * *

أسرعت بالصعود إلى المنزل.. أقفز على الدرج لأصعد الدرجتين في درجة واحدة.. أتحرق شوقًا لأعرف ردة فعل فريدة عندما أحكي لها تفاصيل تلك الجلسة.. فاليوم هو ميلاد نجاحي في العمل.. لقد حصلت على الفرصة..

اليوم أدركت السبب الحقيقي وراء تلك المشقة التي واجهتها طوال حياتي..

فالإبداع يولد من رحم المعاناة..

وقفت عند الباب.. أخذت نفسًا عميقًا.. أريد أن أتحدث بمجرد وصولي بتلقائية..

فتحت الباب لأتفاجأ بصوت صراخ

«surpriiiseeeeeee»

وقفت بعد أن بهت وجهي من هول الصراخ.. لأرى فريدة وزهرة وحازم ودنيا وجمال.. وقفوا جميعًا في منتصف الصالة حول طاولة عليها تورتة كبيرة مزينة بصورة لي.. والجدار خلفهم مزين باسمي وجملة Happy birthday

«سرعتوني»

قلتها وأنا أغلق الباب خلفي لأدخل المنزل..

«انهاردة قررنا إننا نخلي عيد ميلادك أحلى يوم في الدنيا.. لازم تكسري اللعنة دي».

قالتها فريدة.. لأقبل نحوها وأعانقها بشدة..

وعيناي ثابتة على ساعة الحائط..

العقارب تتحرك.. وكأنها على قيد الحياة.. معلنة أن العائلة قد اكتملت مجددًا..

تماما كإحساسي الآن..

لقد استمرت حياتي.. وبقيت أنا صامدة..

أكتب أولى كلماتي..

لتبقى..

السر في البقاء..

* * *

تمت بحمد اللـه

شكر خاص

إلى تلك الفتاة التي مزجت ما بين قمة القوة وبراءة الطفولة..

تلك الفتاة التي وإن انقلب العالم جميعه ضدي، لحاربته من أجلي..

ناريمان..

أهدي إليكِ روايتي الأولى..

دمتِ لي مسكني..

ودمنا أقوياء..

أحيانًا.. الأمل في الاحتواء قد يأتي في هيئة شخص..

نسرين..

الصديق الصدوق والأخ الكبير..

شكرًا على كونك دائمًا..

أنت..

1. الغلاف
2. بقاء
3. استهلال
4. الفصل الأول
5. الفصل الثاني
6. الفصل الثالث
7. الفصل الرابع
8. الفصل الخامس
9. الفصل السادس
10. الفصل السابع
11. الفصل الثامن
12. الفصل التاسع
13. الفصل العاشر
14. الفصل الحادي عشر
15. الفصل الثاني عشر
16. الفصل الثالث عشر
17. الفصل الرابع عشر
18. الفصل الخامس عشر
19. الفصل السادس عشر
20. الفصل الأخير